علي أحمد باكثير

وا إسلاماه

يطلب من :

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

(قرآن كريم)

هذه قصة تجلو صفحة رائعة من صفحات التاريخ المصرى فى عهد من أخصب عهوده وأحفلها بالحوادث الكبرى والعبر الجلى . يطل منها القارىء على المجتمع الإسلامى فى أهم بلاده من نهر السند إلى نهر النيل وهو يستيقظ من سباته الطويل على صليل سيوف المغيرين عليه من تتار الشرق وصليبيى الغرب ، فيهب للكفاح والدفاع عن أنفس ما عنده من تراث الدين والدنيا .

ويشاء الله أن تحمل مصر لواء الزعامة فى هذا الجهاد الكبير ، فتحمى تراث الإسلام المجيد بيومين من أيامها عظيمين كلاهما له ما بعده : يوم الصليبيين فى فارسكور ، ويوم التتار فى عين جالوت .

وبطلها الملك المظفر قطز يضرب بنزاهته وعدله ، وشجاعته وحزمه ، وصبره وعزمه ، ووفائه وتضحيته ، وحنكته السياسية وكفايته الإدارية ، وإخلاصه فى خدمة الدين والوطن مثلاً عاليا للحاكم المصلح ، والرجل الكامل .

وهى بعد شهادة ناطقة بأن فى هذا الشعب الوديع الذى يسكن على ضفاف النيل قوة كامنة إذا وجدت من يحسن استثارتها والانتفاع بها أتت بالعجائب ، وقامت بالمعجزات .

الفصل الأول

قال السلطان جلال الدين ذات ليلة للأمير ممدود ابن عمه وزوج أخته ، وكان يلاعبه الشطرنج في قصره بغزنة : « غفر الله لأبي وسامحه ! ما كان أغناه عن التحرش بهذه القبائل التترية المتوحشة . إذن لبقيت تائهة في جبال الصين وقفارها ، ولظل بيننا وبينهم سد منيع » .

فنظر إليه ممدود وقد أدرك أن جلال الدين يريد أن يطوى بساط الشطرنج ، فقال له : « أجل يا مولاى ، إن عمي خوارزم شاه أخطأه التوفيق فيما ذكرت من إثارة هذه القبائل التترية . ولكني أرى أنه ليس لنا أن نلومه إلا بمقدار ، فقد كان رحمه الله — أعظم ملوك عصره وأوسعهم ملكا وأشدهم قوة ، وكان لا بد له من التوسع المطرد لئلا يعطل جنوده وجحافله العظيمة عن العمل . فآثر أن يكون ذلك في بلاد لم يدخلها الإسلام بعد ، حتى يجمع بذلك بين خدمة دنياه بتوسيع رقعة ملكه ، وخدمة دينه بنشر الإسلام في أقصى البلاد » .

فقال له جلال الدين وقد بدا على وجهه التأثر والحزن العميق :

« ولكن ماذا جنى عمك من هذا يا ممدود ، غير فقدان الجزء الأعظم من مملكته ، وإغراق بلاد الإسلام بهذا الطوفان العظيم من التتار المشركين ؟ وأخشى أن يكون أبي مسئولا عن هذا كله أمام ربه » .

— حسبه أنه جاد بنفسه في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام . فقد ظل يقاتلهم ويجالدهم جلادا لا هوادة فيه ، إلى أن كبا به الحظ ، فمات شريدا وحيدا في جزيرة نائية » .

— ليت الأمر ينتهي عند جوده بنفسه ، إذن لبكينا ملكا عظيما عز علينا فراقه ، واحتسبناه عند الله والدا كريما آلمنا فقده . ولكن لمصيبته ذيولا لا أحسبها تنتهي حتى تجرى دماء المسلمين أنهارا ، وتشتعل سائر بلادهم نارا . إن هؤلاء التتار لرسل الدمار والخراب ، وطلائع الفساد ، لا يدخلون مدينة حتى يدمروها ويأتوا فيها على الأخضر واليابس ، ولا يتمكنون من أمة حتى يقتلوا

رجالها ، ويذبحوا أطفالها ، ويبقروا بطون حواملها ، ويهتكوا أعراض نسائها ...

وهنا طغى البكاء على جلال الدين ، وعاقه برهة عن الاستمرار فى كلامه ، ففهم ممدود ما جال بخاطره ، ولم يلبث أن شاركه فى البكاء فاستخرطا فيه ، وما كان بكاؤهما لأمر هين ، فقد تذكرا ما وقع لنسوة من أهلهما فيهن أم خوارزم شاه وأخواته ، فقد بعثهن خوارزم شاه من الرى ، حين تفرق عنه عسكره وأيقن بالهزيمة ، ليلحقن بجلال الدين فى غزنة ، وبعث معهن أمواله وذخائره ، التى لم يسمع بمثلها . فاتصل ذلك بعلم التتار فتعقبوهن ، وقبضوا عليهن فى الطريق ، فأرسلوهن مع الذخائر والأموال إلى جنكيز خان بسمرقند .

ومسح جلال الدين دموعه وطفق يقول : « أواه يا ممدود ! ليس فى الدنيا مصيبة أعظم من مصيبتنا . أبعد العز الرفيع ، والحجاب المنيع ، تساق والدة خوارزم شاه وأخواته إلى طاغية التتار ؟ كل فاجعة فى الحياة تهون إلا هذه . أى لذة تبقى فى العيش بعد تركان خاتون ؟ ليت شعرى ما حالهن هناك ؟ كيف يعشن بين أولئك الوحوش ! يا ليت أبى قتلهن بيده ، أو وأدهن فى التراب ، أو ألقاهن فى اليم ، خيرا من أن يقعن سبايا فى أيدى القوم ، ويلقين الذل والهوان عندهم . وما أشك أنه مات فى الجزيرة غمًّا حين بلغه أمرهن .

ــ الله لهن يا مولاى ! لعل الله أن يستنقذهن من أيديهم بسيفك وسيوفنا معك .

ــ هيهات يا ممدود ! أبعد أن دانت لهم خراسان كلها ، ودخلوا الرى ، وملكوا همذان ، وعصفوا برنجان وقزوين ، واتخذ طاغيتهم سمرقند قاعدة له يبعث منها جيوشه وسراياه فى البلاد ، تطمع فى أن نغلبهم بسيوفنا ونجليهم عن بلادنا ؟ لقد كان لوالدى عشرون ألفا من الفرسان فى بخارى ، وخمسون ألفا فى سمرقند ، وأضعافها معه ، فما أغنت تلك الجحافل الجرارة عنه شيئا ، وهو ما هو فى شجاعته وبأسه ، ونفوذه وصرامته ، فما ظنك بى وأنا دونه فى كل شىء ، وقد قوى التتار وعظم سلطانهم فى البلاد .

ـــ إنك ابن خوارزم شاه ، ووارث ملكه وخليفته على بلاده ، وما يكون لك أن تيأس من هزيمة عدوه ، وطرده من بلاد رعاياه .

ولقد كانت الحرب بين أبيك وبين هؤلاء سجالا ، فتارة يهزمهم وتارة يهزمونه ، حتى نفذ القضاء فيه لأمر طواه الله فى علمه ، فمات شهيدا فى جزيرة نائية ، ولكن لم يمت سره فهو حى فيك ، ومن يدرى لعل الله ينصر بك الإسلام والمسلمين ، ويجعل نهاية الأعداء على يديك .

ـــ إن خليفة المسلمين ، وملوكهم وأمراءهم فى بغداد ومصر والشام ، يعلمون بما حصل ببلادنا من نكبة التتار ، وقد استنجد بهم أبى مرارا فلم ينجدوه ولم يصغوا لندائه ، فدعهم يذوقوا من وبالهم ما ذقنا ، وحسبى أن أدفع شرهم عن البلاد التى ملكنى عليها أبى فلا أدعهم يخلصون إليها .

ـــ إن ملوك المسلمين وأمراءهم فى مصر والشام مشغولون برد غارات الصليبيين الذين لا يقلون عن التتار خطرا على بلاد الإسلام . فلهم وحشية التتار وهمجيتهم ، ويزيدون عليهم بتعصبهم الدينى الذميم ، وهم لا يغزون أطراف بلاد الإسلام ، ولكنهم يغزونها فى صميمها .

ـــ لقد كان هذا الذى تذكره فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وأستاذه نور الدين قدَّس الله روحيهما ، أما من بعدهما من ملوك مصر والشام فإنهم مشغولون بقتال بعضهم بعضا وكيد بعضهم لبعض ، ولا يجدون حرجا من أن يستنجد أحدهم الصليبيين على منافسه من ملوك المسلمين . والله لولا التتار على الأبواب لدلفت إلى أولئك الملوك الخائنين ، فضربت أعناقهم واستصفيت بلادهم ، وانتقمت منهم لأبى ، إذ استنجدهم فلم ينجدوه .

ـــ ما عليك من هؤلاء فحسابهم على الله ، وإن كلًّا منَّا لعلى ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتينَّ من قِبله ، وعسى الله أن يجعل من أبيك الشهيد ومنك فى شرق بلاد الإسلام ، مثل نور الدين وصلاح الدين فى غربها . فهيا بنا نجمع جموعنا فنناجز هؤلاء التتار قبل أن يصلوا إلينا .

ـــ قد قلت لك إنى سأحصن حدود بلادى وأمنعها منهم وسأضطرهم بذلك إلى تركها والتوجه إلى الغرب حيث ملوك الإسلام المتقاعدون .

ـــ إنك لن تستطيع حماية بلادك منهم إذا غزوك فى عقرها ما لم تمش إليهم فتلقهم دونها بمئات الفراسخ ، فإن أظهرك الله عليهم فذاك ، وإن تكن الأخرى كان لك من بلادك ظهر تستند إليه وتستعد فيه . وبعد ، فإن جنكيز خان لن يتوجه إلى الغرب حتى يفرغ من الشرق ، ولن يمس العراق والشام حتى يقضى على ممالك خوارزم شاه أجمعها .

فأطرق جلال الدين هنيهة ، وطفق يحرك جبينه بيده كأنه يدير فى رأسه موازنة بين رأيه ورأى ابن عمه ، ثم رفع رأسه وقال : « لا حرمنى الله صائب رأيك يا ممدود ، فما زلت تحاجنى حتى حججتنى ، وهأنذا مقتنع بسداد رأيك ، وماض لما تشير به علىّ ، وحسبى أنك ستكون يدى اليمنى فيما أنهض به من الأمر .

ـــ سأكون يا بن عمى ويا مولاى أطوع لك من خاتمٍ فى يدك ، وسأقاتل حتى أقتل دونك .

ـــ إنك لم تدع لى فى قتال هؤلاء عذرا يا ممدود ، رحم الله أبى ! لقد ورثنى ملكا لا يغبط صاحبه عليه ، وحملنى عبئا ثقيلا .

ـــ سيكون لك من معونة الله وتوفيقه ، إذا أخلصت الجهاد فى سبيله ، ما يشرح لك صدرك ، ويضع عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ، ويرفع لك بهزيمة التتار ، عند الله وعند الناس ذكرك !

فتبسم جلال الدين ، وتهللت أساريره من البشر ، وقال : « بشَّرك الله بالخبر يا ممدود ، إن الله تعالى يقول : (فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب) .

ثم رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى أرغب إليك فوفقنى لما تحبه وترضاه » .

وكان الليل قد انتصف إذ ذاك ،وشعر ممدود أن قد آن أن ينصرف إلى قصره ليأخذ جلال الدين قسطه من الراحة ، فجمع قطع الشطرنج فى صندوقها الذهبى المرصَّع بالجواهر ، ووضعه فى صندوق آخر من الأبنوس المطعم بالعاج ، وقام من مجلسه فقبَّل رأس جلال الدين واستأذنه فى الانصراف ، فقام له جلال الدين ليشيعه إلى باب البهو كعادته ، ولكن حلا لجلال الدين إذ ذاك أن يمشى مع رفيقه إلى نهاية الحديقة التى تفصل بين قصره وبين القصر الذى ينزل فيه ممدود وأهله .

فأراد ممدود أن يصرِّفه عن ذاك قائلا : « حسبك يا بن عمى ، إنك بحاجة إلى النوم لتنشط غدا لما أنت بسبيله » .

فقال له جلال الدين : « دعنى يا ممدود أتجوَّل معك قليلا فى الحديقة ، أستنشق هواءها العذب وأتمتع بجمالها فى هذه الليلة القمراء ، فمن يدرى لعل بدر التم لا يطلع عليها بعد ليلتنا هذه وأنا فى هذا القصر » .

فأخذ ممدود بيد جلال الدين ونزل معه السلم المرمرى وهو يقول له : « بل أبقى الله قصورك عامرة بك يا مولاى » . حتى انتهيا إلى الدهليز حيث وجدا الجرس قائمين بالخدمة ، فأشار لهم جلال الدين أن يبقوا مكانهم ، وانحدر مع ممدود إلى الحديقة ، فأخذا يمشيان بين الكروم والأشجار فى ممرات تفصل بينها مفروشة بالرمل الناعم الأصفر . وكانت السماء صافية الأديم ، والبدر يرسل أشعته البيضاء على غصون الشجر ، فيتألف من ذلك مزاج من اللونين ، رفيق بالعين ، ترتاح إلى رونقه الحالم البهيج ، وعلى الكروم المعروشة فتبدو عناقيد العنب كأنها عقود من اللؤلؤ المنضود ، وعلى أشجار التفاح بثمارها المتهدلة كأنها حسان خفِرات غازلها القمر العابث فأخذت تلوذ منه بورق الغصون ، ويسقط فضل أشعته على الأرض فينثر فيها دنانير تمنع الكف ما تيح العيون .

وتذكر جلال الدين أخته جهان خاتون فسأل زوجها عن حالها ، فإنه لم يرها

منذ أيام ، فأجابه ممدود : « هى فى رعاية الله ورعايتك بخير ، وما منعها من المجىء إليك إلا ثقل الحمل » .

— « أجل ... لطف الله بها وبزوجتى عائشة خاتون ، فإنهما فى شهرهما التاسع ، فبلّغها تحيتى ، وعسى أن أتمكن من زيارتكم غدا إن شاء الله » .

— سنكون سعداء باستقبالك يا مولاى .

— ها نحن أولاء قد وصلنا إلى قصرك .

— ما يكون لى أن أدعك ترجع وحدك ، ولكنى أرافقك إلى قصرك كما رافقتنى إلى قصرى .

فشكره جلال الدين وأعفاه من ذلك ، ولكن ممدودا أبى إلا أن يرافقه فى عودته إلى قصره ، فرجعا فى طريقهما معا حتى إذا بلغا دهليز القصر حيث الحرس واقفون ، قال جلال الدين وهو يبتسم : « هل لى أن أرافقك أيضا يا ممدود ؟ » .

فضحك ممدود وقال له : « إذن ينقضى ليلنا جيئة وذهابا فى الحديقة » ، وودعه وانصرف إلى قصره .

الفصل الثانى

طلّق جلال الدين ما كان فيه من الدعة والراحة منذ تلك الليلة التى عاهد فيها نفسه على المسير لقتال التتار ، وقضى قرابة شهر وهو يجتهد فى تجهيز الجيش وإعداد العدد وتقوية القلاع فى مدن بلاده ، وبناء الحصون على طول خط السير ، يعاونه فى ذلك صهره ممدود ، حتى إذا تم له من ذلك ما أراد ، عيَّن يوم المسير .

وكان جلال الدين كأغلب ملوك عصره مولعا باستطلاع النجوم ، فهو يستشير المنجمين كلَّما همَّ بأمر عظيم . فلما أراد المسير لقتال التتار بعث إلى منجمه الخاص فحضر عنده ، فأمره بالنظر فى طالعه ، فقال له المنجم : « إنك يا مولاى ستهزم التتار ويهزمونك ، وسيولد فى أهل بيتك غلام يكون ملكا عظيما على بلاد عظيمة ، ويهزم التتار هزيمة ساحقة » .

قال له جلال الدين : « ماذا تقول ؟.. يهزمنى التتار وأهزمهم ! » .

فسكت المنجم لحظة كالمتهيب لما يقول ثم قال له : « يا مولاى بل تهزمهم ويهزمونك » .

وكان الأمير ممدود حاضرا ، فأدرك ما ساور جلال الدين من الخوف لما قاله المنجم ، وأشفق على جلال الدين من أن يرجع عن عزمه ، فالتفت إلى المنجم قائلا : « يا هذا لا يعلم الغيب إلا الله ، وإنما جئنا بك لتبشر السلطان لا لتخوِّفه ، وليس السلطان بمن يخاف من تنبؤاتك » .

سكت المنجم هنيهة كمن يقول : ليس هذا بذنبى ولكنه ذنب الكتاب الذى بين يدى ، ثم قال : « إننى عبد السلطان ، إن شاء صدقته ، وإن شاء بشرته » .

فقال جلال الدين : « بل اصدقنى ، لا أريد إلا الصدق ، فقل لى متى يولد هذا الغلام الذى ذكرت ؟ » .

فنظر المنجم فى كتابه وأخذ يحسب ، ثم قال : « إنه يولد فى خلال هذا الأسبوع » .

فنظر جلال الدين إلى ممدود كأنه يعجبه مما يقول المنجم ، ولكن ممدودا لا يشاطر جلال الدين العجب ، ويرى أن المنجم لا بد أن يكون قد ألمَّ بحمل زوجة السلطان وقرب وضعها ، ولا يعز عليه بعد ذلك أن يتنبأ بأنها ستلد ذكرا ، فإذا ولدت أنثى فلا بأس عليه من ذلك لأنه لم يقل يولدللسلطان ، وإنما قال يولد فى أهل بيته . وأقارب جلال الدين فى غزنة وغيرها لا يحصون كثرة ، وربما علم أيضا أن أخت جلال الدين حبلى متم فيكون احتمال مجىء الغلام من إحدى المرأتين أقوى .

هكذا يرى ممدود فى هذا المنجم ، وغيره من المنجمين والضاربين للرمل والقارئين فى الكف . أنهم ليسوا إلا دجالين يدَّعون معرفة الغيب بما أوتوا من براعة وفطنة فى تبين أحوال من يستفتيهم ، وتقصى أسراره ودخائله . وعلى قدر هذه الفطنة والبراعة يوفقون إلى إصابة الحقيقة فى تنبؤاتهم وتخرصاتهم . .

وخطر لممدود فى خلال ذلك خاطر لم يكد يتبينه ويجيل ذهنه فيه حتى ريع لما انطوى عليه من الخطر ؛ فربما تلد زوجته ذكرا وتلد زوجة جلال الدين أنثى ، فيوغر ذلك صدر جلال الدين عليه ، وربما يذهب به إلى أبعد من ذلك فيحمله على قتل الغلام ولو فى السر ، إذا خشى من انتقال ملكه إليه وانقطاعه عن ولده ؛ فهو يعرف حرص الملوك وتهالكهم على أن لا ينقطع الملك عن نسلهم ، وأنهم لا يتحرجون فى ذلك من الفتك بأقرب الناس إليهم وأمسّهم بهم رحِما . ولكنه طرد هذا الخاطر الغريب عن نفسه ، واستعاذ بالله من نزغات الشيطان ، وجعل همه بعد ذلك أن يطعن على التنجيم والمنجمين عند جلال الدين ، ويصرفه عن الاعتقاد بهم والثقة بأقوالهم . وجعل يورد وقائع من التاريخ كذبت فيها تخرصات المنجمين ، ومن أبرزها ما اتفق للخليفة العباسى المعتصم بالله لما أراد أن يسير لفتح عمورية من بلاد الروم ، فنهاه المنجم عن السير فى ذلك اليوم لأن الطالع

لم يكن فى صالحه ، وأنذره بالهزيمة ، فلم يؤثر ذلك فى عزم الخليفة ، وضرب بكلام المنجم عرض الحائط ، وتوجّه ليومه ذاك فكسر جموع الروم وفتح عمورية .

ولكن هذا لم يصرف جلال الدين عن الاهتمام بما قاله المنجم والتفكير فيه . فكثيرا ما يفرح له ويرى فيه بشارة بانتصاره على التتار ، ولكنه لا يلبث أن يحزن حين يذكر أن التتار يهزمونه فى النهاية ، ثم يذكر أمر الغلام فيهون على نفسه الخطب ، ويجد فى ذلك بعض العزاء . إذ يستخرج من ذلك أن المُلك سيدوم فى بيته ، وأن هزيمة التتار الكبرى ستتم على يد أحد أبنائه .

ولم يكن الأمير ممدود بأقل من جلال الدين اهتماما بما تنبأ به المنجم على سوء رأيه فيه وعدم تصديقه به ، فإنه لم يستطع أن يجتث من قلبه الوساوس التى علقت به ، فبقى ذلك الخاطر الغريب يختلج فى صدره نهارا ويؤرقه ليلا ، حتى حرج به وضاق بكتمانه ذرعا ، فأفضى به إلى زوجته جهان خاتون ، وحدَّثها بحديث المنجم ، وشرح لها خوفه من أن تلد هى غلاما وتلد عائشة خاتون جارية .

فشرَكته جهان خاتون فى الخوف ، لما تعلم من طباع أخيها ، ولكنها كتمته فى نفسها وتظاهرت لزوجها بأنها لا تخشى شيئا من ذلك ، لأن أخاها جلال الدين يحبها ويعزها ، ويستحيل أن تمتد يده إلى ابنها بسوء .

وأخذت تدعو الله من يومئذ أن يرزقها ابنة ويرزق أخاها جلال الدين ابنا . ولكن الله لم يستجب لها ، فلم يمض يومان حتى جاءها الطلق فولدت غلاما ، وجاءت زوجة جلال الدين بجارية .

لقد تحقق ما كان يخشاه الأمير ممدود ، فقد تغير جلال الدين لما بشرٌ بالأنثى ، وظل وجهه مسودًّا وهو كظيم ، وأيقن أن الملك سينتقل إلى ابن أخته على وجه من الوجوه فساءه ذلك ، وأحب أن يرى الغلام فذهب إلى قصر أخته ليطمئن على صحتها ، فلما وقع نظره على وليدها وهى ترضعه لم يملك أن

يستر عنها التغير البادى فى وجهه ، وقرأت فى عينه الغدر .

وأرادت جهان خاتون أن تلاطفه بقول يخفف بعض ما يجد فى صدره ، فلم تجد ما أرادت من ذلك ، فسكتت واكتفت بنظرة وجَّهتها إلى أخيها أودعت فيها كل معانى الحنو والاستعطاف . وكان زوجها حاضرا فتولَّى عنها الكلام فقال : « إنه ابنك يا مولاى وأشبه الناس بك ، لقد نزع إليكم يا آل خوارزم شاه فى كل شىء ، ولم ينزع إلىَّ فى شىء » .

فأجابه جلال الدين وهو يتكلف الابتسام ويمسح بيده على خد الطفل : « هذا الذى سيهزم التتار » فبدره ممدود قائلا : « فى ركاب خاله وخدمته إن شاء الله » .

قال جلال الدين : « بل يرث الملك عنى » .

ـــ معاذ الله أن يرث ملكك إلا ابنك الأمير بدر الدين بعد عمر مديد إن شاء الله .

ـــ لم يقل المنجم إن بدر الدين هو الذى يملك بعدى ويهزم التتار .

ـــ إن المنجم أحقر من أن يعرف الغيب يا مولاى . فدع عنك تخرصاته ولا تعبأ بأقاويله .

وهكذا استطاع الأمير ممدود أن يدير الكلام عن الغلام ويصرفه إلى المنجم حيث يختلف رأيه فيه ورأى جلال الدين .

فرأى جلال الدين أن لا فائدة من حجاجه ، وشعر بشىء من الخجل لما بدا منه من الارتياب بطفل صغير لا ذنب له حتى عاتبته عينا أخته النفساء ذلك العتاب الحانى المستعطف الذى كان أفعل فى نفسه من وقع السهام .

وسكت جلال الدين برهة كأنه يعاتب نفسه على ما بدر منه فى حق أخته وزوجها المخلصين فى حبه ، ثم دنا من سريرها وهو يغالب عبرة ترقرقت فى عينيه ، فطبع على جبينها الأبيض الناصع قبلة حارة كأنه يستغفرها مما هجس بخاطره من نية الشر بوليدها ؛ ويعدها بأن يده لن تمتد إليه بسوء ، فلم تجبه

جهان خاتون بغير الدموع تنهمر من عينيها .

وجاءت الأنباء بأن التتار دخلوا مرو ، وساروا إلى نيسابور فوضعوا فى أهلها السيف وملكوها ، وأنهم سائرون إلى هراة ، فلم يبق لدى جلال الدين مجال للانتظار فآذن عساكره بالمسير ، وخرج فى ستين ألفا يحث بهم السير حتى لقى طلائع التتار دون هراة . وكانوا قد حاصروها عشرة أيام ثم ملكوها وأمنوا أهلها وتقدموا يبتغون غزنة ، فقاتلهم جلال الدين قتالا عظيما حتى هزمهم وقتل منهم خلقا كثيرا .

وبعث رسلا تسللوا إلى هراة فأخبروا أهلها بما وقع من انكسار التتار ، ففرح الناس فرحا عظيما ، وأخذوا يتنادون بأن خوارزم شاه قد بعثه الله حيًّا من قبره ليطهر البلاد من التتار . ووثبوا على حاميتهم بالمدينة ، فلما عادت فلول التتار إلى هراة ، وعلموا ما وقع من أهلها انتقموا منهم فقتلوا كل من وجدوه من الرجال والنساء والأطفال ، وخربوا المدينة ونهبوا السواد وأتلفوا كل ما لم يقدروا على حمله من الأموال .

وطاردهم جلال الدين فأجلاهم عن هراة ، ثم ما زال يتعقبهم حتى أوصلهم إلى حدود الطالقان ، حيث اتخذها جنكيز خان قاعدة جديدة بعد سمرقند ، يرسل منها بعوثه وسراياه . ثم رأى جلال الدين أن يكتفى فى هذه الغزوة بما أحرزه من الانتصارات عليهم ، وأن لا يهاجمهم فى قاعدتهم الجديدة حتى يستحم ويريح جيوشه من نصب القتال ، ويعد جيوشا أخرى ويستعد استعدادا جديدا لملاقاة أعدائه ، فعاد ببهرة جيشه إلى غزنة بعد أن ترك حاميات قوية فى البلاد التى طرد منها التتار .

وكان يوم قفوله إلى غزنة يوما مشهودا . احتفل به أهلها احتفالا رائعا ، لم يغض من جماله إلا رجوع الأمير ممدود جريحا محمولا على محفّة ، بعد أن أبلى بلاء حسنا فى قتال التتار ، وأبدى أروع آيات البطولة ، وركب أعظم الأخطار .

حزن جلال الدين لما أصاب صهره الفارس الشجاع ، واهتم بعلاجه اهتماما كبيرا ، وابتغى له أحسن أطباء زمانه ، وأغدق عليهم الأموال ، ووعدهم بمكافآت كبيرة إذا وفِّقوا لشفائه ، ولكن جراحه كانت بالغة ، فلم تُجْدِ فيها مهارة الأطباء ، وأخذت حالته تسوء يوما بعد يوم ، وكان جلال الدين لا يغب زيارته فهو يتردد عليه صباح مساء .

ولما ثقلت عليه العلة وأيقن بدنو الموت ، بعث إلى جلال الدين أن يحضر ، فلما حضر قال له بصوت متقطع وهو يحضن زوجته وابنها الرضيع : « يا ابن عمي : هذه أختك جهان خاتون ، وهذا ابنك محمود ، فأولهما عطفك ورعايتك واذكرني بخير » .

فبكى جلال الدين ، وأجهشت أخته بالبكاء . وكان ممدود ينظر إليهما وإلى الطفل الرضيع نظرات تائهة . فلما رأى بكاءهما التفت إلى جلال الدين وقال له : « لا تبك يا جلال الدين .. قاتل التتار .. لا تصدق أقوال المنجمين » . وكان قد ثقل حينئذ لسانه ولم يلبث أن لفظ روحه وهو يردد الشهادتين .

مات الأمير ممدود شهيدا في سبيل الله ولم يتجاوز الثلاثين من عمره ، تاركا وراءه زوجته البارة ، وصبيا في المهد لما يدر عليه الحول ولم يتمتع برؤيته إلا أياما قلائل ، إذ شغله عنه خروجه مع جلال الدين لجهاد التتار ، ولم يكن له — وهو يودع هذه الحياة ونعيمها — من عزاء عنها إلا رجاؤه فيما أعد الله للشهداء المجاهدين في سبيله من النعيم المقيم والرضوان الأكبر .

وفتّ موته في عضد جلال الدين ، إذ فقد ركنا من أركان دولته ، وأخاً كان يعتز به ويثق بإخلاصه ونصحه ، ووزيرا كان يعتمد على كفايته ، وبطلا مغوارا كان يستند إلى شجاعته في حروب أعدائه . فبكاه أحر البكاء ، وحفظ له جميل صنعه وحسن بلائه معه ، فرعاه في أهله وولده ، وضمهما إلى كنفه ، وبسط

لهما جناح رأفته ، واعتبر محمودا كابنه يحبه ويدلّله ولا يصبر على رؤيته ، وكثيرا ما يجتذبه من يدى والدته فيحمله إلى صدره ، فربما بال الصبى على ثيابه فلا يزيده ذلك إلا حبا وتعلقا به . وكان حين يرجع من قتال التتار يسأل أول ما يسأل عن محمود أين هو ؟ فيجرى إليه فيحضنه ويوسعه ضمًّا وتقبيلا ، ثم يثنى بابنته جهاد التى كان يحبها ولا يصبر عن رؤيتها كذلك .

وهكذا نشأ الطفل محمود والطفلة جهاد فى بيت واحد ، تغذوهما وتسهر عليهما أمّان ، ويحنو عليهما أب واحد . فكانا يحبوان معا فى دهاليز القصر وأبهائه ، وربما خرج بهما الخدم إلى حديقة القصر فى الصباح الباكر فطفقا يدرجان على العشب يتمرنان على المشى ووالدتاهما تنظران إليهما من شرفة القصر ، تطالعان فى عيونهما الحاضر الباسم ، وتتعزيان به عن الماضى الحزين والمستقبل الغامض ، فإذا وقع أحد الطفلين على الأرض فى غير بأس ضحكتا ضحكة هادئة ، ثم رجعتا إلى ما انقطع من حديثهما ، وربما تقع جهاد على الأرض فيدنو منها محمود ليساعدها على النهوض ، فتنظر إحدى الوالدتين إلى الأخرى وعلى ثغرها ابتسامة وفى عينيها سؤال حائر .. أيقدر لهذين الطفلين البريئين أن يشبا معا فى هذا العيش الرغيد فيكون أحدهما للآخر ، أم تحول دون ذلك تقلبات الدهر وفجاءات القدر ؟

وكيف تأمنان غدر الزمان وسطوات الغير ، وتطمئنان إلى ما هما فيه من نعيم العيش وعز الملك ، وقد شهدتا بعينيهما كيف انقض التتار على مملكة خوارزم شاه فقطعوا أوصالها ومزقوها شر ممزق ، وكيف هوى ذلك الملك العظيم من أوج سلطانه ، وانهزمت جيوشه التى كانت تملأ السهل والجبل ، وتفرقت عنه جموعه حتى لجأ إلى جزيرة نائية مات فيها وحيدا شريدا .

ولا ينقص من قلقهما على المستقبل أن جلال الدين قد استطاع لذاك الحين أن يهزم التتار فى كل موقعة لقيهم فيها ، وأن يدفع غائلتهم

عن البلاد التابعة له ، وأن يتحدى جنكيز خان طاغيتهم الأكبر فيرسل إليه كتابا يقول له فيه : « فى أى مكان تريد أن تكون الحرب ؟ » فإن هذا لا يعنى أنه قضى على خطرهم واستراح من هجماتهم . وقد كان خوارزم شاه أقوى وأعظم هيبة وأكثر جنودا منه ، واستطاع أن ينتصر عليهم فى معارك جمة ، ولكنهم غلبوه فى النهاية بكثرة عددهم وتوالى إمداداتهم ، وتدفقهم كالسيل ، وانتشارهم كالجراد . وأن الأمل لضعيف فى أن يقوى جلال الدين على ما لم يقو عليه والده العظيم .

ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى حققت الأيام مخاوفهما ، فقد وردت الأنباء بأن جنكيز خان قد استشاط غضبا من تحدى جلال الدين له ، فسيَّر عسكرا أعظم من عساكره التى بعثها من قبل ، وسماه جيش الانتقام ، وجعل أحد أبنائه عليه ، فاندفعوا كالسهام وطفقوا يخترقون البلاد حتى وصلوا إلى أبواب كابل .

فقصدهم جلال الدين بكل ما عنده من الجيش ، فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا دام ثلاثة أيام بلياليها . وكان جلال الدين يصرخ فى جنوده أثناء المعركة : «أيها المسلمون أبيدوا جيش الانتقام » . وقد انتهى القتال بهزيمة التتار لما أبداه المسلمون من المصابرة والمرابطة ، ورجع معظم الفضل فى ذلك إلى قائد باسل من قواد جلال الدين يدعى سيف الدين بغراق ، استطاع أن يكيد التتار ، فانفرد بفرقته من الجيش وطلع خلف الجبل المطل على ساحة القتال ، ولم يشعر التتار إلا بهذا السيل من المسلمين ينحدر عليهم من الجبل فاختلت صفوفهم ، فأوقع بهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وغنموا ما معهم من الأموال التى نهبوها من البلاد التى مروا بها .

وهنا ينزغ الشيطان بين قواد جلال الدين ، فيختلفون على اقتسام الغنائم ، فيغضب من جراء ذلك الأمير سيف الدين بغراق ، وينفرد بثلاثين ألفا من خيرة الجنود . وتوسل إليه جلال الدين أن يرجع إلى عسكره ، فلم يقبل وذهب غاضبا

وسار معه الثلاثون ألفا من الجنود ، فضعف المسلمون من جراء هذا الانقسام ، وعلم التتار بالأمر ، فجمعوا فلول جيشهم ، وانتظروا حتى تجيئهم أمداد من جنكيز خان .

وبلغ جنكيز خان ما وقع بجيشه من الهزيمة ، فاشتد غيظه ، وزاد حنقه ، فجمع جيوشه وقادها بنفسه ، وتقدم لقتال جلال الدين ، فلم يثبت له جلال الدين ، وفر إلى غزنة فتحصن بها أياما ، ثم رأى أن لا قبل له بدفع المغيرين عنها ، وخشى من وقوعه ووقوع أهله فى قبضة عدوه ، فحزم أمتعته ، وجمع أمواله وذخائره ، فحملها ورحل بأهله وحاشيته صوب الهند ، وسار معه سبعة آلاف من خاصة رجاله ، فعبر بهم ممر خيبر ، ولم يكد يفضى إلى سهل الهند حتى لحقته طلائع جنكيز خان ، فكرّ عليهم وقاتلهم وشردهم ، ولكنه أيقن بالهزيمة حين توالت عليه الجموع ، فتقهقر برجاله إلى نهر السند ، وعزم أن يخوضه إلى العدوة الأخرى ، ولكن العدو عاجله قبل أن يجد السفن اللازمة لحمل أهله وحريمه وأثقاله ، فأقبل على أهله ونسائه وفيهم والدته — وكانت قد لحقت به من خوارزم قبل سقوطها فى أيدى التتار — وأخته جهان خاتون وزوجته عائشة خاتون ، فلما رأينه صحن به قائلات : « لا ينبغى أن نقع فى أيدى التتار .. بالله عليك اقتلنا بيدك وخلصنا من الأسر والعار » ..

صادف هذا القول هوى فى نفس جلال الدين . إذ كان قد عزم على قتلهن خيفة أن يقعن أسيرات فى أيدى العدو ، فأمر رجاله بإغراقهن فى نهر السند ، فابتلعهن اليم وهو على حافة النهر ينظر إليهن بعين دامعة ، ويشيعهن بقلب مكلوم .

ولم يدع له العدو فرصة للتحسر على أعز أحبابه فى الحياة والتفكير فى هول ما صنع بهم ؛ فأمر رجاله بخوض النهر ، وألقى بنفسه فى مقدمتهم فاندفعوا يسبحون فى أثره ، وذلك حين مالت الشمس للغروب ، وتلونت مياه النهر بحمرة الشفق ، وما ابتعدوا عن الشاطىء إلا قليلا حتى أقبلت طلائع العدو فوقفوا على

حافة النهر وانبرى رماتهم فأعملوا قسيهم ، فكانت السهام تتساقط عليهم كالمطر، فأصيب كثير من رجال جلال الدين،ولولا سدول الظلام وحيلولته دون رؤيتهم لفنَوا عن بكرة أبيهم . وأوفى جنكيز خان على النهر ، وكان الليل قد اعتكر وهو على جواده ، والمشاعل تضيء من حوله ، فلم يتبين أحدا فى النهر ، فأرسل ضحكة رنت فى جنبات السهل ، وأخذ يهز سيفه فى الهواء ويقول : « هأنذا قضيت على خوارزم شاه وولده ، وشفيت غليلى وأخذت بثأرى » وأمر رجاله بالرحيل ، فرجعوا من حيث أتوا .

وقضى السابحون شطرا من الليل وهم يغالبون الأمواج ، ويتنادون بينهم بالأسماء ، فيتعارفون بذلك ، ويتواصون بينهم بالصبر ، فربما كلَّ أحدهم من طول السباحة فاستغاث بإخوانه فيحمله مَن يلونه ريثما يستعيد شيئا من نشاطه . وكان صوت جلال الدين يسمع من حين إلى حين يحدوهم فى المقدمة ، ويحضهم على الصبر والمغالبة ، فكانوا يستأنسون به . ولكنه انقطع بعد ذلك فلم يسمعوه ، فذهبت بهم الظنون كل مذهب ، وصاح بعضهم : « قد غرق السلطان فما بقاؤكم بعده ؟ » فاستسلم فريق منهم للأمواج فغرقوا .

وأدرك أحد خواص رجال السلطان الخطر ، فأخذ يقلد صوت جلال الدين ويحدوهم كما كان جلال الدين يفعل لئلا يستيئس الباقون ، فكان لعمله هذا أثر جميل فى نفوسهم ، إذ انتعشت أرواحهم واستأنفوا صبرهم وجهادهم ، ورجع من عزم منهم على الاستسلام للموت عن عزمه ، وبقوا كذلك حتى بلغ السابقون منهم الضفة قبيل منتصف الليل ، فصاحوا بإخوانهم أن قد وصلنا البر . فمنهم من خرج من الماء فارتمى على الأرض من الإعياء ، ومنهم من بقى لديه فضل من القوة فأخذ يساعد الآخرين على الطلوع بجذب أيديهم أو بإرخاء ما بقى عليهم من الثياب لهم حتى يتعلقوا به . واستمر هذا العمل إلى الثلث الأخير من الليل حين لم يبق على الماء أحد من الناجين ، فوضع الجميع رءوسهم على الأرض

وغرقوا فى السبات العميق .

* * *

وطلع الصباح على أربعة آلاف من القوم صرعى فى الصعيد يتقلبون على جنوبهم لم يوقظهم إلا حر الشمس ، فنهضوا من نومهم حفاة عراة لا يكاد يسترهم شيء من الثياب ، والتمسوا سلطانهم بينهم ، فلم يجدوه ، فأصابهم هم عظيم . فأوصاهم الرجل الذى قلّد صوت السلطان فى النهر بأن لا ييأسوا من لقائه ، فربما سبقهم السلطان إلى الضفة من موضع آخر فلجأ إلى قرية من القرى ، وقال لهم إن الرأى أن يبقوا هناك ويتبلغوا بما يجدونه من أوراق الشجر وثماره ، وما يقع فى أيديهم من صيد البر والبحر وأن لا يبرحوا مكانهم ذاك حتى يأتيهم خبر السلطان ، أو تعود إليهم قواهم فيمشوا إلى إحدى القرى القريبة ليحصلوا على ما يعوزهم من الطعام والثياب بالمعروف إن أمكن وإلا فبالقوة .

فوافق الجميع على هذا الرأى ، وبعثوا جماعة منهم للبحث عن جلال الدين فى المواضع البعيدة من الشاطىء ، فعثروا عليه بعد ثلاثة أيام فى موضع بعيد رماه الموج إليه مع ثلاثة من أصحابه ، فقدموا على القوم ففرحوا بنجاة سلطانهم ، وما كادوا يصدقون عيونهم إذ رأوه . فأمرهم أن يتخذوا لهم أسلحة من العصى يقطعونها من عيدان الشجر ففعلوا ما أمرهم به . ثم مشى بهم إلى بعض القرى القريبة منهم فجرت بينه وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها عليهم ، واستلب أسلحتهم وأطعمتهم فوزعها فى أصحابه ، فطعموا من جوع ، وأمنوا من خوف ، وقووا من ضعف . ثم دلف بهم إلى لهاور « لاهور » فملكها واستقر بها مع رجاله ، وبنى حولها قلاعا حصينة تقيه من هجمات أعدائه من أهل تلك البلاد .

فلما اطمأن بها خلا إلى نفسه ، فتذكر ما حل بأسرته من النكبات العظيمة ، واستعرض حوادث أبيه وأمجاده وغزواته وفتوحاته فى البلاد حتى امتدت مملكته من فرغانة إلى أبواب الهند ، وكانت ملوك الأرض تهابه وتخشاه ، وتركع أمامه طلبا لرضاه ، وكانت أموال الدنيا تجبى إليه حتى جاء طوفان التتار ، فصمد لهم

وصدق الله فى جهادهم ، ووقف سدا بينهم وبين الانقضاض على بلاد الإسلام . وما زال يقاتلهم ويقاتلونه فيغلبهم مرة ويغلبونه مرة حتى انتهى أمره ، وذهبت ريحه ، وتفرقت عنه جموعه ، فلجأ إلى جزيرة فى بحر طبرستان مات فيها بعيدا عن أهله وأحبابه .

ثم ذكر ما وقع لنفسه من الأحداث فى الماضى القريب كيف انطوى ملكه ، ودمرت بلاده ، وتشتت شمله وشمل ذويه ، وكيف اختطف ابنه الوحيد وولى عهده الذى لم يبلغ الثامنة بعد . فحمل إلى طاغية التتار ، وذبح بين يديه ذبح الشاة ، وكيف عاش حتى رأى أمه الصالحة وزوجته وأخته وبنات أخواله وأعمامه يغرقن فى اليم بأمره ، وعلى مشهد منه ، وكيف اختفت ابنته جهاد وابن أخته محمود فلم يعلم عنهما شيئا . فلعلهما غرقا مع حريمه فى النهر ، أو أذهلهن الفزع فتركنهما فى العراء ، أو أشفقن عليهما وضنن بهما على حيتان النهر .

وهكذا قدر له أن يعيش وحيدا فى هذه الدنيا ، لا أهل له فيها ولا ولد ، فكأنما بقى حيا ليتجرع غصص الألم والحسرة بعدهم . وما هذه الرقعة الصغيرة التى ملكها بالهند إلا سجن نفى إليه بعد زوال ملكه ، وتفرق أهله وأحبابه . ولمن يعيش بعدهم ؟ وعلام يحمل نفسه أعباء الولاية وتكاليف الأسرة ؟ ولكنه تذكر أن التتار هم سبب نكبته ونكبة أسرته ، فليعش لينتقم منهم ، ولتكن هذه أمنيته فى الحياة ؛ إن لم تبق له فيها أمنية .

الفصل الثالث

لم يكن جلال الدين يعلم وهو يبكى أهله وذويه أحر البكاء ، وينفطر قلبه حزنا عليهم ، أن طفليه الحبيبين محمودا وجهادا حيان يرزقان . ولو علم ذلك وأنهما لا يبعدان عنه كثيرا ، إذ يعيشان فى أحد الدساكر المجاورة للاهور ، لطار إليهما فرحا ، ولتعزى بهما فى كل ما أصابه من نكبات الحياة .

ذلك أن عائشة خاتون وجهان خاتون لما أيقنتا بالنكبة يوم النهر ، ورأتا أن لا محيص من الموت أو الأسر ، عز عليهما أن تريا الطفلين البريئين يذبحان بخناجر التتار المتوحشين ، أو يغرقان معهما فى أمواج النهر ، وجاشت بهما عواطف الأمومة فأوحت إليهما ساعة الخطر أن يسلماهما إلى خادم هندى أمين ، كان قد خدم الأسرة منذ أيام خوارزم شاه ، ليهرب بهما من وجه التتار ، ويحملهما إلى مسقط رأسه ، حيث يعيشان عنده فى أمن وسلام . وأرادتا أن تخبرا جلال الدين بما صنعتاه ، ولكن ضاق وقتهما ، وشغلهما الهول عن ذلك .

أما الشيخ سلامة الهندى فقد فصل عن المعسكر قبيل عصر ذلك اليوم المشئوم . وأركب الطفلين على بغلة بعد أن كساهما ملابس العامة من الهنود ، وساقهما حثيثا نحو الشمال على شاطىء النهر ، ثم أسلك بهما الطرق المنعرجة ، وغاب بهما فى منعطفات الجبال . وأدركه الليل فأوى إلى مغارة فى سفح جبل ، فأنزل الطفلين ، وربط البغلة إلى صخرة فى فم المغارة ، وفرش لهما فى داخلها وطفق يسامرهما ، ويهدىء من روعهما ، ويعللهما بلقاء أهلهما غدا فى لاهور ، بعد أن يكسر السلطان جلال الدين التتار . ويذبح جنكيزخان بيده . وما زال بهما كذلك حتى غلبهما النعاس ، فناما مكانهما ونام جنبهما .

فلما كان اليوم الثانى ساق البغلة بهما ، وانحدر بها من السفح حتى بلغ بها

بطن الوادى ، فالتفت إلى الجنوب فلم يجد أثرا لخيل العدو ولا رجله ، فساقها متيامنا جهة النهر حتى أشرف عليه عند الزوال ، فنزل فى ظل شجرة هناك ، وسقى البغلة وأراحها ، وأطعم الطفلين وسقاهما ، وظل يسليهما بقصص يقصها عليهما ، ونوادر يحكيها لهما ، وهما يستمعان إليه ويتضاحكان . وهو فى ذلك يترقب السفن فى النهر ، فمرت سفينة كبيرة عند العصر ، فلوح لها الشيخ أن تدنو منه ، فلم تعبأ به ومضت في سبيلها . ثم لاح قارب من قوارب الصيد ، فلوح له الشيخ بردائه ، فاقترب منه فإذا عليه صياد وابنه ومعهما شبكة الصيد ، فسأله الصياد ماذا يريد ؟ فأجابه الشيخ بالهندية ، ورجاه أن يحمله ويحمل طفليه إلى الضفة الشرقية للنهر ويعطيه على ذلك أجرا طيبا . فقبل الصياد وفرح بالأجر ، فأنزلهم فى قاربه . ونظر الصياد إلى البغلة فسأل الشيخ ما تصنعون بالبغلة . فأجابه الشيخ « نتركها إذ لا يمكن حملها على القارب ». فقال الصياد : «إذن نأخذها لنا » . قال :« خذها فلا حاجة لنا بها » فأمر الصياد ابنه بالطلوع من القارب ليسوق البغلة إلى قريته . وكان الشيخ سلامة قد أوصى الصبيين أن لا يتفوها بما يدل على أنهما من بيت السلطان جلال الدين،وأفهمهما أن صاحب القارب قد يسلمهما إلى التتار إذا عرف أصلهما ، ففهما ما أراد على صغر سنهما ، فقد تعلما الخوف والحذر مما مر بهما من الأهوال وما شهداه من الحوادث المروعة ، فكانا — وهما فى الرابعة من سنهما — كأنهما من أولاد السابعة أو الثامنة .

وجرى القارب فى عرض اليم تتدافعه الأمواج ، فترى الصبيين مستكينين من الخوف ينظر أحدهما إلى الآخر لا يدريان إلى أين يصار بهما ، إلا أن محمودا كان يظهر التجلد ، ويحاول أن يكتم خوفه من جهاد ، فيطوق ظهرها بذراعيه كأنه بذلك يقول لها : هأنذا أحميك فلا تخافى .

ومضى الشيخ يتحدث إلى الصياد عن قريته فى الهند ، وكيف سافر إلى كابل وتزوج بها فرزق هذين الطفلين ، ولكن أمهما ماتت فأحب أن يعود إلى مسقط رأسه . ليربيهما بين أهله وذويه . ثم يترك الحديث للصياد فيحدثه هذا عن حياة

الصيد وما يلقى فيها من الأخطار . وعن أهول ليلة مرت به فى حياته ، مفاخرا بصبره وشجاعته . ثم ينتقل به إلى قريته فيحدثه عنها وعن حياة أهلها وعاداتهم فى أعراسهم ومآتمهم ، وعن كوخه وزوجته وأبنائه وبناته ، وعن مزرعته الصغيرة وفراخه وأرانبه وبقرته الحلوب وكيف تعنى بها زوجته ، وعن ببغائه الجميلة كيف تسمع الكلام فتحكيه وترده وتسلى أولاده . فكان محمود وجهاد يجدان لذة عظيمة فى سماع أحاديثه ، أنستهما ما كانا يشعران به من الخوف .

وقد مر الوقت دون أن يشعروا به من إمتاع حديث الصياد ، إذ وصل القارب إلى الشط ، فنزل الصياد من القارب وساعد الشيخ وطفليه على النزول . ثم أرشد الشيخ إلى خير طريق يوصله إلى أقرب قرية من ذلك الموضع ، وقال له : « صحبتك السلامة فى طريقك » فأعطاه الشيخ دينارا ، وكان قد رضى بأقل من ذلك ، ففرح به وشكره وقال : « لن أشغل نفسى اليوم بالصيد فحسبى هذا ، وستفرح به زوجتى فرحا عظيما » وقبل الطفلين وحيا الشيخ وودعه ، ثم عاد إلى قاربه ، فأعمل مجدافيه فاندفع فى عرض النهر ماضيا فى سبيله .

سار الشيخ فى الطريق الذى أرشده إليه الصياد حاملا جهادا على كتفيه ، حتى إذا ظن بمحمود التعب من السير أنزلها تسير وحمل محمودا مكانها ، وهكذا دواليك حتى بلغ القرية بعد غروب الشمس ، فبات فى كوخ بها ، واشترى ما يلزمه ويلزم الطفلين من الطعام . حتى إذا أصبح الصباح ابتاع له حمارا من القرية أركبهما عليه . وظل كذلك يتنقل فى القرى حتى وصل إلى مسقط رأسه فى قرية من القرى المجاورة لمدينة لاهور . وعاش الصبيان فى القرية فى أمن وسلام كما أرادت لهما والدتاهما المرحومتان ، وكان الشيخ يرعاهما رعاية بالغة ، ولا يألو جهدا فى ترفيه عيشهما وإدخال السرور عليهما بكل ما يملك من وسائل التسلية والترويح ، وإذا سئل عنهما قال أنهما يتيمان وجدهما فى طريقه فتبناهما . ولكن هذا القول لم يقنع فضول أهل القرية ، فأخذوا يتخرصون ويخترعون الحكايات ، ويحوكون القصص عن أصلهما ، ويتفق معظمهم فى أنهما من أولاد الملوك ، لما

يبدو على وجوههما من سيماء الملك ، وأمارات النبل ، ونضرة النعيم . ولم يجد الشيخ سلامة بدأ من الإفضاء بحقيقة حالهما إلى بعض أقاربه الأدنين الذين كانوا يعلمون بأنه قضى جل عمره فى خدمة السلطان خوارزم شاه والسلطان جلال الدين من بعده ، وسمعوا بما حل بهما من نكبة التتار ، ولكنه استكتمهم الخبر لئلا يصيب الصبيين من جراء ذلك سوء . ولم تمض إلا برهة قصيرة حتى انتهت إلى أهل القرى المجاورة لمدينة لاهور أنباء السلطان جلال الدين وفراره من بلاده إلى الهند ، ومطاردة جنكيزخان له حتى اضطره إلى خوض النهر مع عسكره بعد أن أغرق حريمه ، خيفة أن يقعن سبايا فى أيدى التتار . وترامى إليهم ما جرى بعد ذلك من الوقائع بينه وبين أهل الهند حتى افتتح لاهور واتخذها قاعدة ملكه ، وأخذ يوطد سلطانه بشن الغارات على ما حوله من البلاد والقرى ، فانتشر خوفه فى قلوب أهلها .

وحرج لذلك موقف الشيخ سلامة بين أهل بلاده ، إذ بدأوا يشكون فى أمره وفى أمر الصبيين اللذين معه ، ويرجحون أنهما من أولاد السلطان جلال الدين ، فخشى عليهما من فتكهم ، وأخذ يفكر فى طريقة للفرار بهما إلى لاهور .

وبينا هو ينتظر سنوح الفرصة لذلك إذا بجنود السلطان قد أقبلوا يغزون القرية ، فخرج إليهم الشيخ وعرفهم بنفسه ، وأبرز لهم ابنة السلطان وابن أخته ، وتوسل بهما أن يكفوا عن غزو القرية حتى يأتيهم أمر السلطان . فأجابوا طلبه ، وبعثوا رسولا إلى السلطان بالخبر ، ولبثوا ينتظرون خارج القرية ، فما راعهم إلا السلطان قد أقبل على جواده فى لمة من فرسانه ، فلما سلم عليهم ، قال : « أين الشيخ سلامة ؟ » فتقدم إليه الشيخ وقبل ركابه قائلا : « هأنذا عبدك وعبد أبيك يا مولاى » فترجل له السلطان وعانقه ، وقال له : « أين محمود وجهاد .. ؟ » ، وما أتم السلطان كلمته حتى اندفع الصبيان فارتميا عليه ، فضمهما إلى صدره ، وطفق يقبلهما ويقبلانه ، وهو لا يكاد يعى ما حوله من الفرح ، وقد انهمرت دموعه فبللت خدودهما ، وهو يقول : « ابنتى جهاد ... ابنى محمود ... أنتما

فى قيد الحياة ... الحمد لله ، لست وحيدا فى هذه الدنيا ، لقد بقيا لى وبقيت لهما » .

ثم دفع الصبيين إلى فارسين من فرسانه ليردفاهما خلفهما ، وركب جواده وأمر الشيخ سلامة أن يركب معه ، وقال لقائد الحملة : « كفوا عن هذه القرية والقرى التى تجاورها ، ولا يؤخذ من أهلها الخراج ، إكراما للشيخ سلامة » . فشكره الشيخ ودعا له بطول العمر .

وانتشر الخبر فى القرية فخرج أهلها رجالا ونساء فرحين متهللين ليشاهدوا السلطان جلال الدين . وتقدم إليه وفد من شيوخها وكبرائها يشكرونه على مكرمته وفضله ، قائلين له : « نحن عبيدك وبلادنا بلادك ، ونحن جميعا فى طاعتك » . فحياهم السلطان وقال لهم : « إن الفضل للشيخ سلامة ، فلا تشكرونى واشكروه » . فأقبل الرجال على الشيخ وحملوه على الأعناق ، وأرادوا أن يزفوا به فى طرقات القرية ، فقال لهم السلطان : « اننى بحاجة إليه الآن ليحدثنى بأخباره ، فهل لكم أن تدعوه الآن لى ؟ » .

فقالوا جميعا سمعنا وأطعنا ، وأنزلوه من أعناقهم ، فتقدم إلى جواد أعد له فركبه . وسار السلطان وسار رجاله خلفه راجعين إلى لاهور ، وأهل القرية يهتفون له ويحيونه حتى غاب موكبه عن الأنظار .

وتباشر سكان القرى المجاورة بما أعلنه السلطان جلال الدين من الأمر بالكف عن غزو بلادهم واعفائها من الخراج ، فصار ذلك حديث المجالس والأسمار ، وأصبح جلال الدين حبيبا إلى قلوبهم بعد أن كانت أكبادهم تغلى كراهية له ، ومضاجعهم تقض خوفا منه . وقدمت وفودهم على قصر السلطان بلاهور تشكره على إحسانه إليهم ، وتقدم له ولاءهم وطاعتهم ، حاملة معها الهدايا النفيسة . فقبل السلطان هداياهم وأجازهم عليها ، وردهم إلى بلادهم مكرمين .

وتبدلت أحوال جلال الدين بعد عثوره على ولديه الحبيبين ، وعاد إلى وجهه البشر بعد العبوس ، والطلاقة بعد الانقباض ، وانتعش فى قلبه الأمل ، وشعر كأن أهله وذويه بعثوا جميعا فى محمود وجهاد . وكلما رآهما تذكرهم وتعزى بهما عنهم . وحمد الله على أن لم ينقطع سببه . وقوى رجاؤه فى استعادة ملكه وملك آبائه ، والانتقام من أعدائه التتار ليورث محمودا وجهادا ملكا كبيرا ، متين الأساس ، قوى الدعائم ، يخلد به سؤدد بيته العظيم .

ومما قوى رجاءه فى نجاح مسعاه ما طاف بذاكرته حينئذ من حديث المنجم الذى تنبأ لمحمود — وهو بعد جنين — بأنه سيصير ملكا عظيما ، يملك بلادا عظيمة ويهزم التتار هزيمة ساحقة . فقد تأكد لديه الآن أن المنجم كان صادقا فيما تنبأ به . فقد قتل التتار الأمير بدر الدين ابنه الوحيد وولى عهده ، فلم يبق من أهل بيته من أحد أجدر بوراثة الملك عنه من محمود ابن أخته . ولعل الله لم ييسر له النجاة من الموت المحقق بالغرق فى النهر أو بسيوف العدو إلا لما ينتظره فى المستقبل من مصداق قول المنجم فيه .

ولم يعد جلال الدين يشعر بما كان يشعر به من قبل من الغضاضة والخوف أن ينقطع الملك عن ولده، وينتقل إلى ولد ممدود ابن عمه. فقد أصبح يعتبر محمودا كابنه، بل ربما كان أعز عليه وأحب إليه من ابنه، لما كان يمتاز به الأمير الصغير من خفة الروح ، وتوقد الذهن ، وعزة النفس ، وجمال الصورة ، فى مسحة خفيفة من الحزن العميق تتردد فى وجهه الأبيض الوسيم ، فتأبى على من يراه إلا أن يرق له ويحبه وينجذب إليه أول ما تقع عينه عليه . وقد عجب جلال الدين لنفسه كيف خطر بباله يوما أن يقضى على هذا الغلام الوسيم وهو فى مهده ، خيفة أن يرث الملك عنه ، وما كان يعلم إذ ذاك أن هذا الغلام سيكون يوما ما بقية أهل بيته وعزاءه الوحيد فى هذه الحياة . فحمد الله على أن عن له من الأمور ما غل يده عن الامتداد إليه بسوء .

وهذه الذكرى الأليمة أسلمته إلى التفكير فى حقارة الحياة الدنيا ، وغرور متاعها ، وكذب أمانيها ، وفى لؤم الإنسان وحرصه على باطلها ، وبخله بما لا يملك منها ، وخوفه مما عسى أن تكون فيه سلامته وخيره ، واطمئنانه إلى ما لعله يكون مصدر بلائه وهلكته . ألم يعش هو حتى رأى الدولة التى شادها أبوه العظيم تنطوى بين عشية وضحاها فأصبحت أثرا بعد عين ؟ ألم يبلغ به الحرص على الملك وتوريثه لأبنائه أن فكر فى قتل طفل من أمس الناس به رحما إذ قيل له رجما بالغيب إنه سيكون ملكا عظيما ؟ أفلم ينطو هذا الملك كما انطوى ملك أبيه ؟ هل استطاع أن يضمنه لنفسه فى حياته حتى أراد أن يضمنه لابنه بعد مماته ؟ وهل أخذ على الأيام عهدا أن تحفظ له ابنه حتى يلى الملك بعده ؟ عجبا ما أجهل الإنسان يقرأ من أخبار الماضين وما حاقت بهم من صروف الدهر ، وحلت بساحتهم من المثلات ، ما فيه عبرة له ، وتبصرة بما ينفعه وما يضره ، فلا يتعظ بذلك ، ويتمادى فى باطله حتى يكون هو نفسه مضرب العظة . وستكرر هذه المآسى على ملعب الحياة قرونا بعد ذلك وقرونا ، ويوجد بعد فى هذه الدنيا ملك يقتل أباه أو أخاه أو ابن أخيه أو عمه أو ابن عمه ، تنافسا على ملك زائل ، أو عرض حائل .

كان جلال الدين منفردا فى مخدعه ، متكئا على جانب سريره ، لما استرسل فى هذه الأفكار ، وغرق فى هذه التأملات ، فما أيقظه إلا وقع أقدام خفيفة سريعة ، فعرف أن القادم إما محمود أو جهاد ، فتهيأ للقائه ، فقد اشتاق إلى هذين الرفيقين العزيزين إذ لم يرهما منذ الصباح ، وقام إلى الباب ففتحه فإذا جهاد تسعى إليه ، فاستقبلها متهللا وحملها وأقعدها على حجره فى السرير . فما راعه إلا استخراطها فى البكاء ، فضمها أبوها إلى صدره وقال لها بلهجة حانية : ماذا بك يا جهاد يا حبيبتى ؟

فاستمرت فى بكائها ولم تجب .

— هل وقعت من ظهر جوادك الصغير ؟ فأومأت برأسها أن لا .

— هل ضربك محمود ، هل كسر لك احدى عرائسك الجميلة ؟ هل قال لك قولا أغضبك ؟

فكانت تجيب عن كل سؤال من هذه الأسئلة بالنفي وهى مطرقة ، كأنها لا تطيق أن ترى عينى أبيها ، فوضع خديها بين كفيه ، وأدار وجهها إليه قائلا : « إذن ماذا أصابك يا بنيتى العزيزة ... ألا تقولين لأبيك ؟ » .

فهدأ جأشها لما غمرها من هذا الحنان الأبوى الخالص ، وأجابت أباها قائلة : « لا بد أن التتار قتلوا محمودا ، فقد خرج لقتالهم من الصباح ولم يعد » .

فتبسم ضاحكا من قولها وقال لها :

— لماذا لم تخرجى معه على جوادك كعادتكما ؟

— أنه منعني اليوم أن أخرج معه لأنه سيلتحم فى معركة كبيرة مع التتار ، ويخشى أن أقع أسيرة فى أيديهم .

فلم يتمالك السلطان أن أغرق فى الضحك ، ولكنه لحظ على وجهها الامتعاض كأنها تستنكر من أبيها أن لا يقابل مثل هذا الحدث الجليل إلا بالضحك ، وأدرك خطأه فأراد أن يصلحه بمراعاة شعورها ومجاراتها فيما تقول ، فقطب فجأة ، وتصنع الاهتمام والتطلع ، وقال لها بصوت هادىء رزين : « لا تخافى على محمود فإنه فارس شجاع لن يقدر التتار على قتله » .

— نعم إنه فارس شجاع ، ولكنه واحد وهم ألوف .

— صدقت : ولكن خبرينى أولا : ألم يمتط محمود جواده الأشقر ، ولبس خوذته الفولاذية ، ودرعه المسردة ، وتقلد سيفه البتار ، ورمحه الطويل ، وتنكب قوسه وحمل ترسه ؟

— بلى ، إنه خرج بكامل سلاحه .

— هل أنت موقنة بأنه لم ينس شيئا من أسلحته هذه ؟

— نعم ، كيف أشك فى هذا وأنا التى أحضرتها له وساعدته على لبسها ؟

— إذن فاطمئنى عليه ، إن سيفه سيكسر سيوفهم ، ورمحه سيحطم رماحهم ، ودرعه وخوذته ستقيانه وقع سهامهم وضربات سيوفهم ، وقوسه كفيلة بإصابة بعيدهم ، وإذا تكاثرت عليه الجموع ، ففى جواده الخير ، سينجو به منهم ، فلا يلحقه منهم أحد .

— ولكنه لم يعد إلى الآن .

— لعله استحلى قتالهم ، فلم يشأ أن ينصرف عنهم حتى يبيدهم ، أو لعلهم انهزموا فذهب يطاردهم ويتعقب آثارهم ... ، هل أسر إليك كلمة قبل خروجه أو طلب منك شيئا ؟

— ... لم يطلب منى شيئا ... نعم طلب منى أن أقبله فلم أفعل ...

— إنك أخطأت يا سيدتى إذ منعت فارسك قبلة صغيرة لا تكلفك شيئا ، وهى له كل شىء .

— إنى وعدته بها حين يرجع ظافرا من قتالهم .

— هذه قبلة الانتصار تجزين بها فارسك على ما أظهر من البطولة فى ميدان الوغى ، وأهم منها وأنفع له قبلة التشييع تزودينه بها ، فتملؤه عزما وإيمانا ، وتزيده ثباتا وإقداما . وتكون له سلاحا أمضى على أعدائه من كل ما تقلده من السلاح . أرأيت إذن كيف أخطأت فى عملك ؟

— سأصلح خطئى — سأقبله مرتين إذا عاد ظافرا من المعركة .

سيكون هذا إسرافا منك تقل به قيمة قبلاتك عنده . يجب أن تكون قبلاتك غالية يا جهاد ، ولكن امنحيه قبلة واحدة حين يعود ، وأجلى الأخرى حتى يخرج

لقتالهم مرة ثانية . والآن يا أميرتى امنحى أباك قبلة صغيرة من فمك هذا الجميل .

فطوقت عنقه بذراعيها وقبلته ، ثم استلقت على حجره باسمة ، فأدار لها خده الآخر قائلا : « وقبلة لهذا الخد » .

فجذبت نفسها من حجره ، وانتصبت واقفة ونظرت إليه تقول :

— يا سيدى يجب أن تكون قبلاتى غالية !

قالت هذا وانطلقت تعدو إلى جهة الباب ، وأومأت إليه تدعوه للحلق بها ، فتبعها جلال الدين ، فخرجت تعدو فى الدهليز ، فجرى خلفها حتى دخلت البهو ، فعمدت إلى الستائر السندسية المرخاة على النوافذ الكبيرة فاستخفت وراءها . فلما دخل أبوها البهو وقف يتفرس فى أى ناحية من البهو اختبأت ابنته الجميلة . فعسر عليه تعيين تلك الناحية ، ولم يشأ أن يقصد ناحية ربما يخطىء فيها ، فعمد إلى حيلة يستخرجها بها من مخبئها ، فنظر جهة الباب وقال بصوت عال : « أهلا بمحمود ، أين كنت يا بنى ؟ » فما أتم كلمته حتى لاحت له حركة فى إحدى الستائر فهجم عليها ، فانتزعها منها وحملها إلى صدره ، وطفق يلثمها فى وجناتها ويقول لها : « هاتى قبلة لهذا الخد » فتأبى قائلة : « إن قبلاتى غالية » فيقول لها : « ليست غالية على أبيك » ويعود إلى لثمها فتصيح قائلة : « حسبك أطلقنى ! أرسلنى ! » فيجيبها : « كلا لن أرسلك حتى تقبلى الخد الآخر » فما يسعها إلا أن ترضخ له فتقبل خده الآخر ، فيمسك برأسها ويضمه إلى وجهه يطيل بذلك مدة القبلة الغالية .

وما أن أرسلها حتى انطلقت إلى جهة الباب تبحث عن محمود ، فلما لم تر أحدا التفتت إلى أبيها قائلة : « إنك أوهمتنى أن محمودا جاء ولم يجىء » .

فأجابها ضاحكا : « إنى فعلت ذلك لأهتدى إلى مقرك وقد نجحت الحيلة » .

فسكتت الصبية هنيهة وطفق وجهها يربد ويغيض إشراقه ، ثم قالت وهى على وشك البكاء : « لقد قلت لك إنه لن يرجع ، فلا بد أن التتار ظفروا به فقتلوه أو أسروه » .

فانحنى جلال الدين على ابنته وأخذ يجيل يمينه فى شعرها الذهبى اللامع ويقول لها : « قلت لك يا حبيبتى أن لا خوف على محمود ، فلن يظفر التتار به ، ولعله الساعة فى طريقه إلينا » .

ولم يقل جلال الدين كلمته هذه كما قالها فى المرة الأولى ، فقد استطال غياب محمود حقا ، واستبطأ مجيئه ، وبدأ الشك يدب فى خاطره ، والقلق يساوره خشية أن يكون وقع للغلام حادث فى تجواله بضواحى المدينة ، فرأى أن يستفهم عنه الشيخ سلامة ، فأخذ بيد ابنته قائلا : « هيا بنا نستقبل الفارس الشجاع يا جهاد » ومشى ومشت جهاد معه متثاقلة فى مشيها كأنها أدركت فى نفسها أنهما لا يسيران لاستقباله ، كما زعم أبوها ، بل للبحث عنه .

وهبطا إلى الطبقة السفلى ، ومرا بالخدم والحجاب ، فنادى جلال الدين الشيخ سلامة الهندى ، فخرج من غرفته يسعى حتى إذا دنا منه قبل الأرض بين يديه ، ووقف ينتظر الأمر .

قال له جلال الدين : « أين الأمير محمود يا سلامة ؟ » .

فأجابه الشيخ سلامة : « إنه لم يعد بعد من تجواله يا مولاى » .

— هل رافقه سائسه أم ركب وحده ؟

— إنه أمر سائسه اليوم أن يخرج معه بسلاحه قائلا إنه سيقاتل التتار .

فانفرجت شفتا جلال الدين عن ابتسامة خفيفة لم تكد تستر القلق البادى فى وجهه ، ثم قال : « أما ترى أنه تأخر اليوم كثيرا عن ميعاد رجوعه ؟ » .

— أجل يا مولاى ، أنه — حفظه الله — مغرم بالركوب لايكاد يتعب منه .

وقد شكا إلى السائس أنه يجد عنتا كبيرا كل يوم فى حمل الأمير على الرجوع من تجواله .

— إن عمله هذا يسرنى منه إذ يهيئه لتكاليف الغد ، ويقلقنى عليه إذ ليس لنا آل خوارزم شاه من خلف غيره .

والتفت السلطان إلى ابنته فرأى ازدياد قلقها من الحديث الذى دار بينه وبين الشيخ سلامة ، فأراد تطمينها وقال : « اذهب يا سلامة فمر بإحضار جوادى وجواد الأميرة جهاد ، لنركب معا فى استقبال الفارس الشجاع » .

فمضى الشيخ لطاعة أمر السلطان متقهقرا إلى الوراء ، لئلا يوليه ظهره احتراما له كدأبهم فى ذلك . وما ابتعد بضع خطى حتى سمع صهيل جواد محمود خارج السور ، فقال السلطان : « ارجع يا سلامة ، ها هو ذا محمود قد أقبل فيما أرى » .

ولم تنتظر جهاد أمر أبيها ، فخفت إلى جهة السور ، وتبعها جلال الدين ، فلم يرعهما إلا الجواد الأشقر الصغير قد أقبل يركض وحده ليس عليه صاحبه . فلما دنا منهما خفف من عدوه ، وأرخى ذيله ونكس رأسه ! وطفق يحمحم حمحمة تعرف فيها نغمة الحزن ، حتى أسلم زمامه للسلطان ، فأخذ يصعد النظر فيه ويصوبه ، وقد استولى عليه الذهول وبلغ منه القلق مبلغه ، فهاله ما رأى من آثار الدم على وجه الجواد وصفحة عنقه وكفليه ، فأيقن أنه تدحرج من تل عال . وكأن الصدمة أذهلته عما يقتضيه الموقف من الحركة ، فوقف هنيهة صامتا لا يدرى ما يفعل . أما جهاد فقد أخذت بجلباب أبيها ، وتعلقت به ، وهى تكظم عبرة تكاد تخنقها وتوشك أن تنفجر . وإذا بجواد كبير قد لاح من منعطف السور وهو يسير سيرا رفيقا ، وعليه رجل وغلام أمامه . فلم يبق لدى جلال الدين شك فى أن محمودا أصيب ، وأن السائس حمله معه على جواده ، فرأى من الحكمة أن يصرف ابنته الصغيرة عن مشهد قد يصدمها ويذهب صوابها . فأمر الشيخ سلامة أن يحملها داخل القصر . وما انتزعها من جلباب أبيها حتى

انهمرت دموعها ، وانفجرت تصيح وتعول .

وانطلق جلال الدين طائر اللب حتى لقى الجواد القادم فى منتصف الطريق ، فاحتمل الأمير الصغير من يدى السائس الذى ملكه الخوف فلم يدرك ما يقول . وألقى عليه السلطان نظرة هائلة كاد يصعق لها . وكان الارتباك قد أنساه أن يترجل احتراما لمولاه . فترجل وفرائصه ترعد ، فلم يكلمه السلطان ، ومضى يحمل الأمير المصاب مسرعا ، ولكن فى رفق ، حتى بلغ الباب فدخله ، وأشار للحجاب بأن يسرعوا بإحضار الطبيب . وصعد إلى أعلى القصر ، وانطلق الحجاب مهرولين عليهم دلائل الدهش والقلق .

ودخل الطبيب على السلطان ، فوجده مكبا على الأمير المصاب يجس نبضه ليطمئن على أنه حى بعْد ، ولكن القلق أطار صوابه فخيل إليه أن النبض ساكن وليس بساكن . وما أن لمحه السلطان حتى تنحى له عن المصاب ، فدنا من السرير ، وكان أول ما فعل أن حل عن الفارس الصغير ملابسه العسكرية ، ثم جس نبضه والسلطان ينظر إليه واقفا على أحر من الجمر ، يتفرس فى وجهه عسى أن يقرأ فيه حقيقة الحال قبل أن ينطق بها لسانه . ولكن الطبيب لم يبطىء عليه فى الجواب إذ قال له : « مولاى . أن مولاى الأمير بخير لا خوف على حياته ، وإنما به إعياء شديد أفقده وعيه » .

ثم استخرج من حقيبته حقا به سائل أحمر ، فغمس فيه قطنة صغيرة فمسح بها حول أنف الأمير ورش على وجهه شيئا من ماء الورد ، ثم كشف عن جسده ، فرأى جراحا طفيفة فى مواضع منه ، إلا جرحا واحدا غائرا فوق حاجبه الأيمن مسح عنه الدم ، ثم ذر عليه مسحوقا أبيض ، ووضع عليه قطنا لفه بعصابة ربط بها رأسه .

وما أتم عمله هذا ، حتى تحرك الأمير وفتح عينيه ، فجعل يديرهما فى أرجاء السقف ، ثم حاول الجلوس وهو يقول : « أين أعدائى ، أين الأوغاد الجبناء ؟ لقد هربوا خوفا منى ! » ولم يملك جلال الدين نفسه من الفرح إذ رآه يتحرك

وينطق أن دنا منه ، فضمه وجعل يقبله فى رأسه ، ويقول : « الحمد لله ، أنت بخير يا محمود ، يا حبيبى ، يا بنى » .

فتعلق محمود بعنقه ، وجعل يتأمل فى وجهه كأنه يستحضر شخصا بعُد العهد به فنسيه ، ثم ابتسم قائلا : « خالى ! ما جاء بك هنا ؟ هل جئتنى بمدد لقتال العدو ؟ »

— أجل يا محمود ، أتيتك بمدد عظيم ، وسنبيد التتار أجمعين .

وتلفت محمود حوله ، ونظر إلى نفسه فقال : « أين سيفى ورمحى ، وأين جوادى ؟ » .

لم يجد جلال الدين ما يجيبه به . وأدرك الطبيب أن الصبى لم يسترجع بعد كامل رشده ، فدنا منه وحل يديه من عنق السلطان ، وأضجعه على الفراش ، وقال له متلطفا : « إن القتال واقف الآن ، وأنت بحاجة إلى النوم والراحة ، فنم واسترح ثم نستأنف قتال الأعداء بعد ذلك » قال ذلك ونشر الغطاء على الأمير ، وما استقر رأسه على الوسادة حتى استرخى جفناه وغلبهما النعاس ، فغرق فى سبات عميق .

أما سيرون السائس فقد التجأ فى خلال ذلك إلى الشيخ سلامة ، وقص عليه ما وقع للأمير على غير تقصير فى رعايته وحمايته ، قال : « ولكن الأمير صعب المراس ، شديد الغرام بالركوب ، ينطلق بجواده فلا يكل ولا يتعب ، ولا يقف ولا يستريح ، وإذا أفضى إلى ميدان فسيح أطلق لجواده العنان لا يبالى ما يعترض أمامه ، فربما وثب به تلا عاليا ، أو انحدر به فى جوف غائر . وإذا رآنى حفزت جوادى لأقاربه ، رعاية له وحفظا عليه ، ألهب جواده بالسوط ، فزاد فى عدوه ، فلا يسعنى إلا أن أكف عن مباراته ليقارب من سيره . وربما خشيت عليه من شدة الجرى فأطلقت جوادى ملء عنانه ، فقبضت على زمام جواده واختطفته من سرجه . وكان هذا أشد شىء عليه إذ يغضب منه ، ويوسعنى ضربا بسوطه وركلا برجله ، فلا يرضى حتى أمكنه من جواده مرة أخرى .

أما اليوم فقد خرج بكامل سلاحه ، وقال لى فى الصباح أنه سيقاتل التتار قتالا عنيفا ، وسيلتحم معهم فى معركة هائلة ، وأمرنى أن أحمل سيفى معى فربما يحتاج إلى معونتى . فلما خرجنا ، من المدينة همز جواده فتوجه به نحو الغابة الشرقية ، فسألته أين يريد ؟ ، فقال لى إن الأعداء هناك ، وأمرنى بأن أتبعه ، وأن ألزم السكوت ، فتبعته حتى إذا كنا على مرمى حجر من طلائع أشجار الغابة . وقف وأشار إلى فوقفت حذاءه . فأخرج قوسه وناولنى جعبة سهامه . فجعل يأخذ منها سهما بعد سهم فيثبته على القوس ثم ينزعها كأحسن ما ينزع الرماة . وينطلق السهم له حفيف بين فروع الأشجار وأغصانها الملتفة . ويقول لى بين حين وآخر :

— انظر لقد شككت بطلين بهذا السهم !

وكان يفعل ذلك بحماسة عظيمة ، جعلتنى أحسب نفسى فى معركة حقيقية ، لا بين يدى أمير صغير يلعب . ولما فرغت الجعبة من السهام تنكب قوسه ، وسل سيفه من قرابه . وأمرنى أن أفعل كذلك . ثم تقدم بخطى ثابتة وهو شاهر سيفه . حتى إذا بلغ الأشجار قال لى اضرب . فجعل يضرب فروع الأشجار بسيفه يمينا وشمالا . وأنا أفعل مثله . وبقينا كذلك حتى كلت يدى من الضرب . ورأيته قد احمر وجهه . وتصبب العرق من جبينه . ولكنه ظل يواصل الضرب ، حتى أشفقت عليه . ولما رآنى كففت ، نظر إلى مغضبا وصاح : « اضرب يا هذا ! » ، فبقيت فى حيرة من أمره ، كيف أحمله على وقف الضرب ، حتى هدانى عقلى إلى حيلة طريفة . فأظهرت حماسة كبيرة فى القتال ، وجعلت أضرب ضربا شديدا ، فرأيته طرب لعملى ، وحمى وازدادت حماسته ، فصار يضرب ضربات متتابعة . وعند ذلك صحت بأعلى صوتى :

« لقد انهزم جيش العدو ! ها قد فروا من سيفك يا مولاى الأمير ! »

أنتجت حيلتى هذه الأثر المطلوب ، إذ كف الأمير عن الضرب لما سمع هذا القول ، واستنار وجهه ، وتهللت أساريره ، وما كان أجمله وهو يختال بجواده ،

وجواده يختال به ، كأنما أحس الحيوان بما أدرك مولاه من مجد الانتصار فشاطره الفخر به ، أو كأن خيلاء البطولة التى ساورت الأمير قد سرت منه إلى جواده فهى تمور فى عنقه وتتنزى فى أعطافه !

وقف الأمير كذلك هنيهة يتلعب بعنان جواده ، فطورا يشده وطورا يرخيه ، والجواد يرفع صدره ويخفضه ، ويترنح ترنح النشوان يمنة ويسرة . ولعل الفارس البطل انتبه حينئذ إلى أن عمله لم ينته بعد ، وأن عليه أن يطارد العدو ويتعقب آثاره بعد أن يهزمه . فما هى إلا لحظة حتى دفع جواده فى صدر الغابة ، فأدركت الخطر ، وخشيت أن يصطدم بشجرة أو يقع فى غدير ماء ، فصحت به : « أن الأعداء أخذوا هذا الوجه يا مولاى وانطلقوا فى عرض الميدان » ، فكر راجعا إلى حيث كنت ، فاستدبرت وانطلقت إلى الميدان الفسيح ، فدفع جواده فلحقنى ، ثم سبقنى صائحا بأعلى صوته : « ادفع ! ادفع ! لا بد من إدراك العدو » .

وأعمل سوطه فى كفل الجواد ، فطار به قدما ، وخلف غباره فى وجهى ، ولم أتمكن من اللحاق به إلا بعد عناء وجهد ، وكلما اقتربت من محاذاته زاد فى دفع جواده ليحتفظ لنفسه بفضل السبق . وكان هذا دأبه معى كل يوم كما ذكرت ، ولكنه لم يظهر فى يوم من الأيام من القوة والنشاط والتحمس والاندفاع ما أظهره اليوم . وماذا أقول فى وصفه وبم أشبهه ؟ أأشبهه بالليث أوذى فى قفصه فهاج فحطمه ، وانطلق يطوى السهل والأكم وراء فريسته ! أم أشبهه بالعاصفة تهب فلا يقف دونها شىء ؟ لقد خلتنى أمام بطل من أبطال الفروسية ، لا أمام صبى لم يسلخ السابعة . وأقسم لك لولا تذكرى دائما ما عهد إلى من حراسته ووقايته ، وخوفى أن يصاب بسوء وهو فى عهدتى ، لما جشمت نفسى مشقة الجرى معه . فقد كل جسمى ، ونفدت قوتى ، وبلغ الجهد منى مبلغا كاد يقضى على ، وهو ما زال فى عنفوان قوته ، وغلواء نشاطه ، كأنه معين نشاط لا ينضب . وأن عجبى من جواده الصغير لا يقل عن عجبى من راكبه ، وأنه ليجرى وأنى لأجرى

معه ، وكأن السهل بساط يطوى تحتنا طيا ، وكأن التل يجذبنا جذبة واحدة إلى رأسه ، ثم يدفعنا دفعة واحدة إلى أسفله .

وبينما نحن كذلك ، إذ بصرت بجرف شديد الانحدار يقترب منا ، فقف شعر رأسى ، ونبهت الأمير للخطر ، وصحت به أن يمسك العنان ، فلم يأبه لقولى ، واستمر فى جريه كأنه يتحداني . وأيقنت أنه صائر إلى الجرف ، فلم أجد بدا من أن أدفع جوادى بكل ما بقى من قوتى ، فدنوت منه ، فاختطفته من سرجه على مدى خطوات من الجرف ، وشددت أحد طرفى العنان بقوة ، فذعر الجواد ومال إلى جنبه ، وانقلب بنا فى الأرض . أما الجواد الصغير ، فلما رأى الخطر حاول اتقاءه ، فأعجزه أن يقف قوة اندفاعه ، فصرف فضل جريه ، ووجهه إلى جهة يساره ، حيث وقع فى جانب من الجرف أقل انحدارا مما كان مقبلا عليه ، ولم نعلم ما حدث له حينئذ ، ولم نره إلا هنا عندكم ، وقد أغمى على عقب السقوط ، ولما عاد إلى صوابى رأيت الأمير جاثما على وجهه وقد بردت أطرافه ، وشحب وجهه ، فحملته على جوادى ورجعت به » .

ما انتهى السائس من حديثه حتى شعر بدوار فى رأسه ، فأسنده الشيخ إلى صدره ، ومشى به إلى سرير دونه فأضجعه عليه وهو يقول : « إنى متعب شديد الإعياء فبالله عليك إلا ما شفعت لى عند مولانا السلطان وبسطت له عذرى ، فإنى أخشى من عقوبته » .

قال له الشيخ : « ليطمئن بالك فلن يعاقبك مولانا السلطان ، وأرجو أن يجزيك على جميل ما صنعت فى خدمة أحب الناس إليه » . وذهب غير بعيد فأحضر له شرابا منعشا وقال له : « اشرب هذا فإنه ينفعك ويعيد إليك قوتك » ثم دثره بالغطاء ، وتركه ينام .

واستيقظ الأمير محمود فى صباح اليوم التالى بارئا كأنما نشط من عقال ، لا يرى عليه أثر مما أصابه بالأمس إلا العصابة المربوطة برأسه . فلما رآه جلال الدين كذلك سر به ، وأدناه منه قائلا : « حياك الله يا هازم التتار ، لقد هزمتهم

يا بنى إلى غير رجعة » . فابتسم محمود ابتسامة يخالطها الحياء خجلا من ثناء خاله عليه . واستمر جلال الدين فى كلامه يقول : « لكن حذار يا بنى أن تجازف مرة أخرى بحياتك . كان عليك وقد هزمت عدوك فى الغابة أن تكتفى بذلك ، وأن لا تكلف نفسك مشقة الجرى وراءه ، بل تعنى بتنظيم جيشك والاستعداد للقائه إذا حاولت فلول جيشه أن تكر عليك » .

قال محمود : « إنى أردت أن أطرده من حدود بلادنا فلا يعود إليها » .

ــ إن أبيت يا بنى إلا مطاردة العدو فأرسل أحد قوادك فليطاردهم ، وليتعقب آثارهم ، ولا تطاردهم بنفسك ، فإن فى ذلك خطرا عليك وعلى جيشك .

ــ ليس عندى إلا سيرون وهو قائد جبان ، لن يمضى لمطاردتهم وحده .

ــ لا تقل هذا فى حق سيرون فما هو بجبان ، ولكنه قائد حازم ، لا تعميه شجاعته عن رؤية الخطر الذى أمامه . ولا خير فى شجاعة بغير حزم . ألم ينبهك إلى الجرف لتتقيه فلم تسمع لقوله ؟ ولو لم يحل بحزمه بينك وبين تهورك لترديت فى ذلك الجرف . فأنت مدين له بحياتك . وهو جدير بشكرك .

سكت محمود لما سمع هذا ، ولم يحر جوابا . وعلاه اكتئاب كأنما عز عليه أن يلام على عمل مجيد فى زعمه . وأدرك جلال الدين ما جال بخاطر الأمير الصغير ورق لوجومه . فأخذ يده برفق وضمه إلى صدره بحنان وقال له : « إننى معجب بشجاعتك وبطولتك أيها الفارس الشجاع ، وإنما أريد منك أن تضيف إلى شجاعتك الحزم لتكون قائدا كاملا ، وأملى كبير فيك أن تعمل بنصحى وتحقق رجائى ، ولن أرضى عنك حتى تعدنى بشرفك أن لا تجازف بنفسك مرة أخرى » .

فقال محمود وقد خفت عنه الكآبة : « أعدك بشرفى أن لا أجازف بنفسى مرة أخرى » .

ــ وأن تنظر إلى ما أمامك .

ــ وأن أنظر إلى ما أمامى .

— وأن تقف إذا رأيت خطرا قدامك .

— وأن أقف إذا رأيت خطرا قدامى .

— وأن لا تجرى جوادك ملء عنانه .

فتوقف محمود لحظة أدرك جلال الدين خلالها أنه يصعب على محمود أن يعده بهذه ، فاستدرك قائلا : « إلا فى سهل خال من المرتفعات والمنحدرات » .

— وأن لا أجرى جوادى ملء عنانه إلا فى سهل خال من المرتفعات والمنحدرات .

فضرب جلال الدين على خده يدلله ويقول له : « الآن اطمأن قلبى على فارسى الشجاع فما أخشى خطرا عليه » .

وتذكر محمود حبيبته جهادا فسأل أباها عنها قائلا إنه لم يزها منذ أمس . فأجابه جلال الدين بأنها جاءت أمس تسأل عنه فوجدته نائما فلم تشأ أن توقظه .

وكانت جهاد فى قلق شديد منذ حملها الشيخ سلامة فأسلمها إلى وصيفتها خيفة أن يذهب بصوابها مشهد محمود المصاب . فظلت تبكى وتصيح محاولة أن تراه حين كان الطبيب يعالجه ، فلما انتهى من ذلك واطمأن جلال الدين عليه ذهب إليها ، فأدخلها على محمود وهو نائم ، وقال لها إنه متعب من طول القتال ، وأن عليها أن تتركه ليأخذ قسطه من النوم والراحة .

فاكتفت بإلقاء نظرة على وجهه ، فراعتها العصابة المربوطة فى رأسه ، ونظرت إلى أبيها تستفهمه عما حدث به . فأسر إليها بأنه أصيب بضربة خفيفة فى جبهته من سيف قائد التتار لما بارزه . فغلبه محمود إذ ضربه بسيفه ففلق هامته . وقد داواها الطبيب وربطها ولا خوف عليه منها . فغدا سيبرأ منها . وتلقاه فتهنئه بانتصاره المجيد على أعدائه التتار .

وباتت ليلتها تفكر فى محمود . والضربة التى أصابت جبهته . وأشفقت عليه منها . وتذكر ما أخبرها به أبوها من مبارزته لقائد التتار وضربه إياه بالسيف حتى

فلق هامته . فتمتلىء إعجابا بحبيبها البطل . وتود لو تراه فى تلك الساعة ليحدثها بأخبار الوقعة العظيمة التى انتصر فيها على التتار . وهزمهم وشردهم إلى أقاصى البلاد .

وأطلقت لخيالها العنان فجعلت تتصور محمودا وهو يقاتل أعداءه فى الميدان ، راكبا جواده الأشقر ، والسيف يلمع فى يمينه ، وهو يضرب به يمينا وشمالا ، فيجندل الأبطال ، وتتمثله إذ برز له قائدهم فلقيه محمود فتجاولا ساعة وتصاولا . وأمكنته غرة من محمود فضربه ضربه فى جبهته فلم تصنع شيئا ، وحمى محمود لما أصيب بالضربة فحمل على قرنه حملة صادقة ، وعلا رأسه بالسيف ففلقه نصفين .

ثم سرحت تفكر كيف تقابله غدا ، وكيف تهنئه على انتصاره ، وأى هدية تقدمها له . ثم تذكرت أنها وعدته بقبلة عند رجوعه ظافرا ، وأنه يحب الزهر ، فاستقر عزمها على أن تفى له بوعدها ، فتقبله أول ما تلقاه ، وتقدم له طاقة من الزهر . واطمأنت لهذا الرأى وسرت به سرورا أذن للنوم على عينيها فحل بهما ضيفا كريما .

ولما أصبح الصباح هبت من نومها فرحة ، وانطلقت إلى حديقة القصر فقطفت أشتاتا من الرياحين وأزهار الورد والياسمين ، فدفعتها إلى وصيفتها فألفت منها طاقة جميلة . وزينتها الوصيفة وألبستها حلة من السندس الأحمر مطرزة فى جيوبها وكميها وأطرافها ببنائق الفضة ، وأصلحت شعرها وفرقته ، وعقلته بشريط من الحرير يحفظه مرسلا على ظهرها . ثم وضعت على فرقها قلنسوة هندية سوداء موشاة بالذهب . قد زين مقدمها بحبات من اللؤلؤ منسوقة على شكل الهلال .

مضت جهاد كذلك إلى غرفة محمود حاملة بيدها طاقة الزهر ، فلما رآها قام لها ، وخفت إليه فقبلته فى جبينه . ثم قدمت إليه طاقة الزهر قائلة : هذه هديتى إليك أيها الفارس الشجاع » ، فتقبل محمود الطاقة وقال لها : « أشكرك يا جهاد

على هديتك الجميلة » .

فنظر إليهما جلال الدين وهو يضحك من فعل الحبيبين الصغيرين ، وقال لها : « وأين هديتى أنا يا جهاد ؟ » .

ابتسمت وقالت : « ليس لك عندى هدية لأنك لم تخرج لقتال التتار » .

فقال جلال الدين : « يا ليتنى خرجت معك لقتالهم يا محمود ، فتعطينى جهاد مثل هذه الهدية الجميلة » .

قال ذلك وجذب الصبيين فجمعهما فى حجره ، وطفق يضمهما إلى صدره وهو يقول : « بارك الله فيكما يا ولدى ! أسعد الله أيامكما يا حبيبى ! » .

الفصل الرابع

عاش السلطان جلال الدين فى مملكته الصغيرة بالهند عيشة حزينة ، تسودها الذكريات الأليمة ، ذكريات ملكه الذاهب ، وذكريات أهله الهالكين ، من أب مات في الغربة شريدا ، وكان فى سلطانه ملء القلوب والأسماع والأبصار ، ومن إخوة ذبحهم التتار وكانوا على عروشهم زينة الملك ، وعنوان المجد ، وجمال الشباب ، وجدة وعمات ساقهن التتار سبايا إلى طاغيتهم ، وكن فى أيامهن بهجة القصور ، وأم كريمة وزوجة بارة وأخوات عقائل أمر بإغراقهن فى النهر وهو ينظر إليهن ، وكن أحب الناس إليه وأكرمهم عليه . وكان يجد سلواه الوحيدة فى ولديه الحبيبين محمود وجهاد فيقضى جل أوقاته معهما ، ينزل إلى عالمهما الصغير ويصادقهما ويشترك معهما في ألعابهما ، ويجاريهما فى أحاديثهما البريئة وأحلامهما الصافية ، فيجد فى ذلك لذة تنسيه هموم الحياة وآلامها .

وكان مع ذلك لا ينسى تدبير ملكه . وتنظيم شئونه ، وتقوية جيشه وتعزيز هيبته ، فكان فى كفاح دائم مع أمراء الممالك الصغيرة التى تكتنف مملكة لاهور ، يدفع غاراتهم على بلاده ويغزوهم الفينة بعد الفينة ، وهو فى ذلك يتنسم أخبار ممالكه السابقة ، ويرقب حركات التتار بها ، يتربص بهم الدوائر وينتظر الفرص للانقضاض عليهم ، والانتقام منهم ، واسترداد ممالكه وممالك أبيه من أيديهم أو أيدى أعوانهم وأجرائهم . فقد كان التتار أمة لا تطمع فى ملك البلاد وحكمها ، وحسبها أن تغزوها فتقتل من تقتل من رجالها ونسائها وأطفالها ، وتسبى منهم من تشاء ، وتنهب خزائنها فلا تدع شيئا إلا أتت عليه ، ثم تغادرها إلى بلادها حاملة معها الغنائم والأسلاب ، فتنقبع فيها ما تنقبع ، ثم تعود كرة أخرى فيطغى سيلها على الأمم والممالك فتقتل وتنهب وتسلب ، ثم تعود إلى منبعها وهكذا دواليك . وربما عقدوا مع أهل البلاد التى غزوها اتفاقا يأمنون به من

عودتهم ، على أن يحملوا إليهم جزية كبيرة فى مستهل كل عام ، وحينئذ يولون عليها من يتوسمون فيهم الميل إليهم ، والرضى بسياستهم من عبيد الأهواء الطامعين فى المناصب من أهل تلك البلاد .

كذلك كانت الحال فى العواصم والمدن التى تخلى عنها جلال الدين ، فقد وليها جماعة من الطغاة المستبدين ، لا همَّ لهم إلا جمع المال منْ كل سبيل ، فيصادرون أملاك الناس ، ويفرضون الضرائب الثقيلة عليهم . ويسلبون أموال التجار . ومن جرؤ على الشكوى منهم كان جزاؤه القتل أو الإهانة والتعذيب .

وكان لجلال الدين فيها أعوان وأنصار لا يحصون كثرة ، يتمنون عودته ، ويراسلونه سرًّا فيصفون له أحوال الناس بها ، وما يعانونه من ظلم الحكام وفسادهم وطغيانهم ، ويحضونه على العودة إليهم ، ويعدونه بالنصر والتأييد ، وبأنهم سيثورون ثورة عارمة على أولئك الحكام إذا ما عاد جلال الدين إلى بلاده . وذكروا له أن جنكيز خان مشغول عنهم بحروب طويلة فى بلاده مع قبائل الترك .

فرأى جلال الدين أن الفرصة سانحة ، وصحت عزيمته على اغتنامها . فتجهز للسير ، وكتم خبره عن الناس جميعا ما عدا قائده الكبير الأمير بهلوان أزبك ، إذ استنابه على ما يملك بالهند ، وترك له جيشا يكفى لحمايته ، وسار هو بخمسة آلاف قسمهم إلى عشر فرق ، جعل على كل منها أميرا ، وأمرهم أن يسيروا خلفه على دفعات من طرق مختلفة ، حتى لا يتسامع الناس بخبر مسيرهم .

وكان قبل مسيره قد فكر مليًّا فى أمر ولديه الحبيبين ، وتردد طويلا أيستصحبهما معه أم يتركهما بالهند ، فإنه إن أخذهما معه عرضهما لأخطار الطريق ومتاعب هذه الرحلة الشاقة ، وإذا نجا بهما من ذلك رمى بهما إلى ما هو مقدم عليه من الكفاح العظيم ، والقتال المستميت ، لاسترداد بلاده وبلاد أبيه ، ولا يعلم إلا الله وحده ماذا تكون عاقبة سعيه وماذا يكون مصيره ، وسينضى به هذا لا محالة إلى مواجهة التتار وقتالهم من جديد . ومن ذا يضمن له الغلبة على تلك

الأمة الهائلة التى لا نهاية لجموعها ولا صادَّ لهجماتها ، ولا عاصم من أمرها إلا من رحم الله ؟..

وإنه إن تركهما بالهند فلا طاقة له بفراقهما ، ولا طاقة لهما بفراقه ، وليس له فى الدنيا أهل غيرهما وما لهما فيها من أهل غيره ، وقد وجدهما بعد ضياع ، ولقيهما بعد يأس ، فانتعش بهما أمله ، وأشرق بهما وجه حياته ، وكانا له عزاء عن كل ما فقد من ملكه وأهله ، أفيتركهما وحيدين فى بلاد غريبة عليهما لا يدرى ماذا يكون مصيرهما فيها ، فربما يطمع أمراء الهند فى مملكة لاهور ويستضعفون نائبه عليها حين يبلغهم مسير السلطان بمعظم عسكره عنها ، فيقومون عليها قومة واحدة ، وتسقط فى أيديهم ، ويومئذ لا يكون لرجاله مهرب ، ويقع الأميران فى قبضتهم ولا أمل فى نجاتهما من سيوفهم .

أخذ جلال الدين يوازن بين الخطتين إلى أن آثر أهون الخطرين عنده ، ففضَّل أن يأخذ الأميرين معه ، إذ كان هذا أحب الرأيين إلى نفسه ، وأقربهما إلى هواه فحسبه أن يراهما دائما معه ، فإذا قدر له النجاح فذاك ، وإن خانته الحظوظ فلن يبقى بعد ذلك أمل فى الحياة ، ولن يؤويه بعد ذلك مكان ، وخير لهما حينئذ أن يقتلا معه ، فلا يتعرضا لما يتعرض له مثلهما من الشقاء والهوان .

وكأن جلال الدين كان ينظر من سجف الغيب إلى هذا اليوم ويستعد له ، إذ عنى بتدريبهما من صغرهما على ركوب الخيل وحمل السلاح وسائر أعمال الفروسية ، وتربيتهما تربية خشنة تعدهما لتحمل المشاق ، وركوب الأخطار ، والتغلب على المصاعب .

وطالما سمعا منه أو من الشيخ سلامة الهندى أخبار جدهما خوارزم شاه ووقائعه مع التتار ، وحروب جلال الدين معهم من بعده ، فكانا يطربان لذلك ويتحمسان ، وكثيرا ما كان جلال الدين يصف لمحمود شجاعة والده الأمير ممدود وحسن بلائه فى قتالهم ، وغرامه بمبارزة قوَّادهم وأمرائهم ، إلى أن يقص عليه أخبار وقعة هراة التى أصيب فيها ، فمات من جراحه شهيدا فى سبيل الله بعد

أن نكل بالأعداء تنكيلا ، ومزقهم شر ممزق ، فيمتلىء محمود بالحماسة ، ويود لو شهد تلك الوقائع فكانت له فى قتال التتار مواقف مشهودة .

وكان محمود يشعر فى قرارة نفسه بأنه سيقاتل التتار يوما ما ، إذا بلغ مبلغ الرجال فيثأر منهم لأبيه ، وينتقم منهم لما أصاب جده وخاله ووالدته وجدته وسائر أهله ، وقد سيطر عليه هذا الشعور ، وملك عليه جميع مذاهبه ، فكان شغله الشاغل ، وهمه المقعد المقيم ، ولا يفتأ يفكر فيه نهارا ويحلم به ليلا ، وإنه ليطغى عليه أحيانا فيقع منه فى كرب عظيم ، فلا يجد أداة يعبر بها عن حبيس رغبته وينفس بها عن كربه ، إلا أن ينطلق فى عالم الخيال حيث يصور له الوهم معارك تدور بينه وبين التتار ، ينتصر فيها عليهم ويشتت جموعهم ويجندل أبطالهم ويفرق صفوفهم ، وينهزمون فيجد فى طلبهم ويتعقب آثارهم حتى يشردهم إلى أقاصى البلاد ويعود إلى المدينة ظافرا ، تقام له الزينات ، وتضرب له الطبول ، وتنثر عليه الأزهار والرياحين .

وكانت جهاد تشاطره هذا الشعور ، وتشجعه على حروبه هذه ومعاركه ، وترى فيها تحقيقا لأمانيها فى بطلها العظيم ، وتنفيسا لما يحتدم فى صدرها من كراهية التتار وحب الانتقام منهم ، فكان لا يلذ لها شىء ما يلذ لها الإصغاء إلى حديثه حين يقص عليها ما دار بينه وبينهم من المعارك الهائلة ، وما أظهر فيها من آيات البطولة والإقدام .

حتى جلال الدين نفسه كان يشجع محمودا فى أعماله الحربية ، ويجاريه فى تصوراته ، ويصغى لأحاديث بطولته ، ويثنى عليه فيها ، ويتلطف فى إسداء النصائح إليه خلالها ، وقد أمر رجاله وحجّاب قصره وخدمه بأن يجاروه فى أحلامه ، ويصدقوه فى مزاعمه .

فما سمع محمود وجهاد بعزم جلال الدين على المسير لقتال التتار واسترداد بلاده حتى أظهرا له من الفرح والاستبشار بذاك ما جعله يعجب من نفسه : كيف فكر فى تركهما بالهند ، وعدم استصحابهما معه فى رحيله . إذن لشق

عليهما ذلك ، وآذاهما أبلغ الأذى ، وربما أعجزه أن يحملهما عليه إلا أن يرهقهما أو يحملهما ما لا طاقة لهما به .

سار جلال الدين من الهند ومعه خواص رجاله ، فقطعوا المفازة على خيولهم ، وعبروا نهر السند في مراكب عظيمة قد أعدَّها جلال الدين لذلك من قبل . حملتهم وحملت خيولهم وعتادهم . وتبعته فرق جيشه فرقة بعد فرقة حتى التقوا جميعا عند ممر خيبر ، فساروا حثيثا حتى إذا اقتربوا من كابل بعث جلال الدين رسلا إلى أشياعه بها يخبرونهم بمجيئه ، ففرحوا بذلك وأشاعوه فى المدينة فوثب أهلها على حاكمهم وأشياعه فقتلوهم ، ودخل جلال الدين المدينة فملكها بدون قتال كبير .

وشاع هذا الخبر فى سائر المدن والعواصم ، فاستعد دعاة التتار وأعوانهم ، وأجمعوا على ملاقاته ومقاومته ، وبعثوا إلى جنكيز خان يستنجدونه ، فعاجلهم جلال الدين قبل أن تأتيهم إمدادات التتار ، فمضى يفتتح المدينة بعد المدينة بغير عناء يذكر ، لأن أهلها كانوا يثورون على حكامهم حين يقف جلال الدين على أبوابها ، ويساعدونه عليهم ، فيلوذ هؤلاء الخونة بالفرار إلى جنكيز خان ؛ حتى وصل جلال الدين إلى كرمان ، ثم سار إلى الأهواز فاستولى عليها ، ثم أذربيجان فملكها ، ودانت له سائر بلاد إيران .

وكان محمود وجهاد يسيران حيث سار جلال الدين لا يفارقانه في تنقلاته كلها ، وكان يقوم بخدمتهما فى ذلك الشيخ سلامة الهندى وسيرون السائس ، وما كان أشد فرح محمود وهو يتنقل فى ركاب خاله من مدينة إلى مدينة ، فتفتح لهما أبوابها ، وتدق لهما الطبول ، وتصطف الجماهير لمشاهدتهما وتحيتهما ، وتتعالى أصواتهم بالهتاف للسلطان وولى عهده . ولكنه مع ذلك كان يشتهى أن يرى وجوه التتار ، وكثيرا ما سأل خاله : « أين أعداؤنا التتار ؟ متى يخرجون إلينا فنقاتلهم ؟ » . فيبتسم السلطان جلال الدين ويجيبه : « لا تستعجل الشر يا بنى ، إنهم آتون إلينا قريبا ، فناصرنا الله عليهم إن شاء الله .

عادت المياه إلى مجاريها ، وخطب للسلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ولولي عهده محمود بن ممدود على منابر البلاد جميعها ، وكان أول ما اهتم به جلال الدين بعد أن استتبت له الأمور فيها أن يحيي ذكرى والده العظيم ، فسار في موكب عظيم لزيارته في الجزيرة التي دفن بها ، فبكى عند قبره وترحم عليه ، ثم أمر بنقل رفاته ، فدفنه بقلعة « أزدهن » في مشهد حافل حضره العلماء والكبراء والأعيان من جميع الأصقاع ، وبنى عليه قبة عظيمة أنفق على بنائها وزخرفتها أموالا كبيرة ، وجلب لها أمهر البنائين والصنّاع .

وما تم له ذلك حتى بلغه أن جنكيز خان قد أرسل جيوشا عظيمة لقتاله بقيادة أحد أبنائه ، فتجهز للقائهم ، وسار بأربعين ألفا يتقدمهم جيشه الخاص الذى أتى به من الهند وسمّاه جيش الخلاص ، وكان قد بقى منه زهاء ثلاثة آلاف ، فلقى جموع التتار فى سهل مرو ، ودارت بين الفريقين معركة من أهول المعارك ، ثبت فيها جيش الخلاص حتى باد معظمه ، واضطربت صفوف المسلمين ، ويئس جلال الدين من الانتصار ، فصمم على أن يستشهد فى المعركة ، فالتفت إلى محمود ، وكان واقفا على جواده خلفه . وهو يتّقد حماسة وغيرة ، فقال له : « ها أنت ذا قد رأيت التتار يا محمود ، وإنى سأقاتلهم بنفسى . فاثبت خلفى ، ولا تدع أحدا يأسرك » .فتهلل وجه محمود ، وعد ذلك فخرا عظيما أن يثق خاله به . وعجب السلطان من رباطة جأش الغلام وتهلله للموت . وتقدم يحرض رجاله ويجمع صفوفهم . ويقاتل بنفسه والأمير الصغير وراءه على جواده والسيف فى يمينه ، فلما رأى المسلمون ذلك دبت فيهم الحمية . فقاتلوا دون السلطان قتالا عنيفا ، وبينما هم كذلك يقاتلون مستميتين والسلطان فى مقدمتهم والتتار ظاهرون عليهم . إذا

بصفوف التتار قد اضطربت ، وإذا بأصوات تسمع من خلفهم : « الله أكبر ! الله أكبر ! نحن جنود الله ! أيها المسلمون ! قاتلوا المشركين ! » .

فعجب المسلمون من أمرهم ، وظن بعضهم أن هؤلاء ملائكة بعثهم الله لتأييد المسلمين ، فحملوا على التتار حملة صادقة ، وهم يصيحون : « الله أكبر ! » وما هى إلا لحظة حتى انهزم التتار ، ولكنهم لم يجدوا مهربا إذ تلقاهم المسلمون المقاتلون من أهل بخارى وسمرقند ، وكانوا خرجوا من بلادهم عقب مسير التتار ، فكبسوهم من خلفهم على غرة منهم . فأعمل الفريقان من المسلمين سيوفهم فيهم ، حتى أبادوهم على بكرة أبيهم ، وتصافح الفريقان من المسلمين على السهل الذى امتلأ بجثث التتار .

وفرح السلطان جلال الدين بجيش بخارى وسمرقند وأثنى عليهم ، وكان مما قاله لهم : « إنكم جنود الله حقا ، وما أنتم إلا ملائكة بعثهم الله من السماء لتأييد المسلمين ، وإننا مدينون لكم بحياتنا وانتصارنا » . وأكرمهم وخلع عليهم ، وعرض عليهم الانضمام إلى جيشه فقبلوا شاكرين .

وأمر بالأسرى فقتلوا جميعا ، وكان فيهم قائدهم ابن جنكيز خان فأمر به فأحضر لديه ليقتله بنفسه ، ولكن محمودا تقدم إليه قائلا : « يا خالى إنك لا تقتل إلا جنكيز خان نفسه . أما ابنه هذا فدعه لسيفى فإنه غير أهل لسيفك » .

فضحك جلال الدين ، وضحك من معه وقال له : « صدقت يا محمود ، عليك به فاقتله على أن لا تزيد على ثلاث ضربات » ، فتقدم محمود حتى دنا من الأمير التترى . وكان قد شد بقيوده إلى الأرض ، فهز سيفه هزتين فى الهواء ، ثم ضرب به عنق الأسير ضربة أطارت رأسه . فكبَّر الحاضرون فرحين معجبين بقوة الأمير الصغير . والتفت محمود إلى خاله قائلا : « لم أزد على ضربة ! » فقام له جلال الدين ، وعانقه قائلا : « بارك الله فيك يا بطل ! » .

بلغ جنكيز خان نبأ هذه الكسرة الشنيعة ومقتل ابنه ، فغضب أشد الغضب ، وتوعد بالمسير بنفسه لقتال جلال الدين ، وأن لا يرجع حتى

يقتله ويقتل ولى عهده ويذبح المسلمين رجالهم ونساءهم وأطفالهم ذبح الخراف . ولكنه لم يزل مشغولا إذ ذاك بحروب طويلة فى بلاده مع قبائل الترك ، أكرهته على أن يؤجل انتقامه من جلال الدين إلى حين .

وكان جلال الدين يعلم حق العلم أن جنكيز خان آت بجموعه يوما ما للانتقام منه ، وأن انتقامه سيكون عظيما مهولا ، وأن عليه أن لا يطمئن إلى الانتصار الذى أحرزه فى سهل مرو ، وأن يستعد لذلك اليوم العبوس ؛ على أنه عرف من عيونه ومراسليه فيما وراء النهر أن جنكيز خان لن يستطيع أن يفرغ له من حروبه القبلية الداخلية ويسير إليه قبل مضى ستة أشهر على الأقل .

فرأى أن لا يضيع هذه المدة فى غير عمل يزيد فى قوته حتى يضمن لنفسه القدرة على الوقوف فى وجه جنكيز خان إذا ما أقبل بقضه وقضيضه إليه .

ونظر إلى بلاده فوجدها منهوكة القوى ، قد عمها الخراب التام ، وعضّها الفقر المدقع ، وفشا فيها القحط ، ونضبت فيها الموارد ، وكسدت فيها الأسواق من عظم ما منيت به من غارات التتار ، ونهبهم وسلبهم ، وتقتيلهم وترويعهم ، وتخريبهم وتدميرهم ، وطغيانهم وفسادهم ، ومن طول ما رزحت تحت كلاكل الحكام الخونة الظالمين من أعوانهم ، فأيقن أنها لن تستطيع أن تمده بما يحتاج إليه من المال والعتاد والخيل والسلاح وغيرها من أسباب القوة ، ليصد بها جموع التتار ، ويقف بها فى وجه خصمه الجبار .

ظل أياما يفكر فى وسيلة يسد بها خلته ، ويقوى بها ضعفه ، وبعد السبح الطويل فى مهامه الفكر ، انتهى به المطاف إلى ما كان يفكر فيه وحاوله والده العظيم خوارزم شاه قبله من الاستنجاد بدار الخلافة ، وملوك المسلمين وأمرائهم فى الشام ومصر ، فلديهم من الغنى الفاحش ، وفى بلادهم من موارد الثروة الواسعة ما يكفل له القدرة على مواجهة عدو المسلمين جميعا إذا أمدّوه بنزر مما يملكون .

ولم ينس جلال الدين أن أباه أخفق فى مسعاه ، وأن أحدا من هؤلاء الملوك والأمراء لم ينجده بشيء ، ولم يصغ لنداءاته واستغاثاته . واكتفى بعضهم بالاعتذار الجميل ، وضن بعضهم حتى بهذا الرد الجميل ، ولكنه لم يشأ أن يستعجل ردهم ، وييأس من الاستنجاد بهم ، ويوصد دونه هذا الباب الوحيد للخروج من مأزقه الحرج ، وحلا له أن ينتحل المعاذير ، فيما خيبوا من أمل أبيه فيهم ، وأصموا آذانهم عن سماع ندائه ، بما كان يروع تلك البلاد فى ذلك العهد من حملات الصليبيين وما يسودها من الاضطرابات الداخلية .

وكان يشعر فى قرارة نفسه بأنهم لن ينجدوه ، ويعلم أنه إنما يغالط نفسه ، إذ يرجو منهم أن ينيلوه ما لم ينيلوا أباه ، ولكن ما الحيلة وليس أمامه إلا هذا السبيل ؟ .

كتب جلال الدين رسائل إلى الخليفة ببغداد ، وإلى الملوك والأمراء ، بين لهم فيها خطر التتار على بلاد الإسلام جميعها ، ووصف ما ارتكبوه فى المسلمين من أهل بلاده من الفظائع والعظائم ، ودعاهم إلى نجدته وتأييده فى جهاده لهم ، ووقوفه سدًّا بينهم وبين سائر المسلمين ، وبعث بها رسلا إليهم ، فباء الرسل إليّه بالخيبة ، ولم يكن حظه من أولئك الملوك بأحسن من حظ أبيه ، فغضب جلال الدين منهم ، وضاق صدرا بإعراضهم ، فعزم على قتالهم قبل قتال التتار نكاية بهم ، وتأديبا لهم ، وطمعا فى الاستيلاء على ما فى أيديهم ، والحصول على خيرات بلادهم ، ليستعين بها فى جهاد التتار .

وقد رأى أن يبدأ بالملك الأشرف لأنه أغلظ له فى الرد ، وكان من جوابه له أنه ليس من الغفلة والجهل بحيث يساعد جلال الدين على عدوه ، ليخلو له الجو بعد ذلك فيغير على بلاده ، فلا فرق عنده بينه وبين التتار المتوحشين . فكاد جلال الدين يتميز من الغيظ وأقسم ليغزون بلاد الأشرف ، وليفعلن بها الأفاعيل حتى يصدق بذلك قوله أن لا فرق بينه وبين التتار المتوحشين .

فتوجه جلال الدين بعسكره إلى خلاط ، فهجم عليها ، وقتل أهلها ونهب أموالها ، وخرب قراهم ، وأغار على حران والرها وما يليهما ، فاستباحها واستاق منها أموالا عظيمة ، وظفر بغنائم كبيرة سيَّرها إلى بلاده ، بعد أن زلزل تلك البلاد وروعها ونهبها وفعل بها فعل التتار .

وكان فى نيته أن يواصل غزوه على هذا النحو حتى يعصف ببلاد الشام كلها ويخلص إلى مصر ، لولا أن جاءته كتب من بلاده تنبئه بسير جنكيز خان ، فطار إليها على عجل ليفرغ لخصمه العنيد . وكأن الله شاء أن يعاقبه على ما أنزل ببلاد المسلمين من الخسف والدمار ، وارتكب فى أهلها الأبرياء من العظائم ، وأتى ما يأتيه التتار من قتل الرجال ، وسبى النساء ، واسترقاق الأطفال ، ونهب الأموال ، وتخريب المدن والقرى ، انسياقا مع هواه الذى أعماه عن رؤية الحق ، وأضله عن سبيل المؤمنين ، فحمله على الإيقاع بقوم لم يعتدوا عليه ، ولا ذنب لهم إلا أنهم رعية ملك أساء إليه ، فافتقد فى طريقه هذا ثمرتى قلبه وأنسى حياته محمودا وجهادا حين كان يجتاز بلاد الأكراد قافلا إلى بلاده ، فطلبهما فى كل مكان ، والتمسهما بكل سبيل ، فكأنما ابتلعتهما الأرض . وغاب معهما الموكلان بخدمتهما وحراستهما الشيخ سلامة الهندى ، وسيرون السائس .

وأقام السلطان وعسكره فى الموضع الذى افتقد هؤلاء فيه ، حيث بث رجاله فى طلبهم ، والتفتيش عنهم فى جميع تلك النواحى ، فلم يعثروا لهم على أثر ، إلا أنهم فى اليوم الثانى وجدوا جثة السائس ملقاة فى منحدر ضيق بين جبلين ، وقد مزقت صدرها الخناجر ، وهشمت رأسها وأطرافها الحجارة ، كأن الأثمة المجرمين ألقوه من سفح أحد الجبلين ، بعد أن أوسعوه بخناجرهم طعنا .

فتحقق جلال الدين أن الأميرين اختطفا مع خادميهما ، وأن المختطفين قتلوا سيرون لأنهم ضاقوا بمقاومته ، وأمر رجاله بالبحث عنهم فيما حول الجبلين ، وذهب معهم بنفسه ، فلم يجدوا لهم أثرا ، ولم يسمعوا عنهم

خبرا . فكاد جلال الدين يموت من الغم ، وامتنع عن الطعام ، وعزم أن لا يبرح ذلك المكان حتى يقف على خبرهم .

وكانت الرسائل تتوالى عليه من نواب بلاده ، يخبرونه بأن جنكيز خان قد قطع بجموعه النهر ، وانقضوا على بخارى فدمروها ، وانتقموا من أهلها شر انتقام من جراء ذلك الفريق البخارى الباسل الذى هاجم مؤخرة التتار فى معركة مرو ؛ فكان سبب هزيمتهم والقضاء عليهم ، وأنهم دالفون إلى سمرقند ، ففاعلون بها ما فعلوا ببخارى .

ولكن جلال الدين كان فى شغل شاغل عنهم من أمر محمود وجهاد ، فكان يعرض أحيانا عن الرد ، وأحيانا يعد بقرب المسير ، وإذا نصحه أحد رجاله بوجوب الإسراع بالرحيل ، صب عليه جام غضبه ، وصاح فى وجهه : « يا خائن أتنصحنى ويلك بترك ولدىّ ؟ اغرب عن عينى قبل أن أفرق بين رأسك وجسدك » .

تغيرت طباع جلال الدين وساء خلقه ، وأصابه مسّ من جنون الحيرة والقلق حتى صار لا يجرؤ أحد من رجاله على الدنو منه والكلام معه إلا باحتراس شديد ، وألح به الهم فلجأ إلى الشراب ، وعكف على الخمر وأدمنها ؛ وجعل يشرب الكأس تلو الكأس حتى صار لا يفيق من سكره .

وكان يصيح ليلا ونهارا : « محمود ! جهاد ! أين ذهبتما ؟ كيف تركتمانى وحدى ؟ خذانى معكما أو عودا إلىّ .. أيها اللصوص ، كيف تستطيع قلوبكم أن تقسو على جهاد ومحمود ؟ كيف طوّعت لكم أنفسكم خطفهما منى ، أنا الذى لا يصبران عن رؤيته ، ولا يحتملان العيش بدونه ! خبرونا ماذا حملكم على خطفهما ؟ أتنتقمون لأنفسكم منى ؟ إذن فخذونى مكانهما وخلوا سبيلهما ، فإنهما صبيان بريئان . خذوا جلال الدين بن خوارزم شاه ملك الهند وإيران وخراسان وما وراء النهر ، فافعلوا به ما شئتم : اقتلوه أو عذبوه أو اصلبوه أو

أحرقوه ، أو ابعثوا به أسيرا إلى جنكيز خان ، وإن أردتم المال فأعيدوهما إلىَّ ، ولكم علىَّ عهد الله وميثاقه لأملأن بيوتكم ذهبا وفضة وجواهر . وإن شئتم تخليت لكم عن ملكى وبلادى ، أيها الأعداء ! أيها الأصدقاء ! — أجل ستكونون أصدقائى إذا أعدتم ولدىَّ إلىّ — رحماكم بى ! أما تعرفون من أنا ؟ أنا التعس الشقى ! أنا الوحيد الطريد ، ذهب ملكُ أبى فمات فى الجزيرة غمًّا وذبح التتار إخوتى وأعمامى ، وسبوا جدتى وعماتى — نعم جدتى تركان خاتون بنت الملوك وأم الملوك ، أما فيكم من شهدها وهى تنثر الذهب والدر على الغنى والفقير ، والبعيد والقريب ، والمقيم والغريب ! أليس فيكم أيها اللصوص ، أيها الأصدقاء ، أيها الأعداء ، أيها الكرماء ، أيها الأنذال ، من مسَّه سيب من عطاياها ، أو أصابته حفنة من ذهبها ، فيعرف لها الخير ، ويحفظ لها الجميل ، ويرق لحفيدها البائس المنكوب ، فيرد إليه ولديه الصغيرين ؟ وأغرقت أمى — أمى التى ولدتنى وغذتنى وربتنى ، وأختى شقيقتى ، ابنة أمى وأبى ، وزوجتى أم أولادى التى أحببتها وأحبتنى — أغرقتهن جميعا فى نهر السند وقت الأصيل عند غروب الشمس ! أرأيتم تحت السماء أشقى منى حالا ، وأجدر بالرثاء والرحمة ؟ أين هما ! أين محمود وجهاد ؟ ويل لكم أيه اللصوص ، أيها السفلة الأوغاد ، أاجترأتم على أخذ ولدى منى ؟ ثكلتكم أمهاتكم : أتعرفون من أغضبتم وتعرضتم لنقمته وعذابه ؟ أجهلتم من أنا ؟ أنا جلال الدين ملك ملوك الأرض ، خاقان المشرق والمغرب ، سيد التتار وقاهر المسلمين والكفار ، لأستخرجنكم من بطون الثرى وأستنزلنكم من صياصى الجبال ، وأقتحمن عليكم المعاقل والحصون ، وآخذن عليكم مسالك الأرض ، ولتصلن إليكم يدى ولو تعلقتم بالنجوم ! فلأذيقنكم عذابا لم أذقه أحدا من العالمين ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم ، وأسملن عيونكم ، وأصطلمن آذانكم وأنوفكم ، وأبقرن بطونكم ، وأخرجن أمعاءكم ، وأشدخن رءوسكم ، ثم لأقطعنكم إربا إربا ، وأرمينها للكلاب الجائعة ! ولأبيدن أهلكم وقبائلكم ، وأحرقن مساكنكم وقراكم فلا يبقى منكم

وجهها أثر ، ويل لكم منى ويل ! » .

هكذا أمضى جلال الدين أيامه السود فى مجاهل بلاد الأكراد ، فكان يقضى يومه هائما على وجهه فى بطون الأودية ورؤوس الجبال يبحث عن ولديه الضائعين ، وقد فقد صوابه ، ونهكه السهر والخمر وأمضَّه الحزن ، فكان يبكى حينا حتى يحسب رائيه أنه لن ينقطع عن البكاء ، ويضحك حينا حتى يظن الرائى أنه لن يكف عن الضحك ، فإذا نال الإعياء منه ، ووقع على الأرض مغشيا عليه ، حمله رجاله إلى سرادقه حتى يرجع إلى حاله ، فيعود إلى طوافه كما بدأ .

وإذا أقبل عليه الليل ، أسرف فى شرب الخمر ، وعربد وتكلم كلمات غير مفهومة ، وأتى بحركات غريبة ، حتى إذا أثقل رأسه السكر ، وغلبه الخمار ، انصرع على سريره ، وبات يهذى هذيان المحموم ، فكان الذين يسهرون عليه من رجاله يسمعونه يسأل نفسه ويجيب نفسه ، ويلوم نفسه ويعتذر لها ، وسمعوه ذات ليلة يقول : « أيها الرجل البخارى ، أيها المسلم البخارى ، كأنك حاج من حجاج بيت الله الحرام ، ألا تقف عندى لحظة فأتبرك بك » ؟.

« إنك رجل أحبطت عملك ، فأخاف أن يمسنى عذاب من الرحمن فى اللحظة التى أقف فيها عندك » .

« بل أنا رجل مسكين بائس منكوب ، ذهب ملك أبى فمات فى الجزيرة غمًّا ، وذبح التتار إخوتى وأعمامى ، وسبوا جدتى » ..

« حسبك حسبك ، قد عرفت ماذا تريد أن تقول » .

« إنى أراك تبكى أيها الولىّ الصالح ، فما يبكيك .. أأنت منكوب مثلى ؟ » .

« إنما أبكى لحالك ... » .

« تبكى لحالى ! إذن أنت تحبنى ... » .

« أجل إنى أحبك يا جلال » .

« يا جلال ! هكذا كان والدى رحمه الله يدعونى . دعنى أتأمل فى وجهك .. يظهر لى أن فيك مشابه من والدى خوارزم شاه » .

« أنا خوارزم شاه يا جلال » .

« أنت إذن والدى نفسه ... أبى ! أبى » .

« لا تقترب منى . ابق مكانك ! » .

« فيم يا أبتاه ؟ » .

« لست أباك » .

« لست أبى ! ألم تقل لى الآن إنك خوارزم شاه ؟ » .

« بلى أنا خوارزم شاه ، محمد بن تكش » .

« أنت إذن أبى ، أتبرأ منى » ؟

« إنى أبرأ إلى الله من عملك ، ولو استطعت أن أبرأ منك لفعلت .. أبعد جهادك التتار المشركين ، رجعت تقاتل المسلمين ، وتستحل دماءهم ؟ » .

« إنما أردت أن أؤدب الملوك الذين استنجدت بهم لجهاد التتار فخذلونى ، كما استنجدت بهم قبلى فخذلوك » .

« فهل قبضت على أولئك الملوك كما زعمت ، أم عمدت إلى الرعايا المؤمنين الآمنين فى بلادهم ، فقتلت رجالهم ، ونهبت أموالهم ، وخربت ديارهم ومزارعهم ؟ وأعظم من ذلك عند الله ، أن سبيت نساءهم واسترققت أطفالهم ، أفترضى أن يصنع ذلك بنسائك وأطفالك ؟ » .

« أواه ! لقد صنع ذلك بأطفالى .. لقد خطف منى محمود وجهاد .. واحزنا على محمود وجهاد ! » .

« جزاء وفاقا ! اذكر كم من طفل من أطفال المسلمين فرَّقت بينه وبين أمه وأبيه ، وكان أعز عليهما من ولديك عليك » .

« أواه على محمود وجهاد ، ماذا جنيا من ذنب فيحملا عقاب آثامى ؟ » .

« لا تبك عليهما ، خير لهما أن يفارقاك بعد أن حدت عن سبيل الله » .

« ولكنى أحبهما ولا صبر لى على بعدهما ».

« لن ينفعهما حبك ، ولن يضرهما بعدك ، ولا تضع وقتك فى البحث عنهما فلن تراهما أبدا ».

« لن أراهما أبدا ! كلا سأراهما..سأبحث عنهما ، وسأجدهما.. اذهب عنى..لا ، بل عد إلى..أيها البخارى الصالح ، عد إلى.. أذاهب أنت إلى الحج ؟ فادع لى ربك.. أيها البخارى الصالح ، ادع لى عند ربك عساه يغفر آثامى...محمود ! جهاد !».

مرت الأيام على جلال الدين ، وما يزيد حاله إلا سوءا حتى يئس رجاله من رجوعه إلى صوابه . ونفد صبرهم على شذوذه وجنونه . وكانت الأنباء تأتيهم بتقدم جنكيز خان ، واستيلائه على المدينة بعد المدينة ، يقتل فيها ، وينهب ويدمر ، حتى بلغ تبريز ، فعز عليهم أن يبقوا واقفين أمام سلطانهم المرزوء فى عقله ، الميئوس من حاله ، حتى يطحنهم التتار وهم ينظرون .

فتسللوا من حوله ، ولحقوا بإخوانهم المجاهدين ، البخاريين ، والسمرقنديين الذين انفصلوا من قبل عن جلال الدين ، حين رأوه يقاتل بهم إخوانهم المسلمين ، وأمروا عليهم أحدهم ، فلقوا طلائع التتار بين تبريز وديار بكر ، فقاتلوهم قتالا شديدا حتى هزموهم . وقوى أملهم فى النصر بعد ذلك ، إذ علموا أن جنكيز خان قد قفل عائدا إلى بلاده لعلة شديدة أصابته ، خشى منها أن تودى بحياته فيموت فى غير مسقط رأسه ، وكان قد بلغه ما صار إليه خصمه الكبير من سوء الحال ، فرأى أن القضاء عليه أيسر من أن يقتضى بقاءه فى قيادة الجيش واحتمال العلة فى ديار الغربة ، ولكنه أصدر قبل رحيله أوامر صارمة إلى رجاله بأن لا يقتلوا جلال الدين إذا ظفروا به ، وأن يجتهدوا فى القبض عليه وحمله حيا إليه ، ليرى رأيه فيه ، وينتقم منه بنفسه .

وما لبث التتار أن أقبلوا أفواجا يتدفقون تدفق السيل ، فغص بهم الفضاء ، وأيقن المسلمون أن لا قبل لهم بملاقاتهم ، ولكنهم تعاهدوا على الموت فى سبيل

الله ، فوقفوا فى وجه العدو ، كأنهم البنيان المرصوص ، فلم يستطع أن يتقدم شبرا إلا على أشلاء أولئك الأبطال المجاهدين .

سال طوفان التتار بعد انكسار هذا السد المنيع ، فطم على تلك البلاد والقرى ولم يبق بينهم وبين الموضع الذى أقام فيه جلال الدين إلا بضعة فراسخ ، ما لبثوا أن قطعوها فوت الريح ، وكانوا قد علموا أين يقيم ، وليس كالتتار سرعة حركة ، ومهارة فى التجسس واستطلاع أحوال العدو ، فلهم فى ذلك أمور تشبه الخوارق .

وكان قد بقى مع جلال الدين عدد قليل من رجاله ، عز عليهم أن يتخلوا عن سلطانهم العظيم وهو فى حاله تلك ، وآثروا أن يحتملوه على علاته ويكونوا معه إلى النهاية . وقد أزعجهم تقدم التتار ، فتأهبوا لحماية مولاهم والذب عنه ، ريثما يعدون العدة للفرار به إلى حيث يجدون مأمنا .

بيد أن التتار قد صاروا إذ ذاك أقرب إلى جلال الدين ورجاله مما ظنوا . فما شعر هؤلاء إلا بالطلائع قد كادت تحيط به ، فقاموا إلى السلطان فوجدوه سكران كدأبه ، فصبوا الماء على رأسه وأركبوه الفرس ونجوا به منهم .

وأفاق جلال الدين خلال ذلك ، وأدرك ما هو فيه من خطر ، فانطلق إلى آمد . فمنع من دخولها له وكبسه رجال من العدو وأحدقوا به دونها حتى لو شاءوا أن يقتلوه لأمكنهم ذلك ؛ ولكنهم إنما أرادوا القبض عليه ، فدافعهم عن نفسه وقتل جماعة منهم ، وذب عنه بعض خواص رجاله ، وشاغلوا رجال العدو عنه حتى خلص منهم .

وطارده فرسان التتار ، وكان لا يبارى فى ركوب الخيل ، ففاتهم حتى دنا من ميافارقين ليحتمى بملكها . فدخل قرية من قراها . ولكن الفرسان لحقوه بها . فبرحها ودفع جواده فطار به منهم وأصعد إلى جبل هناك يسكنه قوم من الأكراد يتخطفون الناس ، فلجأ إلى أحدهم وقال له : أنا السلطان جلال الدين استبقنى وأخف مكانى عن العدو الذى يطاردنى ، وسأجعلك ملكا . فأخذه الكردى إلى بيته وأوصى امرأته بخدمته .

وكان قد لمح جلال الدين كردى آخر موتور منه فعرفه . ورآه حين دخل البيت ، فأخذ يتربص خلو البيت من صاحبه . فلما خرج صاحب البيت لقضاء حاجة له جاء الكردى الموتور وبيده حربة فقال : « لم لا تقتلون هذا الخوارزمى ؟ » فقالت امرأة صاحب البيت : « لا سبيل إلى ذلك فقد أمنه زوجى ».

فقال الكردى : « لا أمان لهذا . إنه السلطان وقد قتل أخا لى فى خلاط خيرا منه ».

وكان جلال الدين رابط الجأش ولم ينبس ببنت شفة . وما أتم الكردى كلمته ، حتى هز حربته فسددها بقوة إلى السلطان ، فحاص عنها فنشبت فى الجدار خلفه . وأسرع جلال الدين فاختطفها منه وقال له : « الآن سألحقك بأخيك ».

فأيقن الكردى أنه مقتول فقال له : « إن تقتلنى كما قتلت أخى فقد شفيت نفسى باختطاف ولديك ».

كانت هذه الكلمة الصغيرة أشد وقعا على جلال الدين مما لو أصابت الحربة كبده ، فقد زلزلت كيانه ، وأفقدته تماسكه . وعجب الكردى إذ رأى خصمه واجما ينظر إليه نظرة ذاهلة ، والحربة تضطرب فى يده . وكان قد ملكه الخوف وتوقع بين لحظة وأختها أن تخترق الحربة حجاب قلبه . ولم يكد يصدق أنه حى بعد لولا أنه سمع بأذنيه قول السلطان يسأله بلهجة حزينة : « وماذا صنعت بهما يا هذا ؟» قال الكردى وقد زال عنه بعض خوفه : « إنهما عندى ولن أسلمهما إليك حتى تؤمننى ».

قال جلال الدين وقد تهلل وجهه : « لقد أمنتك ».

« لا أصدقك حتى ترمى هذه الحربة من يدك » فألقاها جلال الدين على الأرض قائلا : « اذهب فأتنى بهما وسوف أكافئك حين أقدر على مكافأتك ».

فقصد الكردى جهة الباب وهو يتوقع أن الحربة ستدق ظهره ، حتى إذا أيقن أنه بمنجاة من بطش جلال الدين به وقف خارج الباب وصاح : « أيها المخبول

نجوت منك ! لقد بعت ولديك لتجار الرقيق من الشام . فلن يعودا إليك أبدا ».

وهم الكردى بالهرب لولا أن رأى السلطان يتمايل كالذى يدار به حتى سقط على جنبه وهو يقول :« لا حول ولا قوة إلا بالله ! لقد بيع محمود وجهاد بيع الرقيق !».

فكر الكردى راجعا والتقط الحربة فطعن بها جنب جلال الدين ، فنشبت بين ضلوعه . ولم يحاول جلال الدين أن يدفع الكردى عن نفسه . بل استسلم له قائلا :« هنيئا لك يا كردى . لقد ظفرت برجل أعجز جنكيز خان ! أجهز على وأرحنى من الحياة فلا خير فيها بعد محمود وجهاد ».

وأراد الكردى نزع الحربة الناشبة بين الضلوع فلم يستطع . حتى ساعده جلال الدين على ذلك وهو يقول :« عجل بموتى حنانيك !».

وسدد الكردى الحربة إلى صدر جلال الدين فدقها فيه حتى نفذ سنانها إلى الأرض وهو يقول :« هأنذا أرحتك من الحياة ».

وجحظت مقلتا جلال الدين . ورنا إلى جهة الباب كأنه يرى شبحا قدامه حتى فاضت روحه كذلك وهو يقول : أيها البخارى الصالح ! أيها الحاج البخارى ؛ ادع لى عند ربك . عساه يغفر ذنوبى ويكفر آثامى !».

الفصل الخامس

مات جلال الدين ولم يعلم عن محمود وجهاد إلا أنهما اختطفا فبيعا لأحد تجار الرقيق بالشام ، أما كيف اختطفا ، وماذا لقيا بعد ذلك ، فبقى سرا مكتوما عنه إلى الأبد ، وتفصيل ذلك أن السلطان جلال الدين كان شديد الولع بالصيد لا يتركه في إقامته ولا سفره . وقد بلغ به حب الصيد أن ربما كان يسنح له سرب من الظباء أو حمر الوحش فى طريقه وهو سائر إلى غزوة أو قتال فينفتل عن جيشه ويطرد فى أثر السرب ولا يعود حتى يصيب شيئا منه فيأمر رجاله بحمله . وطالما نصحه خاصة رجاله فى ذلك وحذروه مما قد ينتج عنه من الخطر على نفسه أو على جيشه ، فكان يسلم لهم بصواب رأيهم ويعدهم بأن لا يقع ذلك مرة أخرى ، ولكنه لا يلبث أن يرى صيدا فينطلق فى أثره . ويقول لهم فى ذلك أنه أمر لا يقدر على دفعه . وقد سرى هذا الغرام بالصيد منه إلى ابن أخته من طول ما صحبه الغلام حين كان يخرج لذلك فى بلاد الهند . وكثيرا ما خرج محمود مع سيرون سائسه لاصطياد الأرنب البرى خاصة .

ولما انتهى جلال الدين من الإغارة على بلاد الملك الأشرف ، وقصد بلاده مسرعا للقاء جنكيز خان ، لم يشغله ذلك عن الانفتال عن عسكره والجرى وراء غزال لاح له فى أول الطريق ، فحبسهم ساعة ينتظرون حتى رجع .

وكان جماعة من أهل خلاط قد أمضهم ما فعل جلال الدين بأهلهم وأطفالهم وأموالهم . فتعاهدوا على اغتياله ولو كلفهم ذلك أرواحهم . ولما علموا بسفره تبعوه وساروا وراء عسكره يتربصون فرصة انفراده عنهم أو غفلة حرسه فيهجمون عليه . ولما أعياهم ذلك ويئسوا من الظفر به . عقدوا العزم على اختطاف ولديه .

وكانوا قد لحظوهما يسيران على جواديهما ولا يستقران فى ناحية واحدة ، بل يتنقلان فى أكناف الجيش ، فحينا مع السلطان فى المقدمة يتحدثان إليه ، وحينا فى الساقة يستعرضان الجيش أو يتندران على بعض رجاله . وكثيرا ما تخلفا عنه حتى إذا ابتعدا قليلا دفعا جواديهما ولحقا به يستبقان أيهما يسبق الآخر .

كان محمود أقدر على السبق من صاحبته بالطبع ، ولكنه كان لا يضن عليها بنيل هذه الأمنية أحيانا ، فيتعمد أن تكون لها الغلبة تدليلا لها وتطييبا لخاطرها . وكان يرافقهما فى كل ذلك ويحرسهما الشيخ سلامة الهندى وسيرون السائس فما يفارقانهما أينما سارا . وهذا ما جعل جلال الدين مطمئن النفس قبلهما لا يخاف عليهما سوءا .

وبينما كانا يسيران فى مؤخرة الجيش إذ بصرا عن يمينهما بأرنب برى منطلق بين الحشائش فى أسفل الجبل ، فساق محمود فى طلبه ، وانطلقت جهاد وراءه ، وجد معهما الحارسان ليرداهما عن ذلك حتى غابوا جميعا فى منعطف الجبل . ولم يكترث لهم أحد من الجيش اتكالا على وجود الحارسين مع الأميرين ، ولم يخامرأحدا منهم شك فى أن هؤلاء سيعودون ويلحقون بهم ، وقد سار مألوفا عندهم أن يتخلف الأميران عنهم قليلا فلا يلبثا أن يعدوا وراءهم حتى يفوتاهم .

أما ما فات الجيش كله علمه ، فهو أن سبعة من الأكراد الموتورين كانوا يسيرون وراءه غير بعيد منه ، متوارين خلف الأشجار أو خلف التلال يتطلعون إليه يقظين حذرين بحيث يرونه من حيث لا يراهم ، وقد لمحوا محمودا يطرد وراء الأرنب ناحية الجبل وخلفه جهاد والحارسان ، فداروا من خلف الجبل وطلعوا عليهم من ثنيته فجأة ، فأحاطوا بهم ، وتلقف أحدهم محمودا فأنزله من جواده وكم فاه ، وقبض ثان على جهاد وصنع بها ما صنع رفيقه بمحمود ، وهدد الآخرون الشيخ سلامة وسيرون بقتلهما وقتل الأميرين معهما إذا صاح أحدهما

بكلمة ، أو أبديا حركة للفرار . فهم سيرون بالاستغاثة ، ولكن الشيخ سلامة أشار له أن يلزم الصمت وأن يطيع القوم ، فاستسلما لهم خوفا على حياة الأميرين وطمعا فى أن يلحق بهم جماعة من الجيش للبحث عنهم إذا استبطأوا عودهم .

ولكن هذا لم يغب عن الأشقياء ، فجعلوا همهم الفرار بهم من ذلك الموضع بأسرع ما يمكنهم ، فأردف اثنان منهم الصبيين وسبقاهم إلى الثنية ، وتبعهما الآخرون يسوقون الحارسين بسيوفهم ، حتى إذا بلغوا السفح الآخر من الجبل بدت من سيرون محاولة للهرب ، فما أمهله أحدهم أن طعنه برمحه فى كبده حتى أثبته ، فأخذوه فرموا به فى منحدر ضيق عن يمين الجبل . وأخذوا بعنان جواده ومضوا فى منعطفات الجبال وسلكوا الأودية الضيقة . ومازالوا كذلك حتى رقوا بهم الجبل الذى لاذ به جلال الدين بعد ذلك ، حين طارده التتار ، فلقى فيه حتفه على يد الكردى الموتور .

وكان يسكن هذا الجبل قوم من الأكراد شطار يقطعون الطرق على القوافل فينهبونها ، وعلى المسافرين فيقتلونهم ويخطفون أطفالهم ونساءهم فيبيعونهم لعملائهم من تجار الرقيق الذين كانوا يرتادون هذا الجبل لهذا الغرض الممقوت ، فيحملهم هؤلاء إلى أسواق العراق ومصر والشام .

لم يقم محمود وجهاد بجبل الشطار إلا بضعة أيام ، حتى جاء أحد تجار الرقيق إلى الجبل ، فعرضوهما عليه بعد أن غيرا اسميهما العربيين باسمين عجميين فاشتراهما بمائة دينار . أما الشيخ سلامة فإنه لما عرض على التاجر أبى أن يشتريه ، وقال : « ما أصنع بهذا الشيخ الفانى ؟ ». فاستاء الشيخ من ذلك ، فقد كان يود أن يصحب الأميرين لعلهما يستأنسان به ، أو يحتاجان إلى خدمته ، ولو بعض حين ، ريثما يوطنان أنفسهما لهذا الأسلوب الجديد من الحياة الشاقة التى تختلف عن حياتهما السابقة كل الاختلاف ، ولما يئس من مرافقتهما لأن التاجر أبى شراءه حزن لذلك أشد الحزن إلا أنه تعلل بأنه مهما

رافقهما فلا بد أن يفترق عنهما يومًا ما في سوق النخاسة . فسلم أمرهما إلى الله .

وأراد أن يزودهما بنصيحة تنفعهما في حياتهما الجديدة ، فتوسل إلى البائعين ليأذنوا له أن ينفرد بهما ، كي يودعهما ، ويسدى إليهما نصائح تنفعهما ، فأذنوا له بذلك . وكان مما يسر له موافقتهم أن محمودا كان لا يكف عن التبرم والشكوى ولا يفتأ يلعن خاطفيه ويسبهم ويعلن أنه ابن أخت السلطان جلال الدين ، وأن جهادا ابنته ، وأن من باعهما أو اشتراهما فهو متعرض لنقمة السلطان وسطوته . وكان يضرب بيده أو يركل برجله أى واحد من هؤلاء يقترب منه ، فيعاقبونه بالضرب الموجع ليمتنع عن ذلك فلا يمتنع ، وأن جهادا كانت تواصل البكاء لا يرقأ لها دمع ، ولا يسوغ لها طعام ، حتى نحل جسمها واصفر وجهها ، وخشى عليها من جراء ذلك . فقال لهم الشيخ : إنه لو خلا بهما فتلطف في نصحهما لربما استطاع أن يفثأ لوعتهما ، ويهدىء ثورتهما ، ويصرفهما عما هما فيه من البكاء وعدم الانقياد ، فكان في ذلك مصلحتهما ومصلحتهم ومصلحة التاجر . وكان يقول لهم ذلك بغاية الحكمة والرزانة فاستنصحوه واستصوبوا رأيه ، وقبلوا طلبه .

ولما خلا بهما قال لهما بصوت يفيض رقة وحنانا ، ويتنازعه الحزن والتجلد : « يا أميريّ الحبيبين قد رأيتما ما نحن فيه من البلاء والمكروه ، وإن علينا أن نلقاه بالصبر حتى يأتينا الفرج من الله ، وإنه لقريب إن شاء الله ، إنكما حديثا السن ، طريًا العود ، ولكن الله قد رزقكما من الذكاء والفطنة ما تفوقان به على كثير ممن هو أكبر منكما سنًّا . أنتما من أولاد الملوك ، فجدير بكما أن تصبرا صبر الملوك . إن الجزع لا يفيدكما شيئا بل يزيد بلاءكما وشقاءكما ؛ وربما

يسلمكما إلى مرض يودى بحياتكما ، فيشق ذلك على مولاى السلطان جلال الدين حين يطلبكما بعد أن ينتهى من قتال التتار فلا يجدكما . يا ولدى العزيزين إن هؤلاء اللصوص اختطفوكما ، فباعوكما لهذا التاجر ، وإن من مصلحته أن تكونا معه بخير حتى يبيعكما بثمن يرضيه . فاسمعا له وأطيعاه ليحسن معاملتكما ، ولا يتعرض لكما بسب أو إهانة ، وإنه يعرف قدركما ولا يجهل قيمتكما ، وسيطلب بكما ثمنا كبيرا فلا يتصدى لشرائكما إلا السراة والأمراء ومن فوقهم من الملوك والخلفاء حيث تعيشان فى قصورهم عيشة صالحة ، حتى تنقضى هذه المحنة القصيرة إن شاء الله ، إن مولاى السلطان جلال الدين سينتصر على التتار بإذن الله ، وسأكتب إليه بأمركما فسيبعث فى طلبكما من أطراف الأرض ، وسترجعان إليه فيفرح بكما وتفرحان به ، ولكى يسهل عليه الاهتداء إليكما ، عليكما أن تصغيا لما أقول ، إياكما أن تقولا لأحد إنكما من أولاد جلال الدين ، اكتما هذه الحقيقة عن كل أحد لأن هذه الحقيقة قد تسبب لكما متاعب أنتما فى غنى عنها ، وقد تحول دون سهولة الاهتداء إليكما حين يسعى فى طلبكما مولاى السلطان ، إذ قد يضن بكما من تكونان فى حيازته ، فيبالغ فى إخفائكما ، ويحول بينكما وبين وسائل الإعلان عن مقركما ، إما بالكتابة إلى مولاى السلطان أو الاتصال بأحد معارفه أو رسله ، أما إذا بقى هذا السر مكتوما حتى تحين ساعة الطلب ، فسيكون يسيرا عليكما أن تهدياه إلى مقركما ، حيث يأخذكما إليه ، والحمد لله قد كفانا هؤلاء اللصوص مؤنة تغيير اسميكما ، فليعتمد كلا كما اسمه الجديد ، ولا يجد فى ذلك حرجا فإنه اسم مؤقت ينتهى أجله حين تنقشع هذه الغمامة ، ويومئذ يموت المملوك قطز ، وتموت المملوكة جلنار ، ويعود الأمير محمود بن ممدود والأميرة جهاد بنت السلطان جلال الدين إلى القصر الملكى بغزنة ، حيث يرثان ملك آل خوارزم شاه ، بعد عمر مديد لمولاى السلطان . أما تذكر نبوءة المنجم يا أميرى محمود إذ بشّر بأنك ستكون ملكا كبيرا ، وتهزم التتار هزيمة ساحقة ؟ » .

وسكت الشيخ هنيهة كأنه ينتظر تصديق الأمير له .

فقال محمود : « بلى . إنى لأذكرها ؛ ولكنى أصبحت لا أومن بصدقها اليوم » .

قال الشيخ : « لا تقل هذا يا مولاى فإنك ستكون ملكا ، وتهزم التتار ، ومولاى السلطان لا يشك فى هذا ألبتة » .

قال محمود : « هيهات أن يكون المملوك ملكا ، إنى لا أريد الملك وحسبى أن أعود أنا وجهاد إلى خالى ، وأقاتل التتار معه » .

فقال الشيخ : « اذكر قصة يوسف الصديق عليه السلام كيف بيع بدراهم معدودة لعزيز مصر ، فما لبث أن صار ملكا على مصر ، وهكذا تحدثنى نفسى أنك ستكون كيوسف ، غير أن يوسف كان من بيت النبوة وأنت من بيت الملك ، يا ليتنى أعيش حتى أراكما تملكان البلاد ، ولكنى شيخ كبير لا أحسب عمرى يمتد بى إلى ذلك العهد السعيد » .

وكانت جهاد تصغى لحديث الشيخ بكل جوارحها وقد كفكفت دمعها واطمأنت إلى صدق ما يقول ، فما قال الشيخ كلمته هذه حتى قالت له : « كلا إنك ستكون معنا دائما ولن تفارقنا » .

فقال الشيخ : « يسمع الله منك يا أميرتى الصغيرة ، إنى سأبقى هنا لأن التاجر أبى أن يشترينى لكبر سنى ، ولكنى سألقاكما قريبا إن شاء الله عند مولاى جلال الدين ، فلا أفارقكما حتى الموت ، ولعل بقائى هنا أنفع لنا ، إذ أكون قريبا من بلادنا فأكاتب السلطان بأمركما ، وأطمئنه بوجودكما » .

وأحس الشيخ بأن مدة الانفراد بالصبيين قد طالت ، وخشى من غضب الجماعة عليه ، فأعاد عليهما مجمل حديثه السابق تثبيتا له فى أذهانهما ، وأكد عليهما أن لا يبوحا بحقيقة حالهما لأحد ، وأن يطيعا أمر مولاهما ليحسن معاملتهما ، ثم دنا منهما فضمهما إلى صدره وهو يقول : « أستودعكما الله حافظ الودائع » فطفقا يبكيان ويقبلان رأسه ، ثم قام بعد أن هدأهما وجفف

دموعهما ، وسار بهما إلى مجلس القوم ، حيث ينتظرهما التاجر ليمضى بهما فقال له : يا سيدى إنى قد أوصيتهما بطاعتك فلن يخالفا أمرك ، فأوصيك بهما خيرا ، إنهما حديثا السن قليلا التجارب ، فارفق بهما وأحسن سياستهما بارك الله لك فيهما ، وبارك لهما فيك » .

وعجب القوم إذ رأوا الغلام قد لان جانبه ، وانكسرت شكيمته ، بعد أن كان عصيا عنيدا ، والجارية قد سكن جأشها ، واطمأن بالها ، فتبعا مولاهما طائعين ، غير متمردين ولا متذمرين ، غير أنهما لما ارتحل التاجر بهما على بغاله ، غامت عيونهما بالدمع ، والتفتا إلى جهة الشيخ وجعلا يلوحان له بأيديهما حتى اختفيا .

واختلف القوم فى أمر الشيخ ماذا يصنعون به ، فمن قائل نطلقه يمضى حيث يشاء ، ومن قائل نقتله ، ومن قائل نستخدمه وندعه يحتطب لنا ، حتى اتفقوا آخر الأمر على أن يبقوه عندهم حتى يبيعوه لتاجر آخر قد يرغب فى شرائه .

وما أوى الشيخ سلامة إلى محبسه ، حتى انكب على وجهه ، وجعل يبكى بكاء مرا ، وهاجت شجونه ، فتذكر أيامه فى خدمة مولاه الكبير ، السلطان خوارزم شاه ، وخدمة السلطان جلال الدين من بعده ، وما شهدت عيناه من الأحداث والنكبات التى حلت ببيتهما ، وكان آخرها هذا الذى نزل ببقية ذلك البيت المجيد ، وأفضى بهذين الأميرين الصغيرين إلى ذل العبودية وهوان الرق ، حيث يباعان فى أسواق النخاسة ، ويتنقلان فى أيدى المالكين .

ومما زاده ألما وملأه حسرة وكمدا ، أنه — وهو خادمهما الأمين — قد استعمل نفوذه عليهما ، وثقتهما به ، واطمئنانهما إليه ، فى حملهما على الرضاء بهذا الهوان ، واستنزالهما عن إيمانهما وعزتهما ، ليخضعا خضوع العبيد لمن اشتراهما بمائة دينار ، وأنه استغل سذاجتهما وسلامة نيتهما وقلة بصرهما بالحياة ، فخدعهما عن حقيقة حالهما ، وكنه مصيرهما ، وأوهمهما ضلة وكذبا أن هذه محنة طارئة لا تلبث أن تزول ، وغمة عارضة لا تلبث أن تنقشع .

نعم إنه أشفق عليهما من إهانة المولى وقسوة المالك ، ولم يرد بهما إلا الخير ، إذ نصحهما بالخضوع وحسن الطاعة ، ولكن علام هذا كله ، وفيم هذا الحرص على البقاء ، وما قيمة الحياة إذا فقد المرء حريته وشرفه ، وصار سلعة تباع وتشترى ؟ فكيف بأمير وأميرة نشآ فى أكبر بيوت الملك ، وتقلبا فى أعطاف النعمة والعز ، يراد بهما أن يرضيا بحياة العبد والأمة ، حيث يلقيان صنوف الذل وألوان الامتهان ، ويلقى إليهما أن في ذلك خيرهما وسعادتهما لئلا يأتيهما الموت ، فيقطع عنهما فتات الموائد وفضول الشراب !

إنهما ذهبا راضيين لما خلبهما من سحر حديثه ، آملين أن يعودا إلى كنف السلطان جلال الدين بعد برهة قصيرة من الزمن . فماذا يكون حالهما إذا تبدد منهما هذا الحلم الجميل ، وعرفا الحقيقة المرة : أن لا خلاص من حياة الرق ، ولا فكاك لهما من قيد الاستعباد ؟وأنكى من ذلك أن هذين الأميرين عاشا أليفين متلازمين منذ الطفولة ، لم يغب أحدهما يوما واحدا عن الآخر ، ولا يكاد يصبر ساعة عنه ، وقد ظنا حين ذهبا مع النخاس أنهما سيظلان كما كانا رفيقين متلازمين ، ولم يخطر ببالهما قط أن أسواق الرقيق قد تفرق بينهما ، فيقع هذا فى يد رجل من المشرق وتباع هذه لرجل من المغرب ، وكانا يشعران من طول تلازمهما أنهما شخصان لا يفترقان أبدا ، وأنهما سيعيشان معا ويموتان معا . وما دار بخلدهما أن أحدا من الناس ، مهما بلغ من الحول والقوة ، ومهما بالغ فى تعذيبهما واضطهادهما يمكن أن يفكر في إبعاد أحدهما عن الآخر ، فهذا شيء لا سبيل إليه . وما علما أن تجار الرقيق لا يرعون لمثل هذه الألفة عهدا ، ولا يقيمون لهذه الصحبة الطويلة والتعاطف الأخوى وزنا . وإنما يعتبرون المال وحده ، ويميلون مع الريح حيث يميل . فإن قدر لهما أن تضمهما يمين مالك واحد ، كان ذلك اتفاقا غريبا ، وصدفة غير مقصودة ، لا رعاية لهما ولا إبقاء على اجتماع شملهما .

جاشت هذه الخواطر كلها بقلب الشيخ المكلوم ، فشعر بهم عظيم يسد ما بين جوانحه ، ويأخذ بأكظامه ، فملَّ الحياة وتمنى لو اخترمه الموتَ فأراحه من همومه وآلامه ، وبقى أياما لا يذوق الطعام الذى يقدم إليه حتى وهنت قوته وساء حاله ، وأصابته حمى شديدة بات يهذى منها طوال ليله . حتى وجدوه فى الصباح جسدا هامدا لا حراك به . فكفنوه فى ثيابه ، وأهالوا عليه التراب .

مات الشيخ سلامة الهندى . ولم يدر بخلده وهو ينعى نفسه فى ذلك الجبل النازح . أن مولاه وولى نعمته السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه سيلقى حتفه فى ذلك الجبل . بعد بضعة أيام من وفاته ، ويدفن على مرمى حجر من قبره . فى تربة كل قاطنيها عنهما غريب . وليس لهما بينهم من صديق أو حبيب .

الفصل السادس

أما قطز وجلنار ، فقد وصل بهما التاجر إلى حلب ، فأنزلهما معه في بيت بعض معارفه ، وكساهما ثيابا حسنة وأراحهما ، ولم يكلفهما أى عمل يقومان به ، ولم يحبسهما في المنزل بل تركهما يجيئان ويذهبان كما شاءا في ساحة الحي . وكان لطيفا معهما طوال الطريق ، يقدم لهما الطعام ، ويساعدهما في الركوب والنزول ، ويجاذبهما أطراف الحديث ويداعبهما ، ويسليهما بالقصص والنوادر باللغة الفارسية التي كان يجيدها إجادة حسنة ، حتى مال الصبيان إليه ، وخف عنهما ما كانا يجدان من الوحشة والقلق ، ونظرا إليه كأنه صديق لهما ، لا مالك اشتراهما بالمال . وكان للتاجر مملوك ثالث في سنهما ، يدعى بيبرس ، قد أحضره إليه أحد وكلائه ، فضمه إليهما ، ولكنه كان يعامله معاملة قاسية ، ويضربه ويحبسه في المنزل لا يبرحه مثلهما : فعجبا في أول الأمر من خلق الرجل كيف يرفق بهما ذلك الرفق ، ثم يقسو هذه القسوة على الغلام ؟ ولكن سرعان ما زال عجبهما حين عرفا بيبرس وتمرده على مولاه ، وسوء خلقه معه ، وميله دائما للإباق منه ، فأدركا حينئذ أن مولاهما حكيم في سياسته ، يعامل كلا بما يليق به من الشدة واللين . على أنهما مع ذلك لم يخلوا من الرقة لهذا الغلام القبقاجي الأشقر ، ذى العيون الزرق تنم عن الحيلة والمكر ، فكان قطز يحسن إليه على غير علم هؤلاء ويقتطع له شيئا من إدامه وحلواه فيقدمه له ، فيلتهمه الصبي التهاما ، فنشأت من جراء ذلك صداقة متينة بينهما . أما جلنار فكانت مع شفقتها عليه تشعر بنفور شديد منه ، وتلقى نظراته الحادة كأنها سهام ماضية لا تقوى على احتمالها عيناها الوديعتان .

وما هى إلا أيام قلائل حتى حل موعد السوق بحلب ، وكان يوم الأربعاء من كل أسبوع ، فتقاطر إليه الناس من سائر مدن الشام وقراه ، ليشهدوا منافع لهم ويبيعوا ويبتاعوا ، وكان يقام فى رحبة واسعة فى طرف من أطراف المدينة تنصب فيها الخيام ، وتضرب فيها السرادقات العظيمة وتقسم أقساما : فقسم للحبوب والغلال ، وقسم للأقمشة والملابس من الصوف والقطن والكتان والحرير ، وقسم للآنية والسرج وسائر أدوات المنازل ، وقسم للأدوية والعطور ، والأدهنة والمقويات ، وقسم للجوارى والعبيد ، وقسم للخيول والمواشى إلى آخر ما هنالك . وكان كل قسم من هذه الأقسام يسمى سوقا ، فسوق الغلال ، وسوق البز ، وسوق الرقيق ، وسوق الخيل ، وهلم جرا .

ولما أصبح يوم الأربعاء أمر التاجر مواليه الثلاثة فاغتسلوا وكساهم ، وأصلح شعورهم وطيبهم ، ثم مضى بهم إلى السوق الكبير . أما بيبرس فقد أمسك التاجر بيده يجره جرا وهو يسبه ويلعنه ، وأما قطز وجلنار فقد أطلقهما ، فسارا فرحين وما يظنان إلا أنهما ذاهبان لشهود هذا الموسم العظيم ، والتفرج على ما فيه ، حتى بلغ بهم سوق الرقيق فإذا سرادقات عظيمة مملوءة بالجوارى والغلمان من بيض وسود وألوان بين ذلك شتى ، وقد جلسوا على الحصر جماعات متفرقة ، وقام على كل جماعة منهم الدلال الذى عهد إليه ببيعها ، فيأخذ الدلال أحدهم ويوقفه على دكة منصوبة أمامه وينادى عليه بين الذين حضروا للابتياع بكلمات مسجوعة أو منظومة فى الإشادة بمحاسن المعروض للترغيب فى شرائه . وهؤلاء السماسرة يفتنون فى ذلك افتنانا عجيبا ، ويستعين كثير منهم بالشعراء لينظموا لهم مقطوعات فى أوصاف الجوارى والغلمان ونعوتهم المختلفة ، فينادون بها على من يعرضون من الرقيق بحسب ما يقتضيه المقام ، فهذا دلّال قد أقام على الدكة غلاما تركيا ، وسيما ، وجعل ينادى عليه :

من للغـلام الجميـــل ... شاريـــه لا يستقيـــل

أطـــوع من بنانـــه ... أنفـــذ من سنانـــه

إذا حبست الـذهب في عينـــه ما ذهب

هذا دلال آخر ينادى على عبد أسود قد أقامه على الدكة ، وجعل يقول :

من للفتى النوبى من ؟
أحلك من ليل الشجن
أسنانه مثل اللبــــن !
أقـــوى يدا من الزمـــن
مدرَّب علـــى المهـــن
لا يشتكى من الوهـــن
على الحريم مؤتمـــن !
خذوه من غير ثمـــن !
من لشبيه المسك من ؟

ويقوم فى ركن آخر من السرادق دلال ينادى على جارية شركسية حسناء ، ويقول :

من لحسناء من الحور ؟	صاغها الله من النور ؟
هربت من يد رضوان	فغدا ولهـــان أسوان
انظروا البدر الجميـــل	لاح فى الليـــل الطويـــل
انظروا الطرف الكحيـل	انظروا الخـد الأسيـــل
انظـــروا هذا القـــوام	ما علـــى الصب ملام !
هل لغصن البان مثلـــه	أيـــن للأغصان دلّـــه ؟
من حواها فهو مسعود	وعلى النعمـــة محسود

وتلك جارية رومية شقراء قد وقفت على دكتها والدلال ينادى عليها :

من يشترى حسناء من نسل الروم ؟

بائعها بين الأنام محروم !
وخصرها بين الخصور مهضوم !
وريقها مثل الرحيق المختوم .
عيونها مثل السماء الصافية
خدودها مثل الورود الزاهية
شعورها سلاسل من الذهب
تسطع فى الشمس كأنها لهب !

وما أن سلم النخاس مواليه الثلاثة إلى أحد الدلالين حتى جعل يقلبهم ، ويصعد النظر فيهم ، كأنه يختبر نعوتهم ، ويتبين سماتهم ، ثم كتب أسماءهم فى دفتره ، وتحت كل اسم منها صفته وسنه وأصله ، وأقل قيمة يطلبها صاحبه فيه ثم دفعهم إلى الحصير ، فقعدوا عليه بين غيرهم من الرقيق الذى عنده .

أما بيبرس فقعد مطمئنا لا أثر عليه من امتعاض أو اكتئاب ، وجعل يجيل نظراته الحادة فيمن حوله من الناس ، فإذا رأى عبدا أسود ، أو جارية شوهاء ، أو غلاما قبيح الخلقة ، ضحك عليه ، وأشار لقطز إليه غير مكترث بالدلال الذى كان يحدجه بالنظر ، مرة بعد مرة ، ويقطب له ليردعه بذلك عن عمله ، فما يجيبه بيبرس بغير إخراج لسانه ، وتحريك حاجبيه .

وأما قطز وجلنار فقد غلبهما الوجوم ، وأصبحا لا يعيان شيئا مما حولهما ، وظنا أنفسهما فى منام لا فى حقيقة ، لولا أنهما تذكرا ما وقع لهما من اختطاف اللصوص ، ثم بيعهم إياهم للنخاس . وما زالا بعد فى ريب من أن يكون التاجر الواقف أمامهما بعد إذ سلمهما للدلال ، هو عين ذلك الرجل الذى أحسن إليهما مذ يومهما ، وأظهر لهما ذلك البر وتلك الرعاية . وترقرق الدمع فى مآقيهما فكانا يمسحانه بطرف ردائهما منسارقة ، وما أمسك دمعهما أن ينسكب إلا حياؤهما من أن يبدو عليهما الضعف بين من حولهما من الناس ، أو يظهرا أقل جلدا واحتمالاً من زميلهما الضاحك العابث .

ومرت ساعات طويلة شهدا كيف تعرض الإماء والعبيد والغلمان ، وتنادى عليهم ، ويقلبهم الراغبون فى الشراء ظهرا لبطن ، لا فرق بينهم وبين السلع ، فينفق من ينفق منهم ، فيمضى لسبيله مع من اشتراه ، ويبور من يبور ، فيعاد إلى مكانه فى الحصير كاسف البال . حتى جاء دورهما ودور صاحبهما فبدىء ببيبرس ، ونصب على المنصة وهو يلتفت يمينا وشمالا ، وقد جرد من ثيابه إلا ما يستر وسطه ،فبدا يابس الساقين ، بارز الصدر ، مفتول الساعدين ، فنادى المنادى وهو يضرب على صدره وظهره :

من للفتى القبقاجى ؟ ينفـــع فى الحمـــاق
يدفـــــع عن مولاه كيــد الـــذى عاداه
ستطّلــع الأينـــام إن صح ظنـــى فيـــه
مغامــرا مقــــدام يعـــز من يؤويــــه
يهـــزأ بالأهـــــوال فى ساحـــة النـــزال
أنكـى على الأبطـال من أسد رئبــــــال

فتقدم إليه رجل يظهر من سحنائه وزيه أنه تاجر من مصر ، فاشتراه ونقد الدلال ثمنه مائة دينار . وكان مالكه النخاس لا يطمع فى أكثر من خمسين دينارا ولكن الدلال لما لحظ تطلع التاجر المصرى إليه ، وشدة رغبته فيه ، جعل يرفع قيمته حتى بلغ بها مائة ، فكان له فوق أجرة الدلالة نصف ما زاد من قيمته على ما حدده المالك ، أى خمسة وعشرون دينارا . وقد فرح الدلال بهذهالصفقةفرحا كبيرا جعله يبالغ فى ملاطفة التاجر المصرى ويقول له :

« خذه إليك .. بارك الله لك فيه ، وحافظ على هذا الغلام الخبيث فإنه شرس أباق » .

ولم يكن بيبرس يعرف العربية إلا قليلا ، ولكنه فهم من حركات الدلال وإشارات يده ، ونبرات صوته ، معنى الكلام الذى نادى به عليه ، فوقف حين

وقف على الدكة مختالا بنفسه ، مدلا بقوته ، ونزل حين نزل منها ومشى إلى مولاه المصرى مزهوا يكاد يخرق الأرض تيها . ولم يمض المصرى بعد أن اشترى بيبرس ، بل عاد إلى مكانه الأول ولزمه ، ينظر إلى الصبيين الوضيئين كأنه يرغب فى شرائهما أيضا ، أو يريد أن يرى كم يبلغ ثمنهما .

وأخذ الزحام يشتد على حلقة الدلال حينما تهيأ لعرضهما ، وكان فى الحاضرين رجل دمشقى جميل الهيئة ، تبدو عليه مخايل النعمة واليسار ، قد وخطه الشيب فى رأسه ولحيته ، فزاده وقارا وهيبة ، وقد حضر إلى سوق الرقيق من الصباح الباكر ، فظل زمنا يطوف على حلقات السماسرة ، يجيل بصره فى وجوه الرقيق ، وكلما لمحت عينه صبيا أو صبية ، وقف عنده يتأمله تأملا دقيقا ، حتى وصل إلى حلقة دلالنا حافظ الواسطى ، فما وقع بصره على قطز وجلنار ، حتى خفق قلبه ، وقال فى نفسه : « هأنذا قد وجدت بغيتى » ، ووقف برهة يتفرس فى الصبيين ، فما يزداد إلا ميلا إليهما ورغبة فيهما ، ثم دار على الحلقات الأخر كرة أخرى كأنه أراد أن يتثبت لنفسه ويستيقن أن ليس فيها أصلح له منهما وأوفق ، أو إنما شاء أن يصرف الأنظار عنه ، ولا سيما نظر الدلال لئلا يعرف تعلقه بهما فيغلبهما عليه ، ثم عاد إلى الحلقة واتخذ لنفسه مقعدا فى جانب منها ، بحيث يرى الصبيين ، فظل يسارقهما ويسارق الناس النظر إليهما طوال لبثه هناك ، ينتظر أوان عرضهما .

وما لبث قطز وجلنار أن شعرا بمكان هذا الشيخ الجميل الهيئة وتكراره النظر إليهما دون سائر الحاضرين الذين شغلهم التطلع إلى المعروضين قبلهما ، والاستماع إلى ما ينادى به الدلال الفصيح عليهم ، من طرائف البيان الممتع ، فألهاهم ذلك عنهما ، وهما يمسحان دمعهما الفينة بعد الفينة ، خلسة عن الأعين ، إلا عين ذلك الشيخ الذى كان لا يغفل عنهما لحظة ، كأنه مشغول بهما عما الناس فيه . فتضايقا أول الأمر من عينه العالقة ، وحسباه رقيبا موكلا باستطلاع ما يحاولان ستره عن العيون من لواعج همهما ، لما شعرا به من الذل

والمهانة فى ذلك الموقف البغيض ، ولكنهما ما لبثا إذ رأيا الطيبة الناطقة فى وجهه ، والحنان الفائض من عينيه ، أن تبدل شعورهما نحوه ، فصارا يميلان إليه ، وطفقا يبادلانه النظر بحب وطمأنينة ، أحس بها الرجل فشاع السرور فى وجهه ، ولولا مراعاة الحاضرين لقام إليهما فاحتضنهما كما يحتضن الأب ولديه يلقاهما بعد غياب طويل ، وكذلك كان شعور الصبيين نحوه شبيها بشعوره نحوهما ، إذ أحسا كأنه صديق لهما يعرف حقيقة حالهما ، وسر نكبتهما ، قد جاء لينقذهما مما هما فيه ، وما يدريهما أن لا يكون رسولا من قبل أبيهما السلطان جلال الدين ، قد بعث فى طلبهما بعد أن فرغ من قتال التتار . ألم يقل ذلك لهما الشيخ سلامة الهندى ؟ ألم يعدهما بأنه سيكاتب السلطان بأمرهما من الجبل ؟ .

كان الصبيان يجيلان هذه الأفكار فى رأسيهما فى وقت معا ، كأنما يستبقان فى شوط واحد ، ولا بدع فى ذلك من أمرهما ، لأنهما درجا معا ، حتى بلغا من التآلف والتمازج أن صار أحدهما يعرف خبيئة نفس الآخر ، ومكنون صدره ، كأنما يشعران بقلب واحد . ولبثا ينتظران أوان عرضهما بفارغ الصبر ، وهما لا يشكان فى أن صاحبهما سيتقدم لشرائهما ولا يغليهما عنده ثمن . وتشوقا إلى معرفة سره إذا ما اشتراهما ومضى بهما من ذلك السوق الذى أندى جبينهما ، ولقيا فيه الخزى والهوان .

أما الدلال فإنه ما كاد يفرغ من أمر بيبرس حتى وجد الناس يتطلعون إلى الصبيين ، وما يشكون فى أنهما شقيقان لشدة تقاربهما فى الملامح ، واتفاقهما فى الدم ، فوقف أمامهما لا يدرى بأيهما يبدأ . وكانت سنته فى ذلك أن يبدأ بالأقل قدرا ، ليحتفظ ببقاء الناس فى حلقته ، متطلعين إلى من يفضله من الباقين عنده ، وقد حار أى الصبيين يقدم ، لأنه لما يجزم أيهما يفضل أخاه ، ولكن قطزا قطع عليه هذا التحير فى التخير ، إذ قام فتقدم يعرض نفسه ، فما وسع الدلال إلا قبول عرضه ، فأوقفه على الدكة ووجهه يحمر خجلا ، يكاد ينبجس منه الدم ،

ونادى عليه والعيون ثابتة فيه :

من للغــلام الوسيــم	من النجـار الكريــم
تبيـن عن حر أصلــه	منـه مخايــل نبلــه
نم عليــه حيـــاؤه	وفـــى محيـــاه ماؤه
أمنيـــة المتمنـــى	وطرفـــة المتبنـــى
ذكـــاؤه فوق سنـــه	وحسنـــه دون يمنـــه
سماحـــة وشجاعـــة	وعـــزة ووداعـــة
وعفـــة وقناعـــة	وحسن خلـق وطاعـة
سيــده يزهـــى به	إذا مشى فى ركابـــه
لولا صروف الليالـــى	ما بيـع هذا بمـــال !

ولم يكد الدلال يتم نداءه هذا حتى تسابق الراغبون فى شرائه أيهم يفوز به ، فجعلوا يتبارون في رفع قيمته ، حتى بلغوا بها مائتين وسبعين ، فأتمها الدمشقى ثلاثمائة فلم يجرؤ أحد على الزيادة ، فسلمه الدلال إليه وهنأه به . ومضى الغلام إلى مولاه الجديد فرحا يحمد الله على أن لم يظفر به سواه ، ووقف قريبا منه . وما لبث الشيخ أن كلمه كلاما لينا تطييبا لخاطره ، فلم يفهم قطز ما يقول ، ولكنه أدرك أنه يلاطفه بذلك ، فود لو أنه كان يعرف اللسان العربى ليجيبه على حديثه .

فاكتفى بأن ابتسم له ، ولم يمهلهما الدلال طويلا إذ أخذ حينئذ بيد جلنار فأقامها على الدكة فتوجه انتباههما وانتباه الناس إليها ، وقد تورد خداها وأخذت ترنو إلى قطز وإلى مولاه الشيخ كأنها تستعطفه أن يحوزها ولا يدع أحدا غيره يفوز بها دونه . ولم يخف على الدلال تطلع الحاضرين ، ولا سيما الرجل الدمشقى ، لشرائها ، ولو شاء لاستغنى بعرضها عن المناداة عليها ولكنه لم يشأ أن يخل بعادته هذه ، ولم تطب نفسه بالسكوت عن الإشادة بمحاسن هذه الصبية البارعة الحسن فجعل يقول :

يا قطـرة من النـــدى | يا فلقـــة من القمـــر
يا نسمـة من الشذى | تنفست وقت السحر
حاملـــة في ردنهـــا | أطيب أنفـاس الزهـر
يا درة من المنـــــى | صيغت وأهـواء البشر
تفـوّق في بهائهـــا | على اللآلى والـدرر
كأنهـا من حسنهـــا | ونضرة الوجـه الأغـــر
وصيـــد في جيدهـــا | بيـــن إبـــاء وخفـــر
صغـرى بنـات أبرويـز | أو بنـات يزدجـــر !
من باعهـــا بوزنهـــا | من ذهب فقـد خسر
يا فوز من يملكهـــا | ولـو أضاع ما ادخـر

فتنافس الحاضرون في شرائها . ولكن الرجل الدمشقى ظل يزايدهم في الثمن حتى بلغ به ثلاثمائة دينار ، وكان قد عزم على أن يقف عند هذا الحد ولا يزيد عليه . وكاد يتركها لمنافسه الذى زاد عليه عشرة دنانير لولا أن نظر إلى قطز فرآه ممتقع الجبين يابس الشفتين ينتفض من القلق ، والدمع في عينيه يستعطفانه أن لا يبخل بالزيادة لئلا يفرق بينه وبين رفيقته . فرقّ له ، وغلبته الشفقة فزاد أربعين دينارا دفعة واحدة ليقطع على منافسه السبيل ، فعرف المنافس أن لا فائدة من المزايدة فتركها له . وما كان أشد فرح الغلام إذ أعلن الدلال أنها لمولاه ، وقدمها له فنقده الشيخ ثلاثمائة وخمسين دينارا . ومضى بهما وهما لا يكادان يصدقان من الفرح أنهما قد نجوا من خطر الافتراق ..

الفصل السابع

اطمأن بالصبيين المقام بدمشق عند سيدهما الجديد الشيخ غانم المقدسي ، ونزلا في قصره الكبير بدرب القصاعين ، تحيط به حديقة غناء حافلة بالكروم وأشجار التين والتفاح والزيتون . وكان الشيخ غانم المقدسي من أعيان دمشق ووجهائها المعدودين ، له أملاك كبيرة وضياع واسعة ورثها عن آبائه . وكان رجلا طيبا يحب الصدقة ويحضر مجالس العلم ، وقد كبر في السن ولم يسلم له من الولد إلا ابن يدعى موسى كان قد أنفق في تربيته وتهذيبه كثيرا من المال ، ليجعل منه رجلا صالحا يخلد ذكره ويخلفه في بيته المجيد . ولكن موسى أخلف ظن أبيه فيه ، فنشأ فاسد الخلق ميالا إلى الشراب واللهو ومخالطة عشراء السوء من الفتيان الخلعاء الماجنين . وقد حاول أبوه بكل وسيلة أن يصرفه عن ذلك فلم يفلح ، وما زاد موسى إلا عتوا ونفورا حتى يئس من صلاحه ، فترك حبله على غاربه واعتبره كأن لم يكن . ولولا مكان والدته وشفاعتها فيه لطرده من بيته وتخلص من معرته . وقد دفعه يأسه من ولده إلى التفكير في أن يبتاع غلاما وسيما حسن الطاعة عسى أن يتخذه ولدا يأنس به ويطمئن إليه ، ويجد عنده من البر والاستقامة ما فقده في ولده . فجهد زمنا يتتبع أسواق الرقيق ليجد الغلام الذى يطمح إليه حتى وجد ضالته في قطز فاشتراه ، ولم يتردد ، لما توسم فيه من الخير والنبل ، وعن له لما رأى جلنار أن يشتريها أيضا ليتخذها ابنة تؤنسه وتؤنس زوجته العجوز .

وشاء الله ألا تخطىء فراسة الشيخ في الصبيين فلم تمض عليهما في حوزته إلا أيام قلائل حتى تبين إخلاصهما في حبه وتعلقهما الشديد به . فأحبهما وأنزلهما من نفسه منزلا كريما . وبالغ في رعايتهما والحدب عليهما ، ووكل بهما من

ساعدهما على تعلم اللسان العربى ، فكان لهما من ذكائهما ما أسرع بهما إلى معرفته واتقانه فى زمن قصير .

ووردت الأنباء إذ ذاك بموت الطاغية جنكيز خان فى مسقط رأسه ، وأن قومه التتار الذين كانوا يقاتلون السلطان جلال الدين قد انحسروا إلى بلادهم ورجعوا عن غزو بلاد الإسلام لما بلغهم خبر هلاكه . ففرح الناس بذلك فرحا عظيما ، وذهب عنهم ما كان يساورهم من الخوف والهلع ، وحمدوا الله على أن كفاهم شر أولئك الغزاة المتوحشين الذين ينزلون الهلاك والدمار والنقمة والعذاب بكل بلد ينزلونه . وبلغهم كذلك موت السلطان جلال الدين قتيلا فى جبل الأكراد حين لجأ إليه بعد ما انهزم من عدوه ، فمنهم من شمت بموته لما ارتكبه فى بلاد الملك الأشرف من الأفاعيل المنكرة ، ومنهم من حزن عليه لما قام به وقام أبوه من قبله من جهاد التتار وصد جموعهم عن بلاد الإسلام .

استفاضت هذه الأخبار فى دمشق حتى صارت حديث الناس فى مجالسهم وأسمارهم ، وتذكروا وقائع جلال الدين وخوارزم شاه مع التتار ، وما حل بهما وببيتهما من النكبات العظام ، حتى انطوى ملكهما وانقطع دابرهما ولم يبق من أهلهما من أحد . ولكن أحدا منهم لم يعلم أن ابنة جلال الدين وابن أخته يعيشان بين ظهرانيهم فى قصر من قصور مدينتهم العظيمة ، وعند رجل من كبار أعيانها . وقد حزن قطز وجلنار لما بلغهما موت جلال الدين وقد كانا يمنيان أنفسهما بالرجوع إليه ، فانقطع أملهما فى ذلك ، وأيقنا أنهما سيبقيان فى رقهما إلى الأبد . وأنما عزاهما فى ذلك وخفف من حزنهما ما كانا يجدان من بر مولاهما وحسن رعايته وإحسانه ، فجعلهما يسلوان مصابهما وشيكا .

ومرت السنون سراعا ، وتوالت الأحداث تترى ، وانقضت لهما فى بيت الشيخ غانم المقدسى عشرة أعوام أو تزيد نميا فيها وترعرعا حتى بلغ قطز مبلغ الرجال وبلغت جلنار مبلغ النساء ، وكانت الألفة التى بينهما تنمو معهما وتترعرع وتنتقل من طور إلى طور حتى نضجت

حبا وغراما . فشعرا بفيوض من السعادة لم يشعرا بمثلها قط تغمرهما فتنسيهما كل ما مر بهما من نعيم الملك ، وما اختلف عليهما بعد ذلك من صروف الأيام ونكباتها . وحليت الدنيا فى عينيهما فصارت رياضا وأنهارا وورودا وأزهارا وطيوفا من ضياء الشفق البهيج وروحات من نسيم الفجر العليل يتقلبان منها فى أيام كلها أصيل وليال كلها سحر ! .

وكان مولاهما الشيخ وزوجته يعلمان بهذه الصلة البريئة الطاهرة بينهما فشملاها بالعطف والرضى ، وتعهداها بالتنمية ، ووعداهما بتزويج أحدهما من الآخر حينما تتهيأ الفرصة ويخف الشيخ من مرض الشلل الذى ألم به ، لكى يحتفل بعرسهما . ولما تطاول به المرض أراد أن يحتاط لمستقبلهما فأوصى لهما بجزء من أملاكه ، وبأن يعتقا إذا ما دهمه الموت قبل أن يهيىء لهما أمرهما .

على أن الجنة التى يعيش فيها هذان الحبيبان لم تخل من شيطان يكدر صفوها عليهما ، وينفث فيها سمومه نكاية بهما وسعيا فى إخراجهما منها . فهذا موسى الخليع الفاسد قد زادت غيرته من قطز لما انفرد به دونه من ثقة أبيه حتى سلمه مقاليد خزائنه ، وأسند إليه إدارة أمواله وأملاكه . فكان قطز يوزع صدقاته ونفقاته على أقاربه وذويه ، وينفق على حاجات القصر ومن فيه من الخدم والعبيد ، ولا يخرج دينار ولا درهم إلا من يده . فشق ذلك على موسى ، وغاظه أن يتسلم راتبه اليومى من يد مملوك أبيه . ومما زاده حقدا عليه أنه كثيرا ما يحتاج إلى المال لينفقه في سبيل غيه وفساده ، فيتوسل إلى قطز ليعطيه زيادة على راتبه من غير علم أبيه ، فيأبى قطز ويقول له : « هذا مال سيدى ، وإنما أنا أمين عليه فلا أفرط فيه ، ولكن استأذن أباك فإن أذن لك أعطيتك منه ما تحب ... » فيتوعد قطزا ويتهدده وقطز لا يأبه له .

ولم تسلم جلنار من إيذائه ومضايقته ، إذ كان يغازلها ويتعرض لها بكل سبيل ويسمعها كلمات يندى لها جبينها ويمجها سمعها ، فلما كثر ذلك عليها شكته إلى مولاتها ، فعنفته أمه على فعله ، قائلة له إنها زوجة قطز ولا سبيل له عليها

وهددته بقطع نفقته وطرده من المنزل إذا عاد إلى مضايقتها ، فزاده هذا كراهية لقطز وغيرة منه . وكان قطز يعطف على هذا الشاب الفاسد ويرق لحاله ، ويحتمل كثيرا من أذاه ، ولا يشكوه إلى أبيه لئلا يؤذيه ويزيد في مرضه . وكان كثيرا ما ينصحه بالإقلاع عما هو فيه من الشراب والفساد أو الإقلال منهما ، ويعده بالسعي عند والده ليرضى عنه ويزيد في راتبه ، فما يزيده هذا إلا بغضا لقطز وتعاليا عليه وتماديا في غيه .

واشتدت العلة بالشيخ غانم ، فقلق عليه جميع من في القصر ، إلا ابنه موسى ، فقد فرح بذلك وجهر بأن سيخلو الجو له بموت أبيه ، فيتصرف في أمواله وأملاكه كما يشاء ، وينتقم من قطز ، فيهينه ويضطهده وينتزع جلنار منه ويكرهها على الخضوع لما يريد . وتمادى في الغي حين أيقن بقرب وفاة أبيه ، فصار يشرب في القصر مع ندمائه ، ويقصف معهم ، حتى ضجت منه والدته ذات ليلة فأمرته بالخروج ، فعصاها وأسمعها كلاما قبيحا ، واشتدت عليه فهم بضربها ، لولا أن جاء قطز فدفعه عنها ، وأقفل الباب عليه وعلى أصحابه وهو سكران لا يعي ما يقول ، فطورا يسب أمه ، وطورا يلعن أباه ، وطورا يلعن قطزا ، وبقي كذلك طول ليله ، حتى صرعته وصرعت أصحابه الخمر .

ومات الشيخ غانم المقدسي بعد حياة مديدة قضاها في البر والتقوى والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، والإنفاق على اليتامى والأرامل . فبكاه الناس وأسفوا لفقده وترحموا عليه ، وإذا ذكروا ابنه موسى عز عليهم أن لا يخلف هذا الرجل الصالح إلا ذلك الولد الطالح .

وأما قطز وجلنار فقد رحل عنهما منه والد كريم ، رءوف بهما رحيم ، فبكياه أحر البكاء وواسيا زوجته العجوز بكل ما في وسعهما ، وقاما على خدمتها ، وصبرا في سبيلها على ما يصيبهما من لسان موسى ويده ، إذ تنمر لهما بعد وفاة أبيه ، وجعل يضطهدهما ، ويعتدى على قطز بالسب والضرب ، فما يجيبانه بغير الصبر والسكوت إكراما لمولاهما الراحل ورعاية لمولاتهما الحزنى ، ريثما تنتهي

أيام العزاء فيبرحان القصر إلى حيث يتزوجان ويعيشان آمنين هانئين كما دبر لهما ذلك مولاهما الفقيد .

وما علما أن موسى قد جد فى الكيد لهما واتصل بجماعة من فقهاء السوء فأبطلوا له وصية أبيه بصدد عتقهما والأملاك التى أوصى بها لهما . فما راعهما إلا موسى قد جاء يخبرهما ببطلان الوصية وبقائهما على رقهما ، فعز عليهما أن ينهار بين غمضة عين وانتباهتها ما بنياه من الآمال وأن يعودا لا إلى كنف مولاهما الشيخ الصالح ، إذن لهان عليهما الأمر ، ولكن إلى رق ابنه الفاسق الظالم ليعذبهما ويهينهما ما شاء له حقده وانتقامه ، ولما علمت مولاتهما العجوز بما فعل ابنها غضبت من عمله ، وصبت لعناتها على رأسه ، وطفقت تواسيهما وتقول لهما أنهما سيكونان تحت رعايتها وحمايتها ولن يمسهما موسى بسوء . ووعدتهما بأنها ستجتهد حين تقسم التركة أن تجعلهما من نصيبها فتعتقهما وتزوجهما وتجعل لهما رزقا يعيشان منه .

وعلم موسى بماعزمت عليه أمه ، فأجل قسمة الميراث طمعا فى أن يحول دون ما تريد . وفى خلال ذلك أخذ يراود جلنار عن نفسها ويقول لها : « أصبحت اليوم ملك يمينى ، ولا سبيل لك إلى الامتناع منى » فتهرب من وجهه ، وتلوذ بسيدتها فتحميها منه .. وأحيانا يأتيها ويقول لها متلطفا « سأتخذك زوجة لى ، وستكونين سيدة هذا القصر ، لك فيه الأمر والنهى ، ويكون قطز عبدا لك » فما تجيبه إلا بالسكوت والإعراض .

ولما طال ذلك عليه ويئس من رضاها ، ثار به الغضب ، وأقسم ليفرقن بينها وبين قطز لينتقم منها ومنه ، فذهب إلى وصى أبيه وادعى أن جلنار كانت سبب الفرقة والخصام بينه وبين والدته ، وأنه سيعود إلى بر والدته وطاعتها إذا بيعت هذه الجارية النمامة ، وجعل يلح عليه فى بيعها ، وكان قد أحضر سمسارا معه ليجىء بمبتاع للجارية ، وجعل له على ذلك أجرا ، فما كان من الوصى إلا أن باع الجارية

للسمسار ، وباعها السمسار لرجل من مصر .

فوجئت أم موسى بما كان من بيع جلنار على غير علمها . فبعثت إلى الوصى تعاتبه على ما صنع ، وتلح عليه أن يستقيل البيعة ، ولكنه اعتذر إليها بأن ذلك لم يبق فى إمكانه إلا أن يرضى الرجل المصرى به ، فأمرته أن يعرض عليه زيادة فى ثمنها ويستعيدها منه ، ولكن موسى قد أوعز للرجل المصرى ، فأبى أن يقبل الصفقة ، وأصر على طلب الجارية ، فما وسع الوصى إلا تسليمها إليه . ولما علمت جلنار بأنها ستحمل وشيكا إلى مولاها الجديد ، بكت بكاء شديدا وتشبثت بثياب مولاتها مستغيثة بها أن لا ترضى بتسليمها ، قائلة : « اقتلينى يا سيدتى ولا تسلمينى إلى هؤلاء ! » فضمتها العجوز إليها ، وأجابتها والدموع تنهمر من عينيها : « تعلمين يا جلنار أن ليس لى من الأمر شىء ، وأنك والله لأعز على من ابنتى ، وقد اجتهدت أن أحتفظ بك ، ولكن ماذا أصنع وقد باعوك بغير علمى ؟ لعن الله ابنى فشد ما عذبنى وآذانى . يا ليتنى عقرت فلم أحمل به ، أو ليتنى إذ حملت به أسقطته ! لن يكف عنى هذا الولد العاق حتى يلحقنى بأبيه . حسبى الله منك يا موسى حسبى الله منك ! » .

وكان قطز واقفا ينظر إليهما ويبكى ، حتى إذا رأى موسى قد أقبل ومعه السمسار وجماعته ، كفكف دمعه وكتم جزعه ، وأظهر التجلد مكانه ، ووقف كأنه تمثال من الصخر الأصم . ولما رأتهم جلنار وعلمت أن لا مناص لها من المسير معهم ، أرسلت ثياب مولاتها الوالهة الحسرى . واندفعت إلى حبيبها قطز ففتح لها ذراعيه وتعانقا عناقا طويلا ، تبادلا فيه قبلات الوداع ، وأودعا فيها أحر ما تكنه جوانحهما من لواعج الحب وبرحاء الأسى . وقد اختلطت أنفاسهما وامتزجت دموعهما ، ونسيا ما حولهما وغرقا فى غيبوبة من النشوة والحنين ، ولم يوقظهما منها إلا صوت موسى يصيح بهما فى شدة وقسوة : افترقا يا خائنان ! أرسلها أيها العبد اللئيم ! .

فنظر إليه قطز نظرة انخلع لها قلبه ، ولكنه تماسك وبلع ريقه واستمر يقول : « ماذا ينفعك أن تعانقها الآن ؟ إنك لن تراها بعد اليوم » . فأخذ قطز بيدى حبيبته وحلهما عن عنقه ، وقد تقلص دمعه وهو يقول لها : « أستودعك الله يا حبيبتى ، أستودعك الله يا جلنار ، سيجمع الله شملنا بحوله وقوته » فاستأخرت عنه جلنار وهى تقول : « أستودعك الله يا محمود ، أستودعك الله يا حبيبى » . ومالت إلى مولاتها فأهوت على رأسها تقبله حتى بللته بدموعها ، والعجوز تلثم أطرافها وتبكى ، إلى أن تقدم قطز فجذبها منها وهو يقول : « حسبك يا جلنار ، توكلى على الله ولا تحبسى أصحابك ، وثقى بأن الله موجود ، وهو على جمعنا إذا يشاء قدير » .

فأشار موسى للسمسار قائلا : « امض بها يا هذا ، ولا تدع وقتنا يمضى فى هذا العبث » . فأخذ السمسار بيدها ، فمضت معه وعينها تتلفت مرة إلى سيدتها ومرة إلى حبيبها حتى توارت ، وبقى قطز واقفا مكانه كأنه جماد ينظر إلى سيدته الباكية الحزينة ، وتنظر إليه حتى إذا ما اختفى موسى فى أثر السمسار وجماعته ، غلبت قطزا الرقة ، فدنا منها باكيا ، وجعل يقبل رأسها ويديها قائلا : « أشكرك يا سيدتى الكريمة ، لقد بذلت كل جهدك ولا لوم عليك فيما حدث » .

فقالت له : « أحسن الله إلياك يا بنى ، ستكون عندى بمثابة ابنى ، وإن شئت أعتقتك فمضيت حرا إلى حيث تريد » .

قال لها : « يا مولاتى لا أريد بخدمتك بدلا ، بيد أنى أخاف أن يتحرش بى موسى — وقد نفد صبرى — فأسىء إليه فيغضبك ذلك منى » .

فقالت : « معاذ الله أن أغضب لموسى منك . ولو قتلته لأرحتنى منه » . فأجابها : « ما يكون لى أن أعتدى على ابن مولاى الذى أكرم مثواى وأحسن إلى » .

واستأذن قطز مولاته . فمضى إلى صديقه الحميم الحاج علي الفراش . وكان شيخا صالحا يخدم سريا آخر من سراة دمشق وأعيانها ، يقال له ابن الزعيم ، كان يسكن فى قصر قريب من قصر الشيخ غانم المقدسى ، لا يقل عنه سعة وفخامة . وكان قطز كثير الاختلاف إليه ، يجلس معه على مصطبة كبيرة مظللة بفروع الشجر تقع عند مدخل بستان ابن الزعيم ، فيشكو قطز همومه إليه ويبثه آلامه ويستشيره في شؤونه ، ويتجاذبان أطراف الحديث فى شؤون مختلفة . وكان الحاج علي شديد العطف على قطز والحب له ، وقد أحس فى ضميره ، بما أعطى من قوة الفراسة وصدق الحدس ، أن لا بد لهذا المملوك فى صباحة وجهه ، ونبل خلاله من سر يكتمه عن الناس جميعا . فاجتهد زمنا أن يكتشف هذا السر من صديقه الشاب فلم يوفق ، إلا أن ظنه لم يزدد على الأيام إلا قوة عنده بما كان يؤيده من فلتات لسان صاحبه فى ثنايا حديثه ، فجعل يضم بعضها إلى بعض ، ويستخرج منها صورة غامضة لأصل هذا الغلام .

فلما أقبل عليه حياه ، وفرش له على المصطبة كعادته ، وأخذ يعزيه فى وفاة مولاه ويعدد مناقبه ومكارمه ، فمضى قطز يشكو إليه ما أصابه من اضطهاد موسى بعد وفاة أبيه ، وما منى به من فراق حبيبته جلنار وكيف أنه سئم الحياة بعدها . فجعل الحاج يلاطفه ويسليه . وبينما هما كذلك ، إذ أقبل موسى فدخل الباب وبيده سوط ، فلما دنا منهما نظر إلى قطز نظرة الغضب ، وقال له : « ماذا تصنع هنا يا هذا ؟ أما تذهب لعملك فى القصر ؟ » فلم يجبه قطز وأشاح عنه بوجهه . فاستشاط موسى غضبا وأراد أن يضربه بالسوط فتلقاه قطز بيده وأمسك بطرف السوط فلم يقدر موسى على انتزاعه ، وقال له قطز عند ذاك : « لو شئت لأوجعتك بسوطك هذا ضربا ، فمثلك أيها السكير لا يقدر على مثلى . وما يمنعنى من البطش بك إلا احترامى لذكرى أبيك » .

فلطمه موسى على جبينه فاحمر وجه قطز ، ونظر إليه بعينين متقدتين كأنهما جذوتان من النار ملأتا قلب موسى رعبا ، فانصرف عنه وهو يسبه ويلعن أباه وجده ، وقطز جامد فى مقعده على المصطبة . لا يتحرك ولا ينبس ببنت شفة ، وسوط موسى فى يده ، وعيناه عالقتان بالباب حتى اختفى موسى . فبقى هنيهة واجسا على حاله تلك ، ثم ارتمى على المصطبة ، ساترا وجهه بيديه ، وجعل يبكى بكاء شديدا ، حتى رق له صاحبه ، فطفق يمسح على ظهره ، ويقول له : « خفض عليك يا قطز ، فالأمر أهون من أن يثير دمعك . أتبكى من لطمة خفيفة من يد جبان ضعيف ؟ » .

• فرفع قطز إليه رأسه قائلا وقد تقلص دمعه : « سامحك الله ، أتظن بكائى من تلك اللطمة ؟ إذ بكائى من لعن أبى وجدى ، وهما خير من أبيه وجده » .

« لا يدفعنك الغضب أن تقول ما ليس لك بحق يا قطز ، أنت والله خير منه ألف مرة . أما أبوك وجدك فليسا بخير من أبيه وجده المسلمين ، إذ شرف الإسلام فوق كل شرف » .

« أتظن أبى وجدى كافرين ؟ لا والله إنهما لمسلمان من آباء مسلمين » .

فأظهر الحاج على الفراش استغرابه به كمن يشك فى صدق ما يقول ، فعز على قطز أن يظن به صديقه الكذب فاندفع يقول : « ألم تسمع يا حاج بجلال الدين بن خوارزم شاه ، الذى جاهد التتار ؟ » .

« بلى : ليس فى الدنيا أحد لم يسمع بالسلطان جلال الدين » .

« فأنا ابن جهان خاتون أخت جلال الدين . ووالدى الأمير ممدود ابن عمه . واسمى محمود . وإنما سمانى قطزا اللصوص الذين اختطفونى فباعونى . عاملهم الله بما يستحقون » .

فتهلل وجه الحاج على وقال : « الآن تحققت فراستى وصدق ظنى فيك . والله الذى لا إله إلا هو لقد حدثنى قلبى أول يوم عرفتك فيه أنك لست مملوكا جلب من مجاهل ما وراء النهر . وأنك ترجع إلى أصل كريم . فلما بلوتك

واختلطت معك عرفت أن لك سرا تكتمه عن الناس جميعا ، فحدست أنك ابن ملك أو أمير نكبه الزمان فألقاه فى أيدى باعة الرقيق . فما زلت من يومئذ أجتهد فى معرفة سرك ، وقد سألتك مرارا عن أصلك ، فكنت تقول لى إنك لا تعرف عنه شيئا ، ولكنى رجحت آخر الأمر أنك من أولاد جلال الدين بن خوارزم شاه » .

فنظر إليه قطز مستغربا ، وسأله :

— هل عرفت ذلك قبل أن أخبرك الآن ؟ .

— أى والله قبل أن تخبرنى بزمان طويل .

— شىء لعمر الله عجيب ، كيف عرفت ذلك يا حاج على ؟

— لما رجح عندى أنك من أولاد الملوك أو الأمراء جعلت أقص عليك من أنبائهم ، وأختبر أثر حديثى فى وجهك كلما ذكرت ملكا من الملوك أو أميرا من الأمراء . فكنت إذا ذكرت جلال الدين عندك ووقائعه مع التتار ، ألمح تغييرا فى وجهك ، واختلاجا فى شفتيك ، وقد كررت هذه التجربة فأيقنت أن لك صلة بجلال الدين ورجحت أنك من أولاده .

فتبسم قطز وعجب من ذكاء صاحبه الحاج وفطنته ، وقال له :

« الآن عرفت لماذا كنت مغرى بأخبار الملوك والسلاطين ، تعيدها على مرة بعد مرة » .

وسكت قطز قليلا ثم ما لبث أن عاودته شجونه ، فقال بصوت يخالطه البكاء : « بالله يا صديقى الحاج إلا ما أشرت على ماذا أصنع فى مصابى هذا ، فإنك ما علمت لذو رأى ؛ إنهم أبطلوا وصية مولاى المرحوم بعتقى وعتق حبيبتى جلنار ، ولم يكتفوا بذلك حتى فرقوا بينى وبينها ، فباعوها لرجل من مصر . إى والله ، لقد فرقوا بينى وبين جلنار ابنة خالى جلال الدين ، التى أحبها وتحبنى ، ونشأت معها منذ الصغر ولم أفترق عنها إلا اليوم . قل لى كيف آوى إلى هذا القصر ، وقد فارقه مولاى الشيخ الذى أكرم مثواى وتبنانى ، وخلا من جلنار التى كانت سلواى فى هذه الحياة ، وعزائى فى كل ما أصابنى من نكبات الأيام ؟

كيف أصبر على خدمة ذلك الوغد اللئيم الذى سلبنى حريتى وسعادتى ، وأمعن فى اضطهادى واهانتى ؟ إن هذا القصر أصبح عندى كالجحيم ، لا أطيق رؤيته ، فما بال الإقامة فيه . ما لهؤلاء يستعبدوننى وقد ولدتنى أمى حرا ؟ أليس فى الأرض من عدل ينصفنى من هذا الظلم ؟ مالى أراك صامتا يا حاج على ؟ تكلم ؛ قل لى ما أصنع فى أمرى ؟ » : وهنا غلبه البكاء فعاقه عن المضى فى الكلام .

سكت الحاج على برهة كأنه يفكر فى طريقة لخلاص صديقه ، أو فى جواب يقنعه ويرضيه ، ثم قال له : « ولكن فى القصر سيدتك العجوز ، هى تحبك وتعزك ولن ترضى أبدا أن يمسك من موسى أى سوء » .

فقال له قطز : « نعم إنها تحبنى وتعزنى وتعتبرنى كولدها ، وقد وعدتنى أن تجعلنى حين تقسم التركة من نصيبها فتعتقنى ، ولكنها ضعيفة لا حول لها ولا قوة وقد غلبها ابنها على كل شىء ، ولا تقدر على صده أو منعه مما يريد . إنى أخشى أن أقع فى ملك يمين موسى فينتقم منى ، ويبالغ فى إهانتى وتعذيبى . خلصنى يا حاج على خلصنى ! » .

« الله يخلصك يا بنى .. هون عليك يا قطز فسيجعل الله لك من ضيقك مخرجا » .

« دعنى من كلمات المواساة والتهوين والتعليل ، فإنها لا تنفعنى شيئا ، وفكر لى فى طريقة للخلاص مما أنا فيه من العذاب » .

« لقد فكرت لك فى طريقة للخلاص مما أنت فيه من العذاب ، ولكن عليك أن تصبر يومين أو ثلاثة أيام ريثما أدبر هذه الطريقة » .

« سأصبر لك أكثر من ذلك . فقل لى بالله ما هى ؟ » .

« سأقص على سيدى ابن الزعيم خبرك : فسيشتاق لرؤيتك حين يعرف أنك من أولاد السلطان جلال الدين ، فقد كان مع شيخه ابن عبد السلام كثير الاهتمام بنجدة جلال الدين فى جهاده التتار ، فإذا قابلته فاذكر له طرفا من حال

موسى ابن الشيخ غانم معك واضطهاده لك . وسأعزز قولك عنده ، فأقص عليه ما وقع منه اليوم فى حقك على مرأى منى ومسمع . وما أشك فى أنه سيرثى لحالك ويعطف عليك ، فأشير عليه عندئذ بشرائك منهم ، وما أحسبه يتأخر عن ذلك . واعلم أنك ستسعد فى خدمة سيدى ابن الزعيم ، وسيكون لك مثل المرحوم الشيخ غانم أو خيرا منه » .

« حسبى أن أعيش بجوارك يا صديقى الحاج ، ولكنى أخشى أن لا يرضى موسى ببيعى لسيدك إذا علم أنى سأسعد عنده » .

« لن ندع موسى يعلم بشىء من هذا وسيطلبك سيدى بنفسه من الوصى ، ولن يتردد الوصى فى إجابة طلبه ، فاطمئن ولا تخف شيئا ، فسأدبر لك كل شىء تدبيرا متقنا » .

« بارك الله فيك يا حاج على . لقد فرجت كربى ، فرج الله كربك يوم القيامة » .

وقام قطز عن مقعده من المصطبة قائلا : « دعنى أنصرف فأرجع إلى عملى فى القصر ، لعل مولاتى تحتاجنى فقد أبطأت عليها فى الرجوع ، وغدا أراك إن شاء الله » .

الفصل الثامن

لم تمض ثلاثة أيام على ما سبق ، حتى أتم الحاج على الفراش الخطة التي دبرها لخلاص صديقه ، فنجحت على خير وجه ، وانتقل قطز إلى ملك السيد ابن الزعيم ، فسلا ما كان فيه من البلاء بموسى ومضايقاته . وانطوت صفحة من حياته ، شيعها بدموعه وحسراته ، فقد كانت على علاتها من أجمل أيام عمره وأسعدها ، إذ أشرق فيها الحب على قلبه فملأه نورا ، وأتى على ما في زواياه من ظلمات الهم والحزن واليأس ، فبدده وأبدله به مسرة وجذلا ، وغبطة وأملا . كان يعيش فيها مع جلنار في دعة وسلام ، مشمولين برعاية مولاهما الرحيم وزوجته البارة ، وقد ذاقا فيها من لذة الأمن وطمأنينة الاستقرار ما لم يذوقاه منذ أيام طفولتهما ، فقد عاشا ما عاشا قبل ذلك في جو مضطرب ، يسوده القلق والفزع ، وتهدده الحروب والغارات ، وتراوحه وتغاديه الفجائع والنكبات ، حتى استقر بهما المقام في كنف الشيخ غانم ، فلقيا من عطفه وبره ما أنساهما مرارة اليتم ، وذل الرق ، وألم التغرب والتشرد ، ونعما بعيشة راضية آمنة مطمئنة ، وكان أكبر نعمة تمت عليهما عنده ، نعمة الحب .

وما ينس قطز من الأشياء ، فليس بناس يوما عاد فيه مع مولاه من سفر إلى نابلس ، فلما دخل القصر ، وسلم على مولاته لم ير جلنار عندها ، وكان بالأشواق إليها ، فالتمسها في غرفتها ، فوجدها كأنها خرجت قريبا من الحمام ، وهي تمشط شعرها الذهبي اللامع المسترسل على كتفيها ، وأمامها المرآة تنظر فيها . فما أن رأت خياله في المرآة ، حتى ابتسمت ابتسامة خفيفة كأنها الوهم ، ولكنها لم تلتفت إليه وظلت متشاغلة بتمشيط شعرها . وكان حين ولج

الغرفة يدب على أطراف قدميه ليفاجئها من خلفها بقدومه فيعانقها كعادته معها من قبل ، فلما رأى خياله فى المرآة وأدرك أنها رأته أيضا ، فلم تنهض من مقعدها له ، ولم تلتفت إليه ، ولم يبد منها إلا تلك الابتسامة الخفيفة كأنها الوهم ، عجب من أمرها ووقف هنيهة صامتا كأنه يحاول معرفة السر فى هذا التبدل العجيب . ثم ناداها بصوت ليس كعادته من الطلاقة والمرح ، قائلا : « جلنار ، هأنذا قد قدمت من نابلس » . وما كان أشد دهشه إذ رآها تلتفت إليه فى مقعدها بكل وقار وهدوء ، وسمعها تقول بصوت كأنه ينبعث من مصدر علوى آخر ، غير شفتيها الساكنتين الحالمتين ، « الحمد لله على السلامة » ، ونظر إلى عينيها الناعستين ، فرأى فيهما معانى غريبة لم يقرأها فيهما قط من قبل ، كأنها تدعوه إليها وتدفعه عنها ، وتأنس به وتستوحش منه ، وتثق به وترتاب فيه ، وتخضع له وتتعالى عليه . ثم ما لبثت أن أدارت وجهها إلى المرآة ، واستأنفت ما كانت فيه من إصلاح شعرها كأن شيئا لم يكن ، فوقف خلفها متحيرا لا يدرى ما يقول وما يفعل ، وأحس بما يحس به الداخل بلا استئذان فى بيت لا حق له فيه . ولم يكن هذا شأنه معها قبلا ، فقد كان يعد غرفتها كغرفته ، كما كانت تعد غرفته بمثابة غرفتها ، لا حرج بينهما فى ذلك ، فما هذا الطارىء الغريب الذى أقام بينهما حائلا لا تراه العين ، ولكنه أشد فى الحجز بينهما فى سميك الجدران ؟ وشعر حينئذ بمزيج من الخجل والرهبة والخوف من أن يراه أحد فى ذلك الموقف وهو على هذا الحال . وتوقع فى كل لحظة أن يدخل عليهما داخل من أهل القصر فيلومه على موقفه المريب . ونظر إلى الجالسة أمامه فلم ير جلنار الصغيرة ابنة خاله جلال الدين التى نشأ وإياها طفلين يلعبان فى ربوع لاهور ، وينتقلان فى مختلف الممالك راكبين على جواديهما الصغيرين حتى اختطفهما اللصوص وكان من أمرهما ما كان ، بل رأى مكانها امرأة تامة التكوين ، ناضجة الأنوثة ، لا صلة بينه وبينها من قرابة أو عشرة ، وتنقل طرفه من جيدها الطويل كأنه إبريق من الفضة إلى كتفيها المدمجتين وظهرها الرخص

المسحوب من جوانبه كلما نزل ، حتى ينتهي إلى خصرها الضامر ، ولمح بياض ساقيها ولطف قدميها ، فامتلأ قلبه رهبة لم يطق معها الوقوف . فانسحب إلى جهة الباب وخرج منه فى رفق كما دخل .

ذلك يوم الفصل فى حياة هذين الأميرين المملوكين ، ينتهى به عهد ويبتدىء به عهد . ولم يزل قطز يذكر ذلك اليوم غضا جديدا واضح القسمات بعد كرور الأيام عليه ، كأنه أمس القريب .

لم يكد قطز يسكن إلى كنف مولاه الجديد ، ويستريح قلبه من عنت موسى واضطهاده حتى تذكر فراق جلنار ، فذهبت نفسه حسرات فى أثر حبيبته الذاهبة ، وشفه الوجد والحنين حتى اصفر وجهه ونحل جسمه وتقرحت مقلتاه من طول السهر والبكاء . كأنما كان مشغولا عن ألم فراقها بما كان يكابده من المحنة بموسى ؛ فلما سلا هذه المحنة وتنفس الصعداء فى قصر سيده الجديد ، فرغ لمحنته الكبرى بفراق حبيبته جلنار . وكذلك قد تنزل بالمرء مصيبتان فيضيق بصغراهما وتشغله عن كبراهما حتى يظن أنه قد سلاها ، فما هى إلا أن تنقشع الصغرى ، فإذا الكبرى تعود من جديد فتطبق على قلبه .

رق السيد ابن الزعيم لحال مملوكه الأمير الخوارزمى ، فبالغ فى تكرمته والبر به ، واجتهد أن يصرفه عن لوعته وحزنه ، فكان يدنيه منه ويقول له : « كفاك يا بنى حزنا على حبيبتك الحسناء جلنار ، فإن شئت زوجتك جارية مثلها أو أجمل منها » .

فيجيبه قطز فى أدب جم : « لا يا مولاى ، لا رغبة لى فى الزواج من غيرها ، وإن تكن أجمل منها . إنها ابنة خالى ، نشأنا معا ولم نفترق منذ ولدنا » . فيقول له سيده : « إنك لعلى حق يا قطز ، إذ ليس فى وسعنا أن نزوجك أميرة مثل ابنة جلال الدين ، ولكنى أنصحك أن تجتهد فى سلوانها إشفاقا على نفسك ،

وإبقاء على صحتك وشبابك ، واصبر لعل الله يجمع شملكما من حيث لا تحتسبان » .

وأوصى ابن الزعيم خادمه الحاج على الفراش ، بأن لا يألو جهدا فى العناية بقطز وتسلية همه . ولم يكن الحاج على بحاجة إلى وصية سيده بصديقه الحميم ، فلم يدع وسيلة من الوسائل لتسليته وتعزيته إلا استعملها . وكان الحاج على لبق الحديث ، حسن التصرف ، خبيرا بأدواء القلوب ، طبا بعلاجها ، فما زال بصديقه الحزين ، يقبضه ويبسطه ، ويسليه ويعلله ، ويضرب له الأمثال فى ذلك ، ويتنزه به فى ضواحى المدينة ورياض الغوطة ، ويرود به زحمة الأسواق ، ويغشى به مجالس العلم فى المسجد حتى استطاع أن يكسر سورة الحزن فى قلبه ، ووكل الباقى إلى الأيام لتقضى عليه .

وأخذت المملوك الشاب عقب ذلك جذبة الهية ، فتعلق قلبه بالعبادة والتقوى ، فكان يصلى الفروض لأوقاتها ، ويحافظ على النوافل ، وأكثر من تلاوة القرآن ، وتردد على مجالس العلم فى جامع المدينة ، ولا سيما دروس الشيخ ابن عبد السلام ، فقد أغرم بها فكان لا يفوته درس . ولم يتصد للقراءة عليه ، أو على غيره من العلماء ، بل كان يكتفى بالحضور والاستماع ، وكان سيده ابن الزعيم يشجعه على ذلك ، ويثنى عليه ، وما كلفه قط عملا يحول بينه وبين حضور هذه المجالس .

كان السيد ابن الزعيم من كبار أنصار الشيخ ابن عبد السلام ، ومن خواص أصحابه ، وكان قوى الاعتقاد فيه ، يحسن إليه ، ويقضى حوائجه ويناصره فى دعوته بنفسه وماله . وكثيرا ما تعرض فى سبيله لغضب أولى الأمر ، وجور أصحاب النفوذ . وكان الشيخ يحبه لاستقامته ، وإخلاصه وغيرته على الدين ، وحبه للإصلاح ، ويقبل عطاياه على عفته الشديدة ، وزهده فيما بأيدى الناس . ولا يقبل عطايا غيره من الأغنياء . وكان ابن الزعيم يتعصب له ، ويجمع حوله

الأنصار ، ويستميل إليه القلوب ، وينفق على ذلك من حر ماله . والفضل فى كثير من النفوذ الذى يتمتع به الشيخ ابن عبد السلام يرجع إلى همة ابن الزعيم وسعيه .

والسيد ابن الزعيم مثل صالح للغنى الشاكر نعمة الله عليه ، لم ينس حق الله فى ماله ، فكان ينفق منه على الفقراء والمساكين وذوى الحاجة من الأرامل واليتامى ، وكان يرى أن لدينه ووطنه حقوقا عليه ، لا تبرأ ذمته حتى يؤديها . فلم يكن من حدث يحدث فى الدين إلا غضب له وسعى لإنكاره وإزالته ، وما ألمت بوطنه نكبة إلا سعى فى تخفيفها . ولا هدده خطر إلا انتدب لدفعه عنه . وكم من غنى فى دمشق لا هم لهم إلا ملء بطونهم وإشباع شهواتهم . وقد وجد فى الشيخ ابن عبد السلام مثلا صالحا للعالم العامل بعلمه ، الناصح لدينه ووطنه ، الذى يرى حقا أن العلماء ورثة الأنبياء فى هداية الناس إلى الخير ، ودفعهم عن سبل الشر ، الآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر ، لا يخاف فى الله لومة لائم . لا يتجر بدينه ولا يريد الدنيا بعلمه ، ولا يساوم فى مصالح أمته ووطنه ، ولا يشترى بآيات الله ثمنا قليلا من حطام الدنيا ومتاع العاجلة . فأحبه ابن الزعيم وأخلص له وناصره بجاهه ، وأيده بماله ، وتعاون معه على البر والتقوى ، وكم من عالم فى عصره لا هم لهم إلا جمع الحطام ، وتضليل العوام ، ومداهنة الحكام ، ومسالمة الأيام ..

وجاء الشيخ يوما إلى دار ابن الزعيم يزوره . فأكرمه واحتفل به ، فلما استقر بهما المجلس دخل قطز عليهما بشراب الورد ليقدمه للشيخ ، فلما رآه الشيخ التفت إلى مضيفه وقال له : « من هذا الشاب ؟ أحسبنى رأيته غير مرة فى حلقة الدرس » . فأجابه ابن الزعيم : « هذا مملوك كان لجارى الشيخ غانم رحمه الله اشتريته قريبا ، وهو يحبك يا سيدى ويحضر دروسك ويستمع إليك » .

قال الشيخ وهو يتفرس فى وجه قطز : « إنه ما علمت لشاب صالح » .

فقال ابن الزعيم : « أجل إنه صالح ومن أصل كريم » .

وكان الشيخ قد فرغ من شرابه عند ذاك ، فرد الكأس إلى ساقيه ، فانصرف وقد خجل من ثناء الشيخ عليه . ومضى ابن الزعيم يحدث ضيفه الكريم بخبر مملوكه . وأنه من بيت السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه . وأن اللصوص اختطفوه وابنة السلطان وهما صغيران فباعوهمافى سوق حلب ، وأن الشيخ غانم المقدسي اشتراهما فرباهما إلى آخر قصتهما .

فعجب الشيخ من هذا الحديث . وتلا قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير » . وسكت هنيهة ثم قال : « مسكين جلال الدين ، خذله ملوك المسلمين وكان يجاهد التتار دونهم حتى قضوا عليه . غفر الله له ما أساء إلى المسلمين فى بلاد خلاط . لو لم يرتكب هذه الزلة لكان من المجاهدين الأبرار » .

فقال ابن الزعيم : « إنى ما اشتريته إلا لأعتقه ، ولولا حبى له وخشيتى أن يفارقنى فتضيق به سبل الحياة لأعتقته من قبل » .

فقال الشيخ : « شكر الله لك يا بن الزعيم جميل صنعك فيه . إن جلال الدين لحرى أن تحفظه فى ولده ... ألا تدعوه فأراه قبل أن أنصرف ؟ » .

فقام ابن الزعيم وعاد بقطز معه ، وقدمه للشيخ فتلقاه بالبشر ، وطيب خاطره ، وأقعده قريبا منه ، وقال له : « إن جلال الدين كان حبيبا إلى نفوسنا ، إذ كان يجاهد التتار ، ويدافعهم عن بلاد الإسلام ، وأنت ابن أخته ولك عندنا منزلة وحرمة . وقد أحسن الله إليك إذ أفضى بك إلى كنف هذا السيد ، وهو من الصالحين

المجاهدين ، لا غضاضة على مسلم فى خدمة مثله ، وسيعتقك ويحسن إليك ... » .

فقبَّل قطز يد الشيخ ، وقال بصوت يخالطه البكاء لما تأثر به من كلامه : « أنا مملوك سيدى ابن الزعيم وعبد إحسانه ، لا أحب أن يعتقنى ، ولا أريد أن يحرمنى شرف خدمته » .

فقال ابن الزعيم : « بل أنت ولدى يا قطز ، ونحن جميعا خدام الدين وخدام الشيخ ابن عبد السلام » .

كذلك عرف الشيخ ابن عبد السلام قطزا ، فصار يدنيه من مجلسه إذا حضر لاستماع الدرس ، ويلتفت إليه ، ويسأله عن سيده ابن الزعيم ويحمله تحيته ، وأحيانا يبعثه برسالة إليه ، وسرعان ما وثق به سيده والشيخ ، لما رأيا فيه من رجاحة العقل ، وحصافة الرأى ، وكمال الرجولة ، والاضطلاع بمهام الأمور ، فائتمناه على أسرارهما ، فكان أحدهما يقول له ما يشاء من الكلام ليبلغه للآخر فيما لا يأتمنان أحدا غيره عليه ، من أمور تتصل بحركتهما السياسية أو الإصلاحية لا فى دمشق وحدها بل فى سائر بلاد الشام وغيرها من البلاد الإسلامية . فعرف قطز فى هذه المدة القصيرة التى قضاها فى خدمة ابن الزعيم كثيرا من أحوال العالم الإسلامى إذ ذاك ، وأحوال ملوكه وأمرائه والحزازات التى بينهم والمنافسات على الملك ، وموقف كل منهم من معاداة الصليبيين أو موالاتهم ، وأدرك السياسة التى كان الشيخ وأنصاره ينتهجونها ، والمرمى الذى يرمون إليه من توحيد بلاد الإسلام وتكوين جبهة قوية من ملوك الإسلام وأمرائه لطرد الصليبيين من البلاد التى يحتلونها فى الشام ، ولصد غارات التتار التى تهددهم من الشرق .

وقد اقتضت هذه السياسة أن تخص بالمناصرة والتأييد أقوى ملوك المسلمين وأصلحهم للاضطلاع بهذه المهمة الكبرى ممن لا يميلون إلى موالاة الصليبيين أو مصانعتهم ، وأن تسعى للقضاء على من يواليهم أو يخضع لنفوذهم من الملوك والأمراء . فكان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر على رأس الفريق

الأول ، وكان على رأس الفريق الثانى عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق ، وكان العداء بين هذين مستحكما ، والتنافس بينهما شديدا على الملك ، فلا غرو أن يوالوا ملك مصر ويدعوا له ، ويعادوا ملك دمشق ويعتبروه خائنا للإسلام .

وكان الشيخ ابن عبد السلام يراسل الملك الصالح أيوب ، ويحرضه على تطهير بلاد الشام من الصليبيين أسوة بجده المجاهد العظيم السلطان صلاح الدين ، ويعده بمناصرة عامة أهل الشام ،فيتلقى ردودا منه يعده فيها بالقيام بذلك عندما تسنح الفرصة وتتم الأهبة . وقد علم الصالح إسماعيل بحركة ابن عبد السلام فأراد القبض عليه ، ولكنه خشى أنصاره أن يثوروا له فيؤلبوا العامة عليه ، فأجَّل ذلك إلى حين .

وقوى عزم الصالح أيوب على المسير إلى الشام ، فاشتد خوف الصالح إسماعيل ، وعزم على غزو مصر قبل أن يغزو ملكها بلاده ، فبعث إلى أميرى حمص وحلب يطلب منهما النجدات ، وكاتب الفرنج واتفق معهم على مساعدته والمسير معه لمحاربة سلطان مصر وأعطاهم فى سبيل ذلك قلعتى صفد والشقيف وبلادهما ، وصيدا وطبرية وأعمالها ، وسائر بلاد الساحل ، وما اكتفى بذلك حتى أذن لهؤلاء الأعداء في دخول دمشق ، وشراء الأسلحة وآلات الحرب من أهلها .

وأدرك الشيخ ابن عبد السلام الخطر الذى يتهدد بلاد الإسلام من هذا الخطب الفادح ، فكتب رسالة قوية إلى الصالح أيوب يحثه فيها على التعجيل بالجهاد ، ويتوعده فيها بغضب الله ونقمته وعذابه إذا تهاون فى المسير حتى يتم ما أراده أعداء الإسلام به ، مؤكدا له أن تبعة ذلك ستكون على رقبته إذا قصر فيما أوجبه الله عليه ، وأنذره بضياع ملكه وخسارة دنياه وآخرته : وأخذ الشيخ يكثر الاجتماع بأنصاره ومريديه يحمسهم ويأمرهم بالاستعداد للقيام بواجبهم من

الجهاد فى سبيل الوطن ، وكان يفعل كل هذا فى السر ، حتى إذا كان يوم الجمعة وامتلأ الجامع الكبير بالناس ، دخل الشيخ ابن عبد السلام من الباب الخاص بالخطيب فرقى المنبر فتطلعت إليه العيون واشرأبت إليه الأعناق ، وساد الحاضرين صمت عميق كأنما على رءوسهم الطير ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على نبيه عليه الصلاة والسلام ، ثم ذكر الجهاد وفضائله وكيف كان النبى وأصحابه يجاهدون المشركين حتى علت كلمة الله وبلغت دعوة الإسلام إلى المشرق والمغرب وأورث الله المسلمين البلاد ، وجعلهم خلفاء الأرض ما قاموا بالدين واستقاموا على طريقته ، فلما غيروا ما بأنفسهم غير الله عليهم فسلط الأعداء على بلادهم ينتقصون أطرافها ، ويستأثرون بخيراتها ، ويسومون أهلها الخسف والهوان ، ويذيقونهم ألوان العذاب . ابتلاء من الله لهم ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حيى عن بينة ، وأن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، ولم يصلح أولها إلا بالجهاد فى سبيل الله . ثم ذكر ما أوجب الله على المسلمين من طاعة أولى الأمر منهم ، ليستقيم به أمر معاشهم ومعادهم ، وما أوجب على أولى الأمر من النصح للإسلام وأهله ، والقيام بحماية بلادهم وسد ثغورهم حتى يأمنوا على دينهم وأعراضهم وأنفسهم وأموالهم . فأيما سلطان أو ملك أو أمير فرط فى حفظ بلاد المسلمين ، وعرَّضها للوقوع فى أيدى الكافرين ، فقد أبرأ ذمة الله والمسلمين منه ، وخلع بيده طاعتهم له ، وظلم نفسه ، وعلى المسلمين أن ينصروه ظالما كما ينصرونه لو كان مظلوما . ونصر الظالم دفعه عن ظلمه ، والحيلولة بينه وبين ما أراد من تضييع بلادهم ، وكسر شوكتهم ، وتحكيم الأعداء فى رقابهم ، وتمكين هؤلاء من القضاء على ما فى قلوبهم من عزة الدين ونخوة الإسلام .

ثم تلا قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون » . وبين ما فرض الله على

المسلمين من إعداد الأسلحة وآلات القتال ورباط الخيل ، واتخاذ الأساطيل فى البحر ، وسائر وسائل القوة ، ليكونوا شهداء على الناس ، ويحققوا مصداق قوله تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . ثم خلص من هذا فذكر تحريم بيع السلاح للعدو تحريما باتا لا رخصة فيه ولا استثناء .

وندد بعلماء السوء الذين يفتون الناس بالباطل ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، ويجبنون عن الجهر بكلمة الحق ، ويخافون الملوك ولا يخافون ملك الملوك ، وقال : « أيما مسلم باع عدوا سلاحا أو أعان على بيعه لهم فقد خان الله ورسوله وخان المسلمين » ، وتلا قوله تعالى : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » رددها ثلاثا ثم قعد .

ولما أخذ فى الخطبة الثانية جعل يدعو الله أن يعز الإسلام وأهله ، وأن ينصر من فى بقائه صلاح المسلمين . وكان يدعو فى آخر خطبته للصالح إسماعيل ، فقطع الدعاء له فى هذه الخطبة واكتفى بالدعاء لمن يعلى كلمة الإسلام وينصر دين الله .

وفرغ الشيخ من خطبته ، وأقيمت الصلاة ، والناس لا يصدقون أنهم سمعوا ما سمعوه من الشيخ فى خطبته ، لشدة ما حمل على الصالح إسماعيل ، وندَّد بفعلته فى كلمات واضحة صريحة ، لا غموض فيها ولا إبهام ، ولولا سماعهم صوت الشيخ فى الصلاة وهو يقرأ الفاتحة بصوت ثابت ، لا أثر فيه من اختلاف أو اضطراب ، كأنه لم يقل شيئا جللا على المنبر ، لظنوا أن رأسه قد طار عن جسده ، والله يعلم وحده ما كان يجول فى نفوس أولئك المصلِّين ، ويضطرب فى قلوبهم من الخواطر ، بعد أن سمعوا تلك الخطبة العظيمة الهائلة ، تدوى كالرعد القاصف فى أرجاء المسجد الكبير .

وانصرف الناس من الجامع ، ولا حديث لهم إلا خطبة الشيخ ابن عبد السلام يفخر من سمعها على من لم يسمعها ، ويود من لم يسمعها لو أنه خسر شطرا من

عمره وسمعها ، واتفق السامعون على الإعجاب بها ، واختلفوا فى وجه الإعجاب ، فمن معجب ببلاغة الشيخ ، ومن معجب بقوة حجته ، ومن معجب باطراد بيانه وتسلسله ، ومن معجب بشجاعته ورباطة جأشه .

واتفق الناس فى الإشفاق على مصيره ، ولكنهم اختلفوا فى تقدير ما يناله من عقوبة الصالح إسماعيل ؛ فمن قاطع أنه سيقتله ، ومن ذاهب إلى أنه سيحبسه ، ومن مرجح أنه سينفيه ويصادر أملاكه ، وآخر يرى أنه يعزله عن الخطابة ، ويشتت شمل أنصاره ؛ على أنهم جميعا آسفون لأنهم لن يسمعوه يخطب على منبر جامعهم بعد ذلك اليوم .

وكان الصالح إسماعيل غائبا عن دمشق يومذاك ، فكتب إليه بما كان من الشيخ ، فورد كتابه بعزله من الخطابة والقبض عليه وحبسه حتى يرجع إلى دمشق فيرى فيه رأيه . وكان أنصار الشيخ قد أشاروا عليه بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من يد الصالح إسماعيل ، وأعدوا له وسائل الهرب ، ولكنه أبى ذلك ، وألحوا عليه فأصر على الإباء ، فعرضوا عليه أن يختبىء فى مكان أمين لا يهتدى إليه الصالح إسماعيل ورجاله ، فرفض هذا الاقتراح أيضا وقال : « والله لا أهرب ولا أختبئ وإنما نحن فى بداية الجهاد ، ولم نعمل شيئا بعد ، وقد وطنت نفسى على احتمال ما ألقى فى هذا السبيل ، والله لا يضيع عمل الصابرين » .

وقبض على الشيخ ابن عبد السلام ، وسجن . فشق ذلك على الناس ، وثار أنصاره فطالبوا بالإفراج عنه ، وإذ لم يجابوا إلى طلبهم عمدوا إلى ما أوصاهم به شيخهم حين قال لهم : « غيِّروا بأيديكم ما لم أقدر على تغْيِيره بلسانى ، وادفعوا هذا المنكر من بيع السلاح إلى الأعداء الكافرين ، ابطشوا بمن يغشى منهم سوقكم للابتياع واحتسبوا عند الله أجركم » فكان لا يمر يوم دون أن يقتل بضعة رجال من الفرنج الذين يدخلون دمشق لابتياع الأسلحة بأيدى جماعة من أنصار ابن عبد السلام ، حتى سرى ذلك فى العامة فاجترأوا على اغتيال الفرنج جهرة فى وضح النهار ، فضج الفرنج من ذلك فكتبوا إلى الصالح إسماعيل يشكون

إليه أمرهم ، ويتهمونه بالكيد لأحلافه ، وفرضوا عليه ديات المقتولين فى بلاده ، فكان لا يقتل منهم أحد إلا ألزم الصالح بديته ، فكثر ذلك عليه ، وخشى من حلفائه أن ينقضوا ميثاقهم معه ، ويخلوا بينه وبين عدوه ملك مصر . وقد حاول قمع الثورة فلم يفلح ، فما وسعه إلا أن يأمر بالإفراج عن الشيخ ابن عبد السلام . ولكن الصالح إسماعيل ألزم ابن عبد السلام بملازمة داره ، وبأن لا يفتى ، ولا يجتمع بأحد ألبتة . فشق على أنصاره أن يحال بينهم وبينه للاسترشاد بآرائه فيما يجب عليهم عمله ، وفكروا فى حيلة للاتصال به ، فإذا السيد ابن الزعيم قد أمر مملوكه قطزا أن يتعلم الحلاقة ، وإذا قطز قد حذقها وتشبَّه بالحلاقين فى زيه وحركته ، ففرحوا بهذا الحل الطريف ، وبعثوا قطز فذهب إلى الشيخ فى داره ، فلم يشك أحد من مراقبيه فى أنه حلاق قد جاء ليزين الشيخ ، فلما دخل عليه لم يعرف الشيخ أنه قطز إلا من صوته فسر به ، فبلغه قطز أخبار سيده ابن الزعيم وغيره من أنصاره وما أصاب بعضهم من عقوبة الملك الصالح إسماعيل ، وأنهم كفوا عن اغتيال الفرنج بعد الإفراج عنه حتى يأتيهم أمره . فقال له : « مرهم بالمضى فى ذلك ، ولا يمنعهم الخوف علىّ من القيام بما فرض الله عليهم من دفع الباطل » .

وكذلك تردد الحلاق قطز على الشيخ فوصل بينه وبين أنصاره ، يطلعهم على خططهم وأعمالهم وسائر ما يهمه من أخبار البلاد ، ويبلغهم أوامره وإرشاداته فيقومون بتنفيذها ، ولا يبالون بما يصيبهم فى ذلك من قتل أوحبس أو تعذيب . وكانا ربما انتهيا من حديثهما فى السياسة فتبسط الشيخ إلى حلاقه ، وتشقق بينهما الحديث فى شؤون شتى من هزل الحياة وجدها . وقد يستطرد الحديث إلى ذكر السلطان جلال الدين ، وما يعلم الشيخ من أخباره وأخبار أبيه خوارزم شاه ، وقد يستمع الشيخ إلى قطز وهو يحدثه عن بلاد الهند وخراسان ، وسائر البلاد التى رآها ، وما شهد من وقائع خاله مع التتار . وقد قص فيما قص عليه حديث المنجم الذى تنبأ له بأنه سيصير ملكا عظيما ، ويملك بلادا عظيمة ،

ويهزم التتار هزيمة فاصلة . وسأل الشيخ عن رأيه فى أقوال المنجمين ، فقال له : « إنها تخرصات تخطىء وتصيب ، وقد نهى الشرع عن التنجيم لأنه تسوُّر على الغيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله » . فلحظ الشيخ تغيرا فى وجه قطز كمن خاب أمله فى شىء عظيم ، فاستدرك قائلا : « هذا قضاء الشرع يا بنى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، وأنه لا يتم إيمان المرء حتى يسلم كل التسليم بما قضى الشرع ، ولا يجد فى نفسه حرجا منه ، وما أريد أن أقطع أملك يا قطز ، وقد قلت لك إنها تخرصات تخطىء وتصيب ، وما يدريك لعلها تصيب فيك ، فطب نفسا يا بنى » .

فقال له قطز : « إنما هى يا مولاى الشيخ علالة كانت فى النفس ، وقد آمنت بالشرع وسلّمت بما قضى » ، فباركه الشيخ ودعا له بالكرامة والخير .

*****

وجاءه قطز يوما آخر متهلل الوجه ، طيب النفس ، عليه أثر الاغتسال ، والطيب ينفح من رأسه وثيابه ، فسأله الشيخ ملاطفا :

« ما هذا يا قطز هل تزوجت البارحة ؟ » .

فتبسم الشاب وقال : « لا يا مولاى الشيخ ، لقد أقسمت ألا أتزوج إلا بابنة خالى جلنار ، ولكنى رأيت النبى ﷺ البارحة فى المنام ، فأخبرت سيدى فأمرنى بالاغتسال والتطيب فجئت كما ترى » .

فقال الشيخ : « خيرا صنعت وبخير أشار عليك سيدك ، فحدثنى عن رؤياك ؟ » .

فخفق قلب الشاب وسرت فى جسده رعدة كأنه يتهيب أن يقص رؤياه على الشيخ العظيم ، ولكنه رأى طلاقة وجه الشيخ وإقباله عليه فشجعه ذلك على الحديث فقال : « أرقت البارحة ونابنى ضيق شديد ، فقمت فتوضأت ، وصليت النفل وأوترت ، ودعوت الله ، ثم عدت إلى فراشى فغلبتنى عيناى ، ورأيت كأنى ضللت طريقى فى برية

قفراء، فجلست على صخرة أبكى ، وبينا أنا كذلك إذا بكوكبة من الفرسان قد أقبلت ، يتقدمها رجل أبيض جميل الوجه ، على رأسه جمة تضرب فى أذنيه ، فلما رآنى أشار لأصحابه ، فوقفوا وترجل عن فرسه ، ودنا منى فأنهضنى بقوة ، وضرب على صدرى ، وقال لى : « قم يا محمود فخذ هذا الطريق إلى مصر فستملكها وتهزم التتار » .

فعجبت من معرفته اسمى ، وأردت أن أسأله من هو ؟ فما أمهلنى أن ركب جواده فانطلق به فصحت بأعلى صوتى : « من أنت ؟ » .

فالتفت أحد أصحابه وهم منطلقون فى أثره : « ويلك هذا محمد رسول الله ﷺ » وانتبهت من نومى وأنا أحس برد أنامله فى صدرى ، فما ملكت نفسى من الفرح أن انطلقت إلى سيدى فوجدته يتوضأ ، فلم أصبر حتى يفرغ من وضوئه ، فخرجت إلى الحاج على الفراش فوجدته على فراشه ، فأيقظته وقلت له : « رأيت رؤيا عظيمة ، رأيت النبى ﷺ » ، فهب من فراشه وأقبل علىَّ فرحا يريد أن أقصها عليه ، فقلت له : « لا أقصها إلا على سيدى أولا » ، فقال لى : « أتبعك إليه فأسمعها معه » ، فانطلق معى فوجدنا السيد حين خرج من المغتسل ؛ فلما رآنا تعجب من إقبالنا معا ، فقال له الحاج على : « إنه رأى النبى ﷺ يا سيدى ، ويريد أن يقصها عليك » ، فابتسم سيدى وأقبل علىَّ فحدثته بما رأيت فى منامى ، ففرح وبشَّرنى وأمرنى بالاغتسال فاغتسلت وطيَّبنى بيده من طيبه وقال لى : « إذا ذهبت إلى مولانا الشيخ فاقصص رؤياك عليه وانظر ماذا يقول فى تعبيرها » .

*****

فسكت الشيخ هنيهة متعجبا من الرؤيا ، ثم قال : « ما زلت تفكر فى الملك وهزم التتار يا قطز حتى أتاك النبى ﷺ فبشرك بهما . إنها رؤيا عظيمة كما ذكرت ، فإن تكن صدقا فستملك مصر حقا وتهزم التتار ؛ فإن النبى ﷺ يقول : (من رآنى فقد رآنى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بى) .

فجعل الشاب يقبل رأس الشيخ ويلثم يده ظهرا لبطن ، وهو يقول :

« بشَّرك الله يا سيدى » .

فقال له الشيخ ممازحا :

« ما بشارتى إذا تحققت رؤياك وصرت ملكا على مصر ؟ » .

*****

فسكت قطز قليلا وهو يبتسم كأنه يعد فى نفسه جوابا للشيخ ، ثم قال ، وقد لمعت عيناه :

« لو كنت يا سيدى الشيخ تحب الدنيا لسقت إليك بدر الذهب والفضة ، ولكنى سأرجع إلى رأيك فى كل شؤون ملكى ، فأقيم الشرع ، وأنشر العدل ، وأحيى ما أمات الناس من سنة الجهاد ، فهذه بشارتك عندى » .

ففرح الشيخ من حسن جوابه ، واستنار وجهه كأنه القمر ، وقال :

« إنك لصادق القول وصالح العمل يا قطز ، وإنك لجدير بأن تكون ملك المسلمين » .

ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال :

« اللهم حقق رؤيا عبدك قطز كما حققتها من قبل لعبدك ورسولك يوسف الصديق عليه وعلى آبائه السلام .. » .

ولم يكد الشيخ يؤمِّن على دعائه حتى رأى البكاء فى عينى قطز ، فظنه أول الأمر يبكى من الفرح ، ولكنه لم يلبث أن استخرط فى البكاء ورآه يزفر بشدة تكاد تشق صدره وتقصم أضلاعه ، فدنا الشيخ منه وسأله عما يبكيه ، فأجابه الشاب بصوت يخالطه النشيج :

« لقد علمت يا مولاى الشيخ أن الله سيستجيب دعاءك لى ، فذكرت حبيبتى جلنار ، وعزَّ علىَّ أن لا أراها أبدا ، فوددت لو دعوت الله لى أيضا أن ألقاها فأتزوج بها » .

فرقَّ له الشيخ ، وسنحت على ثغره بسمة خفيفة ، ولم يقل شيئا . بل عاد فرفع يديه إلى السماء وقال :

« اللهم إن فى صدر هذا العبد الصالح مضغة تهفو إلى إلفها فى غير معصية لك ، فأتمم عليه نعمتك ، واجمع شمله بأمتك التى يحبها على سنة نبيك محمد ﷺ » .

وما أتم الشيخ دعوته حتى جف دمع الشاب وسكن لاعج قلبه ، وطفق يتمتم :

« الحمد لله ، سألقاها .. سأتزوجها » .

فقال الشيخ :

« إن شاء الله » .

الفصل التاسع

كان أنصار الشيخ ابن عبد السلام قد صدعوا بأمره من المضى فيما فرضه الله عليهم من دفع الباطل . فدأبوا على اغتيال من يقدرون عليه من الفرنج كلما دخل وفد منهم دمشق لشراء الأسلحة ، حتى ضاق صدر الصالح إسماعيل بهم . فكلما قبض على جماعة منهم ظهرت جماعة أخرى . فلما أعياه أمرهم بعث إلى الشيخ من يهددونه بالقتل إذا لم يكف أذى جماعته . فأعرض الشيخ عمن جاؤوه ولم يزد فى جوابه لهم على أن قال :« قولوا لمن بعثكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟» وخشى الصالح إسماعيل من عاقبة قتله فرأى أن يطرده من بلاده ليكفى شره . فنفاه . وقبض على ابن الزعيم ففرض عليه غرامة كبيرة وصادر بعض أملاكه ثم أطلقه لقوة شيعته . وقبض على سواه ممن صح لديه انتماؤه إلى الشيخ ابن عبد السلام ، فسجن بعضهم ونفى بعضا وصادر أموال بعض .

وكان يوم خروج الشيخ بأهله من دمشق يوما مشهودا . شيعه أهلها بالبكاء والنحيب . فسار يقصد مصر فعرج على الكرك . فأقام بها أياما عند صاحبها الملك الناصر داود ، استطاع فى خلالها أن يقنعه بتأييده فى الخطة التى يسعى لتحقيقها .

ولما قدم الشيخ ابن عبد السلام إلى مصر أكرمه الملك الصالح أيوب ، وولاه خطابة جامع عمرو ، وقلده قضاء مصر والوجه القبلى ، فوجد الشيخ مجالا كبيرا للعمل . وأخذ يحث الصالح أيوب عن كثب على التعجيل بقتال الصالح إسماعيل وأحلافه الصليبيين .

وبلغ الصالح إسماعيل اتفاق الناصر داود مع صاحب مصر بسعى ابن عبد السلام ، فندم على أن نفاه من بلاده ولم يكن قتله أو أبقاه

فى سجنه . وكان قد طابت نفسه واستراح باله بعد رحيل الشيخ ابن عبد السلام وتبدد شمل أنصاره فاستقرت له الأحوال بدمشق ، وظن أن الثورة التى أشعلها الشيخ ابن عبد السلام فى قلوب المؤمنين من أهلها قد انطفأت ولم يبق إلا رمادها . وما علم أن جذوتها باقية تحت الرماد تنتظر ريحا تكشف عنها فإذا هى حمراء ملتهبة . على أن اطمئنانه لم يدم طويلا إذ سرعان ما عصف به ما بلغه من اتفاق صاحب الكرك مع عدوه صاحب مصر .

أما السيد ابن الزعيم فكان قد حزن لرحيل صديقه وشيخه ابن عبد السلام عن دمشق . ولولا اشتباك مصالحه بها وارتباطه بعشيرته العديدين فيها للحق به فى مصر ، على أنه تعزى بما أصابه الشيخ فى طريقه إلى مصر من النجاح فى التوفيق بين صاحبها وبين الناصر داود ، وبما لقيه من الحفاوة والتكرمة عند الصالح أيوب ، وخفف من ألمه أيضا أن فى بقائه بدمشق ما يمكنه من القيام بعمل من الأعمال يعود بالخير على الفكرة التى تعاون مع الشيخ فى الجهاد فى سبيلها .

ولم يكن قطز بأقل حزنا من سيده لفراق الشيخ . وكان أشد أسفه على تلك الأيام السعيدة التى تردد فيها على الشيخ فى معتقله حين كان يقوم بالوساطة بينه وبين أنصاره متنكرا فى زى الحلاق ، فقد نعم فيها بخلوات جميلة معه أفاض عليه فيها من نفحاته وأسراره ، وأقبسه من أنواره ، ونفث فيه من روحه ، وأفاده من واسع علمه ما ملأه حكمة ويقينا ، وبصيرة فى الدين ، ومعرفة بالحياة ، وغراما بالجهاد فى سبيل الله .

ولو لم ينل من الشيخ إلا الدعوتين العظيمتين اللتين دعا بهما له : « اللهم حقق رؤيا عبدك قطز كما حققتها من قبل لعبدك ورسولك يوسف الصديق عليه وعلى آبائه السلام »، والثانية الأحب إلى نفسه : « اللهم إن فى صدر هذا العبد الصالح مضغة تهفو إلى إلفها فى غير معصية لك ، فأتمم عليه نعمتك ، واجمع شمله بأمتك التى يحبها على سنة نبيك محمد ﷺ » لكفتاه . وكان قطز يحفظهما عن ظهر قلب ويعتز بهما ، وكثيرا ما كان يدعو بهما فى أثناء صلاته أو بعدها ،

إلا أنه كان يحذف من الدعوة الثانية كلمة « الصالح ». وكان لا يخالجه شك فى أن الله استجابهما من الشيخ . وكلما تذكر منظره حين دعا بهما وتوجهه إلى ربه وإخلاصه الدعاء ، ازداد يقينا بقبولهما وإيمانا ، فقد شعر عندما انطلقتا من فم الشيخ بأنهما اخترقتا حجب السماوات السبع وتردد صداهما فى جنبات العرش .

فلا غرو أن تبدل حال قطز منذ دعا له الشيخ ، فأضحى شديد الثقة بنفسه مبتهج الخاطر فى يومه ، قوى الرجاء فيما يدخره له الله فى غده من شرف الملك وسعادة الحب . وأى شرف فى الدنيا أعظم من ملك مصر ؟ وأى سؤدد أكبر عند الله وأحب إلى نفسه من هزم التتار ؟ ثم أى سعادة فى الحياة أحلى فى قلبه من لقاء حبيبته جلنار ؟.

وقد تعلم من الشيخ أن النعمة لا تدوم إلا بالشكر ، فإذا كان هذا حال النعمة الراهنة التى فى قبضة اليد ، فما ظنك بالنعمة المنتظرة التى هى بعد فى ضمير الغد . فليشكر نعمة الله التى يتقلب فيها ليزيده النعمة التى ينتظرها ويرجوها ، وأساس الشكر التقوى ، وملاك التقوى الجهاد فى سبيل الله . جهاد النفس بكفها عن الآثام وردعها عن الشهوات . وجهاد العدو بدفعه عن بلاد الإسلام .

وها أن ميدان الجهاد قد انبسط أمامه . فهذا ملك دمشق خان الله ورسوله إذ اشترى حلف الكفار ليقاتل بهم المسلمين ، ونقدهم ثمنه من بلاد المسلمين ، وكلاهما إثم عند الله كبير . وقد أخذ يجمع الجموع ، ويكتب الكتائب من الكفرة والفجرة ، ليغير بهم على بلاد مطهرة . فما قعوده عن الجهاد ؟ وما عذره يوم التناد ، يوم تقوم الأشهاد ؟.

دخل قطز على سيده يريد أن يأخذ رأيه فيما عزم عليه ، فقال له : « يا سيدى ياأعز الناس على ، إنك فى غنى عن خدمتى ، وما اشتريتنى ولا استبقيتنى إلا

لمنفعتي ، وقد رأيتك لا يعرض لك أمران في أحدهما مصلحتك ، وفي الآخر مصلحة المسلمين ، إلا آثرت ما فيه مصلحة المسلمين على ما فيه مصلحتك ، فلو أذنت لي فخرجت أقاتل في سبيل الله مع جيش مصر لرجوت أن أبلي بلاء حسنا ، فإني أجيد الطعان والضراب ، وأحسن الركوب والرماية ، وقد نشأني خالي — رحمه الله — على الفروسية منذ صباي ».

فقال ابن الزعيم وقد اهتز طربا لما رأى من حماسة مملوكه للجهاد : « مرحى يا قطز ، مرحى يا سليل خوارزم شاه ! هذا والله دم الجهاد يثور في عروقك ، وما يكون لي أن أخمده . ولكني أرى أن تقوم بما هو أنفع للمؤمنين وأنكى على العدو من لحاقك بمصر لتزيد عدد جيشها رجلا واحدا . وقد علمنا رسول الله ﷺ أن الحرب خدعة ، فإذا صح عزمك على بيع نفسك لله ابتغاء لمثوبته ، وخدمة لدينه ، فأصغ لما أقوله واتبع ما أرشدك للقيام به : اخرج في غمار جيوش الصالح إسماعيل كأنك واحد منهم ، حتى إذا تصاف الفريقان ، فصح بأعلى صوتك في الفريق الذي أنت فيه بأن جيش الملك الصالح أيوب إنما يقاتل الصليبيين الكفار ، وأن جيش الصالح إسماعيل إنما خرج مع الكفار لقتال المسلمين ، ثم أهب بالمسلمين من جيش الصالح إسماعيل أن ينحازوا لإخوانهم ليقاتلوا جميعا أعداءهم الكفار . وتقدم فانحز أنت وجماعتك الذين سأبعثهم معك من إخواننا المخلصين ، فسينحاز الباقون معكم ، وتدور الدائرة على هذا الملك الخائن وأحلافه الفرنج إن شاء الله ».

فقال قطز ، وقد اقتنع بسداد رأى مولاه :
« رأيك الرأى يا مولاى ، أنا عبدك سأصدع بأمرك » .

قال له سيده :

« إنما أنت ابني وسأفخر بك ما حييت ، ولكن حذار يا بني أن يتسرب منك هذا السر إلى أحد ، فإن للصالح إسماعيل عيونا وجواسيس في كل مكان » .

فقال قطز : « اطمئن يا سيدى فلن أخبر به أحدا » . وأراد ابن الزعيم أن يضرب لمملوكه مثلا فى كتم السر ، فسأله : « ما رأيك فى صديقك الحاج على الفراش ، أكتوم للسر هو وأمين عليه ؟ » .

فأجابه غير مدرك ما رمى إليه السيد بسؤاله : « أجل يا مولاى إنه لكتوم أمين » .

فبدره السيد قائلا : « فاكتم هذا السر عنه أيضا ، واعلم أن عدوك لا يفشى سرك وإنما يفشيه الصديق ، أفهمت مرادى يا قطز ؟ » .

فقال قطز : « نعم يا سيدى فهمت ، ولك علىَّ عهد الله أن يقطع لسانى ولا أبوح بهذا السر لأحد ولا للحاج على الفراش » .

وتكاملت جيوش الملك الصالح إسماعيل ، ووردت عليه عساكر حمص وحلب ، وجاءته كتب حلفائه الفرنج بأنهم على أهبة للمسير لنجدته ، فخرج بعساكره من دمشق ، وسار حتى نزل بنهر العوجاء ، فبلغه أن الناصر داود قد سبقه إلى البلقاء ليقطع عليه الطريق حتى يأتيه الجيش المصرى الذى كان فى طريقه إلى الشام ، فسار إليه الصالح إسماعيل وحمل عليه بعساكره ، فلم يثبت لهم جيش الناصر لقلة عددهم ، وانهزم الناصر إلى الكرك ، واستولى الصالح على أثقاله ، وأسر جماعة من أصحابه ، وعاد إلى العوجاء وقد قوى ساعده واشتدت شوكته . وكان قطز وجماعته مندسين فى غمار الجيش لا يعلم بأمرهم أحد ، ولم يصنعوا شيئا ، ينتظرون قدوم الجيش المصرى وخروج الفرنج للقائه .

وسار الصالح إسماعيل حتى وصل إلى (تل العجول) حيث توافدت عليه جيوش حلفائه الفرنج من مختلف بلاد الساحل فانضموا إليه . وأقاموا جميعا متربصين قدوم الجيش المصرى ليناجزوه القتال .

وأقبلت طلائع الجيش المصرى . فندب الصالح جيوشه للقتال ووضع جيش الصليبيين على ميمنته ، وعساكر حمص وحلب على ميسرته ، وجيش دمشق

فى القلب وكان هو عليه ، ولما تواجه الجمعان لم يشك الصالح إسماعيل وحلفاؤه الفرنج أن النصر سيكون لهم لما رأوا من قلة الجيش المصرى . ورأى رجال الجيش المصرى أنفسهم أنهم قد أضاعوا الفرصة إذ جاءوا بعد انهزام الناصر داود ، فضعف رجاؤهم فى النصر ، واضطروا إلى الثبات ليشاغلوا عدوهم ريثما تأتيهم الأمداد من بلادهم . والتحم القتال ، وكاد المصريون أن ينهزموا ، وإذا بصوت يرتفع من صفوف الشاميين بين القلب والميسرة : « يا أهل الشام حى على النصر ، حى على الشرف ! » .

فما شك عساكر الشام أنه يحرضهم على قتال المصريين ، فتحمسوا له ، وإذا بالصوت يرتفع ثانيا : « يا أهل الشام : اتقوا الله فى نفوسكم لا تعرضوها لغضب الله . إن أهل مصر إنما جاءوا ليقاتلوا أعداءكم الصليبيين ، وأنتم تقاتلون إخوانكم المسلمين ، يا أهل الشام : توبوا إلى الله ، انحازوا إلى إخوانكم المسلمين فقاتلوا جميعا أعداء الله وأعداء الشام ومصر ، قاتلوا الصليبيين ! » .

ولم يكد قطز يتم كلمته حتى مرق من صفوف الشاميين وتبعته جماعته إلى صفوف المصريين ، فما لبث الشاميون أن تسللوا من صفوفهم فى القلب والميسرة وانحازوا إلى المصريين ، حتى لم يبق مع الصالح إسماعيل إلا شراذم قليلة من حثالة جيشه .

وقد ظن المصريون أول الأمر أنها خدعة يراد بها تطويقهم ، فتقهقروا قليلا ريثما يتبينون حقيقة الأمر ، ولكن قطزا أدرك ما ساور المصريين من الشك فتدارك الموقف إذ دفع جواده إلى ميسرتهم تلقاء الصليبيين ، وأشار للشاميين فتبعوه ، فأخذ يقاتل بهم الفرنج ، فعندئذ تحقق المصريون أن الأمر ليس بخدعة ، فجمعوا صفوفهم وتقدموا إلى القتال جنبا إلى جنب مع إخوانهم الشاميين ، فأوقعوا بالفرنج وقتلوا عددا كبيرا ، وانهزم جيش الصالح إسماعيل ومن بقى حيا من رجاله فلحقوا بدمشق .

وعاد المصريون إلى بلادهم منتصرين وساقوا أسرى الفرنج معهم ، وتفرق إخوانهم الشاميون : فمنهم من سار معهم إلى مصر ، ومنهم من لحق بغزة التابعة لمصر ، ومنهم من لحق بالكرك عند الناصر داود .

أما قطز ، فقد التمسه المصريون عقب انتهاء المعركة ليحتفلوا به ، ويعرفوا له ما صنع ، كما فعلوا بغيره من إخوانهم الشاميين ، ولكنهم لم يجدوه . فظنوا أنه قتل في المعركة ، فبحثوا عنه في القتلى فلم يقفوا له على أثر . وقد سألوا الشاميين عنه ، فلم يعرفه منهم أحد . حتى النفر الذين انحازوا معه في البداية قالوا لا نعرفه ، وقد صدقوا في هذا لأن السيد ابن الزعيم لما ندبهم للخروج قال لهم : « إنكم ستسمعون رجلا من أنصارنا المخلصين يصرخ داعيا للانحياز ، فإذا انحاز ، فاتبعوه » . ولم يسم لهم ذلك الرجل .

فاختلفت آراء القوم فيه ، وتردد القول بينهم بأنه روح من أرواح المجاهدين الأولين قد ظهر للناس ليوحد كلمة المسلمين ، ورجح بعضهم أنه روح صلاح الدين الأيوبي ، ولم يجزم بأنه رجل من الأحياء — وإن كانوا يجهلون اسمه — لا روح من الأرواح إلا أولئك النفر الذين بعثهم ابن الزعيم لينحازوا معه ، ولكنهم كتموا اتفاقهم مع ابن الزعيم عن الناس جميعا ، لئلا يصل خبره إلى الصالح إسماعيل فيبطش بصاحبهم ، فتركوا القوم يهيمون ما شاءوا في أودية الظنون .

ولم يعلم حتى هؤلاء النفر أين ذهب قائدهم المجهول إذ انسل من بينهم خفية حينما رأى انهزام الصليبيين وفرار الناصر ورجاله ، فعطف جواده ودفعه مشرقا فانطلق به كالسهم لا يلوى على شيء إلى أن ابتعد عن الميدان فمضى يطوى الأرض طيا حتى وصل إلى الكرك . فقصد قصر الملك الناصر داود فبشره بانهزام الصالح إسماعيل وأحلافه الفرنج ، فأكرمه الناصر وخلع عليه وهو لا يعلم عنه شيئا إلا أنه أحد الشاميين الذين انحازوا إلى المصريين قد بعثوه بشيرا بالنصر .

ولما انصرف من عند الناصر وخرج على جواده من باب المدينة تردد

حينا أي صوب يتوجه فقد اشتد به الشوق إلى مصر وعظم حبها فى قلبه وأحس أنها وطنه المختار دون سائر بلاد الأرض ، وقوى ميله إلى التعجيل بالسفر إليها لولا أنه تذكر سيده ابن الزعيم بدمشق فعز عليه أن يتوجه إلى مصر بغير إذنه ، وشعر أنه إن فعل ذلك كان كالعبد الآبق من سيده ، وهو وإن كان يعلم حب سيده له ، وإيثاره مصلحته على مصلحة نفسه ، إلا أنه لا يرى من الصواب أن يبت فى مثل هذا الأمر الخطير قبل أن يستأذنه ، ويحصل على موافقته ، وما لبث أن لوى عنان جواده متوجها تلقاء دمشق .

فرح السيد ابن الزعيم برجوع مملوكه سالما إليه ، وأثنى على كفايته فى تأدية المهمة التى كلفه القيام بها ، فشكره قطز قائلا : إن الفضل فى ذلك يرجع إلى سيده لما أحسن من تربيته ، وغرس فيه من حب العمل الصالح . ثم عرض عليه ميله إلى الرحيل إلى مصر ، ليلتحق فيها بخدمة الملك الصالح أيوب ، لعله يستطيع أن يقوم فيها بعمل يرضى الله ويخدم به الإسلام تحت إرشاد شيخه ابن عبد السلام . فقال له سيده : إنه لا يسعه إلا أن يأذن له بذلك وإن كان فراقه عزيزا عليه ، وعرض عليه أن يكتب له بعتقه ، فرجاه قطز أن لا يفعل ، وتوسل إليه أن يبعث معه من يبيعه لسلطان مصر ، فينتظم بذلك فى سلك مماليكه . فلم يصعب على ابن الزعيم فهم مراده ، إذ كان يعلم ما يجول فى خاطر مملوكه الشاب ، وما يحلم به من الصعود إلى المناصب العالية فى مصر ، وهو يذكر رؤياه العظيمة ، وما أوحت إليه من الطموح إلى الملك ، ليحقق به أمله فى الحكم الصالح ، ولا ينسى دعوة الشيخ ابن عبد السلام له بأن يحقق الله أمله هذا العظيم ، وأمنيته فى لقاء حبيبته المالكة عليه لبه ، ولا يستبعد ابن الزعيم نفسه أن يبلغ هذا الشاب القوى الأمين ، ما يطمح إليه ، لما عرف فيه من الخلال التى تؤهله لما يريد .

وما هى إلا أيام حتى تجهز قطز للمسير فودعه سيده بدموعه الحارة ،

وتعانقا عناقا طويلا ، بث كلاهما فيه ما يكنه للآخر ، واشتجرت فيه عواطف الحب والحنو بعواطف الولاء وعرفان الجميل .

وسير ابن الزعيم معه خادمه الأمين ، الحاج على الفراش ، ليرافقه فى الطريق ، وليبيعه فى مصر للملك الصالح أيوب ، ولا يبيعه لأحد غيره ، وأوصاه أن يقدم ثمنه لصديقه الشيخ عز الدين ابن عبد السلام يتصرف فيه كما يشاء .

وقبل أن يغادر الرفيقان درب القصاعين بدمشق ، التفت قطز فألقى نظرة على قصر سيده ابن الزعيم ، ثم ألقى نظرة أخرى على قصر مناوح له قد خيم عليه السكون ، وسادت فيه الوحشة ، وكانت له فى كل شرفة من شرفاته ذكرى مع حبيبته جلنار . ولما خرجا من باب المدينة ، وجازا رياض الغوطة الغناء ، جعل قطز يقول : « ما أقصاك عنا يا دمشق ، وما أدناك منا يا مصر ! » .

الفصل العاشر

كان قطز قد بيع للملك الصالح أيوب كما أراد ، غير أنه لم يلبث عنده إلا قليلا حتى وهبه الملك الصالح لعز الدين أيبك الصالحى أحد أمراء مماليكه الأثراء عنده ، فاغتم قطز أول الأمر وحسب ذلك من سوء طالعه أن يوهب لمملوك مثله ، ولكنه ما لبث أن لقى من ثقة هذا الأمير واعتماده عليه واصطفائه له — فوق ما رأى من نفوذه العظيم عند مولاه الملك — ما أعاد الاطمئنان إليه فأحبه وأخلص له .

وما اصطفاه عز الدين أيبك إلا بعد أن بلا من شجاعته وأمانته وصدقه ما جعله جديرا بثقته واصطفائه . فقد كان الأمير أيبك — كغيره من أمراء مماليك الصالح — معنيا باصطناع الرجال والأمناء واصطفاء الأتباع المخلصين وشراء ودهم وولائهم ، ليتقوى بهم على منافسيه فى السلطة ومنازعيه الحظوة لدى مولاهم ، وكانوا فى ذلك يحذون حذو أستاذهم الملك الصالح أيوب ، فكما استكثر من المماليك ، وأربى فى ذلك على كل من سلف من ملوك أهله ، حتى بنى لهم القصور فى جزيرة الروضة ، وأغدق عليهم النعم وآثرهم على من سواهم بالمناصب والرتب ، ليتقوى بعصبيتهم له على من ينازعه الملك من إخوانه وأبناء عمومته من الأمراء الأيوبيين ، كذلك فعل أمراء مماليكه نسجا على منواله ؛ فأخذ أحدهم يستكثر من المماليك ويصطنع الأتباع والأشياع ليشتد بهم ساعده ، ويكونوا له قوة على من سواه من الأمراء ، وقد اصطلحوا على تسمية المماليك التابعين لمالك واحد — أو أستاذ واحد على اصطلاح ذلك العصر — خشداشية ، كل منهم خشداش أخيه أى زميله أو قرينه . وتقوم هذه الصلة بينهم مقام القرابة ولحمة النسب ، إذ لا قرابة بينهم ولا نسب ، فقد جلبوا من أمم شتى وأصقاع مختلفة .

وكان قطز من أول ما وطىء أرض مصر موكل القلب بالبحث عن حبيبته جلنار . وقد فكر كثيرا فى الطريقة التى يتمكن بها من الاهتداء إليها . فظل زمنا يتصفح وجوه الناس لعله يجد بينهم شخصا من معارف سيده القديم الشيخ غانم المقدسى ممن قد رآه ورآها عنده فيسأله هل رأى جلنار أو سمع بها فى مصر ؟ ولكنه لم يلق أحدا منهم ثم خطر بباله أن يغشى سوق الرقيق بالقاهرة لعله يجد أحدا من النخاسين يعرف عنها خبرا . فجعل يتسلل من مولاه ويتردد على سوق الرقيق ويسأل كل قادم من تجاره عن جارية تدعى جلنار فلا يعرفها له أحد .

وبينما هو واقف فى السوق ذات يوم إذ مر به شيخ قد اشتعل رأسه شيبا غير أنه لم يزل به فضل من القوة والنشاط ، ومعه عدد من الغلمان والعبيد يريد بيعهم ، فراعه أن الشيخ وقف عن مشيه لما رآه ، وأخذ ينظر إليه ويتفرس فى وجهه ، ثم اقترب منه فدعاه باسمه ، فعجب قطز وبقى حائرا ينظر إليه ، فقال له الشيخ : « أنسيتنى يا قطز ؟ » فقال له قطز : « لا أذكر أنى عرفتك فمن أنت ؟ » فتأوه الشيخ قائلا : « أجل إنك ما عدت تعرفنى لأن الأيام قد غيرت معالم وجهى . أما تذكر جبل الأكراد وسوق الرقيق بحلب ؟ » وما أتم الشيخ كلمته حتى تذكر قطز النخاس الذى اشتراه من اللصوص فى جبل الأكراد وباعه فى حلب ، فتبين له أنه هو عينه ، فصافحه قطز بحرارة وشوق ، وجعلا يتحدثان عما فعلت الأيام بهما منذ افترقا فى حلب . وسأله النخاس فيما سأله أين هو الآن وفى خدمة مَن مِن الأمراء أو الملوك ؟ فأجابه قطز بأنه فى خدمة الأمير عز الدين أيبك الصالحى فسأله عن حاله عند أستاذه ؟ فأخبره بأنه سعيد عنده ومقرب إليه ، ففرح النخاس وقال فى لهجة المفتخر : « إن يدى مباركة على مماليكى ، فما بعت منهم أحدا إلا صار له بعد ذلك شأن عظيم » . وجعل يعدد طائفة من الأمراء والمماليك ويقول إنهم كانوا تحت يده فأصبحوا اليوم من أركان الدولة ، ثم قال له : « أتذكر رفيقك القبقاحى الأشقر بيبرس ، ذلك الغلام الشقى الأباق ؟ » .

فخفق قلب قطز لما تذكر ذلك الغلام الأزرق العينين الذى بيع معه في سوق النخاسة بحلب ، فقال لسائله : « بيبرس .. بيبرس .. نعم أذكره ، أين هو الآن ؟ » .

فابتسم التاجر وقال : « ألم تلقه ؟ ألم تعرفه ؟ إنه اليوم خشداش لأستاذك تحت إمرته خمسون فارسا » .

فسكت قطز وسرح فكره قليلا ، فظن التاجر أنه غار من رفيقه فمضى يقول : « إنه سبقك يا قطز أليس كذلك ؟ ولكن لا تبتئس فستكون مثله وخيرا منه » . فقال قطز : « كلا ، ليس بى ما ذكرت ، ولكنى لم أر هذا الشخص فى خشداشية أستاذى » .

« لعلك رأيته فما عرفته ، لقد أصبح اليوم شابا كبيرا طويل القامة ، ولكن سل أستاذك عنه ، سله عن ركن الدين بيبرس البندقدارى يدلك عليه » ثم حياه مودعا معتذرا بشغله وقال له : « إذا شئت أن ترانى فسل عنى موسى بن شاكر العطار فى سوق العطارين » ، وأراد الانصراف ، فاستوقفه قطز قائلا : « معذرة ، إنك حدثتنى عن رفيقى بيبرس ولم تحدثنى عن رفيقتى جلنار ، أما تعرف أين هى ؟ » .

فقال له التاجر : « من أين لى أن أعرفها ؟ إنى قد أعرف الغلمان الذين بعتهم ، أما الجوارى فتحجبهن عنى القصور ! ألم تكن معك عند الوجيه الدمشقى ؟ » .

« بلى ؛ ولكنهم باعوها بعد وفاته لرجل فى مصر » .

« إن مصر كبيرة يا بنى ، وليس من اليسير عليك أن تهتدى إليها » .

فلم يشأ قطز أن يستوقف الرجل أطول مما فعل ، فودعه وانصرف .

ولما رجع قطز إلى دار أستاذه سأله عن ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فقال له

أستاذه : « دعك منه فإنه من جماعة فارس الدين أقطاى الجمدار » . وكان قطز يعلم ما بين عز الدين أيبك وفارس الدين أقطاى من عداوة وتنافس ، فلم يشأ أن يحفى على مولاه السؤال عن بيبرس ، وصرف الحديث عنه .

ثم ظل بعد ذلك يبحث عن بيبرس البندقدارى حتى دل عليه ، فوجده يوما جالسا مع جماعة من كبار المماليك الصالحية المتشيعين لأقطاى الجمدار، فانتظره حتى خرج من عندهم ، فلقيه قطز مبتسما مادا إليه يده ليصافحه ، فأنكره بيبرس وقال له بلهجة خشنة : « من أنت يا هذا ؟ أنا لا أعرفك » .

فقال له قطز : « أنا رفيقك يا بيبرس ، أنا قطز » .

« ما أعرف لى رفيقا اسمه قطز ، اذهب يا هذا لعله شُبِّه عليك » .

« أنسيت ذلك الغلام الذى كان معك فى دار النخاس بحلب ، والذى كان يطعمك من حلواه ، ويشركك فى أدامه ؟ » .

فصاح بيبرس : « قطز ! أنت قطز ! » ومال على رفيقه فاعتنقا ثم قال له بيبرس : « وأين أختك تلك الصغيرة التى كانت معنا ؟ » .

« جلنار !؟ » .

« أجل جلنار ... أين هى ؟ » .

فتنهد قطز وقال : « إنها ليست بأختى ولكنها قريبتى ، وقد كانت معى بدمشق ثم بيعت لرجل من مصر » ، وهنا لم يملك دموعه أن استعبر .

فعجب بيبرس من أمره وقال له : « ماذا يا قطز .. أتحبها ؟ » فأجابه قطز : « نعم .. إنى أحبها .. إنى أحب جلنار ، أما رأيتها هنا أو سمعت بها قط يا بيبرس ؟ » .

فرقَّ له بيبرس وقال له : « إنى لم أسمع باسم جلنار هنا ، ولو رأيتها لما عرفتها ، فلا بد أنها قد أصبحت شابة كبيرة » ، وسكت هنيهة ثم نظر إلى رفيقه

ضاحكا ، وجعل يضرب على منكبه ويقول له : « هوّن عليك يا قطز ، فسترى أن الجوارى الجميلات هنا لا يحصيهن عدد » .

قال له قطز : « إنى لا أحب غير جلنار ، ولا أريد أن أعرف أحدا سواها » .

فأجابه بيبرس ، وهو على حاله ذلك من الضحك والاستهتار : « دعك من هذا ، طيب خاطرك يا صديقى ، فسأعرِّفك بعشرات من الجوارى الحسان تختار منهن من تحب . فقل لى أين أنت ؟ فإنى أحب أن أراك وأجلس معك فأقول لك أشياء كثيرة وأسمع منك أشياء كثيرة » .

فقال له قطز : « إنى فى خدمة أستاذى الأمير عز الدين أيبك » .

فنضبت البشاشة التى كانت على وجه بيبرس ، وأدرك قطز سبب ذلك وأراد أن يقول لصاحبه شيئا ، ولكن بيبرس سبقه قائلا :

« ما يضرنا أن يكون أستاذك عدوا لصديقى فارس الدين أقطاى ، فإنا صديقان قبل أن نعرفهما . ولولا أنى أطمع فى رتبة أنالها من وراء هذا الأحمق المتكبر لتركته . والله يا قطز إنى لست دونه فى شىء ، ولكنه سبقنى فى الخدمة بسنوات » .

وهكذا توطدت الصداقة بين هذين المملوكين الشابين على ما بينهما من تفاوت فى الرتبة وتباين فى المزاج والأخلاق . فكانا يخرجان للصيد معا ، ويسمران فى كثير من الليالى ، ولا يفترقان إلا على موعد .

وأصبح عز الدين أيبك لثقته بتابعه قطز يبعثه برسائله ووصاياه الخاصة إلى السلطان ، فصار قطز يتردد على قلعة الجبل يذهب برسالة ويعود برسالة ، حتى أصبح معروفا عند رجال القصر السلطانى وحرسه ، موثوقا به مأمونا جانبه . فكان ينطلق كما يشاء فى دهاليز القصر وممراته دون أن يصحبه حارس أو رقيب ، وذات يوم بينما كان عائدا من القصر ، مارا بالدهليز الذى تطل عليه مقصورة

الملكة شجر الدر ، حظية السلطان وزوجته . إذ بوردة تسقط قدامه في الدهليز ، فوقف هنيهة ينظر إليها ، وهم بالتقاطها ، ولكنه خشي من ذلك فتركها ومضى في سبيله ، وعاد يوما آخر فلما بلغ ذلك الموضع عند منصرفه من القصر ، سقطت أمامه وردة ثانية كأختها الأولى ، فعجب من أمرها وتحقق أنه مقصود بها وأنها لم تقع أمامه اتفاقا . فنازعته نفسه أن يرفع طرفه إلى المقصورة ليرى الشخص الذى ألقاها ، ولكنه تهيب ذلك لما سمع عن الملك الصالح أيوب من شدة الغيرة على نسائه وجواريه ، وما يدريه أن لا تكون هذه تجربة أريد بها ابتلاء أمانته واستقامته ، وأن لا يكون الشخص الذى ألقاها هو السلطان نفسه واقفا مع زوجته شجر الدر ، فسرت فى مفاصله رعدة شديدة عندما خطر له هذا الخاطر فطرد من نفسه حتى الهم بالتقاطها ، وخشى حتى النظر إليها ، فمضى منطلقا فى طريقه .

وبقى قطز أياما وليالى يفكر فى أمر الوردة ويذهب فى تفسيرها كل مذهب . وود أن يخبر أحد أصدقائه أو خشداشيته بما شهد من هذا الأمر العجيب ، ولكنه خاف أن يكون فى ذلك إفشاء لسر من أسرار القصر ، فعدل عنه وعزم على الاحتفاظ بهذا السر حتى ينكشف له من تلقاء نفسه . وظل ينتظر اليوم الذى يبعث فيه إلى القصر بفارغ الصبر . حتى جاء اليوم المنتظر ، فذهب بقلب خافق يتنازعه الخوف والقلق والتطلع ، وتلعب به الهواجس المختلفة فتضطرب به بين الإقدام والإحجام . فلما وقعت الوردة أمامه فى هذه المرة الثالثة ، اشتد خفوق قلبه ، واضطرب جسمه اضطرابا عظيما ، وعراه ذهول أفقده التماسك ولم يستطع اتقاءه إلا بإبعاد ذلك الشيء الذى سبب له ما هو فيه . فخلص من ذلك الدهليز مندفعا فى طريقه غير شاعر بأنه التقط الوردة ورماها فى جيب قميصه ليخفيها عن عينيه الزائغتين . وهبط من درج القلعة الكبير ملتاث الخطى ، يريد أن يقع على وجهه لولا حافظ من الاندفاع السريع عادل بين حركاته وستر ما بينها .

من التفاوت والاختلاف ، والعرق يتفصد من جبينه ويسيل بين ثيابه فلو رآه أحد لأنكره .

ولما خلا بنفسه فى غرفته ، وأدار قميصه ليمسح عن صدره العرق ، وجد الوردة فى جيبه ، فعجب كيف لم يتذكر أنه التقطها . ونظر فيها مليا ، كأنه يستنطقها سرها ، وإذ خطر له أنها ربما ألقتها جارية عابثة من جوارى القصر تريد أن تغازله وتفتنه ، رماها من يده كأنها شىء يشمئز منه . وإنه لكذلك إذ جال بخاطره أن الفاعل ربما يكون حبيبته جلنار ، قد ساقتها الأقدار فجعلتها من جوارى القصر ، فهب من ضجعته واستوى جالسا على جانب سريره . وجعل يحدق فى الزهرة الملقاة على الأرض ، فخيل إليه أنها تبتسم له ابتسامة حزينة ، تشبه تلك الابتسامة الخالدة فى قلبه — ابتسامة جلنار يوم قدم إليها من نابلس ، وعجب من نفسه كيف لم يخطر بباله هذا الظن من قبل ، على طول تفكيره فيها ، وملازمة خيالها له ، وعلى كثرة ما هام فى شوارع القاهرة ودروبها ، وجاس خلال قصورها ودورها ، راميا بصره نحو شبابيكها وكواها ، طمعا فى أن يلمحها ويعثر على مقرها من نلك المدينة العظيمة ، حتى كلَّت قدماه ، وتعبت عيناه ، ووجع عنقه .

وقام إلى الزهرة فالتقطها ، وجعل يقبلها ويدنيها من صدره ، فِعل المحب أنكر من حبيبه شيئا فهجره ، فلم يطق تجنيه ، وجاشت به الذكرى وغلبه الحنين ، فعاد إلى الحبيب يستعتبه ! ثم التفت ذهنه إلى قلعة الجبل فأخذ يسائل نفسه : أيمكن أن تطوى تلك القلعة الشامخة بين جدرانها الهائلة أمليه العظيمين اللذين يحلم بهما طول حياته : مُلك مصر وجلنار ؟ . ثم كر راجعا على نفسه يلومها فى أخذها بالوهم العابر ، وسكونها إليه ، كأنما حسبه أن يتوهم الشىء فيكون ، وأن يفترض أنها حبيبته جلنار ، فيستحيل فى الدنيا أن ترمى الوردة له

جارية عابثة من جوارى القصر . ألبس الأجدر به أن يصبر على الحقيقة حتى تسفر عن نقابها ، وعلى الوردة الصامتة حتى تشى بصاحبتها ؟ فليتريث ، وليختبر الأمر على مهل حتى يتبين وجهه . ولكن احترس يا قطز ، فإنك فى مأوى الأسد !

ولم يطل بقطز الانتظار فى هذه المرة ، إذ بعث إلى قلعة الجبل من غد ذلك اليوم . فذهب وقد نوى أن يسترق النظر إلى المقصورة إذا وقعت — وهو يرجو أن تقع أيضا — وردة أمامه ليرى من يلقيها . وقد شجع من قلبه وسكن من جأشه رجاؤه أن تكون صاحبة الوردة هى حبيبته جلنار .

ووقعت الوردة الرابعة . فرفع بصره ، فرآها وعرفها ، وابتسمت له ، فابتسم لها ، ثم اختفت ، فانطلق لسبيله ومضى !

وصار قطز بعد ذلك يراها كلما صعد إلى القلعة ، فيعود منها فرحا ، كأنما ملك الدنيا . واستيقظت فى قلبه ذكريات الحب القديم ، واستبد به الحنين ، وغلبته نشوة الظفر ، فلم يطق أن يبقى منطويا على كل ما يضطرب فى صدره من لواعج الحب ، ونوازع الحنين ، ونوازى الفرح . واشتاق إلى صديق يبثه ذات صدره ، فيشاطره فرحه ، ويحمل عنه بعض همه ، فذهب إلى صديقه ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فأخبره بأنه عثر على حبيبته جلنار ، وأنه رآها فى قصر السلطان من مقصورة الملكة شجر الدر . وقص عليه كيف تم ذلك ، فلم يجد عند بيبرس طربا لهذا الخبر ، كأن لسان حاله يقول : « أى شىء فى هذا ؟ وماذا يغنيك أن ترى جارية ترمى لك بوردة من شرفة عالية فى قصر السلطان لا سبيل إلى الوصول إليها ؟ » .

وأخذ بيبرس يصرفه عن ذلك ، ويخوفه من التعرض لجوارى القصر ، ويذكر له ما عرف عن السلطان من شدة الغيرة على نسائه وجواريه ، ويقول له : إن فى غيرهن مندوحة عنهن ، وجعل يسفه رأيه فى شدة التعلق بجارية واحدة مثلها فى

النساء كثير . فرأى قطز أن لا فائدة فى الكلام مع من لا يعطف على شعوره ، ولا يستطيع أن يعرف أن فى الدنيا شيئا اسمه الحب ، تختلف به النساء الحسان فى عين صاحبه عن حبيبته المصطفاة .

وكان قد انقطع زمنا عن زيارة الشيخ عز الدين بن عبد السلام نزولا على أمر أستاذه عز الدين أيبك منذ تغير ما بين الشيخ وبين السلطان ، فاستقال من منصبه فى القضاء واعتزل الناس فما يرى إلا يوم الجمعة يخطب على منبر جامع عمرو . وذلك أن الصاحب معين الدين وزير السلطان بنى غرفة له على سطح مسجد يجاور بيته ليتخذها مقعدا له يقابل فيه أصدقاءه ، فأنكر ذلك عليه الشيخ ابن عبد السلام وأمره بهدم ما بنى ، فلم يفعل ، فشكا أمره إلى السلطان فتغاضى عنه . فما كان من الشيخ إلا أن غضب لدينه وقال كلاما شديدا فى السلطان ومضى بنفسه وأولاده يحملون المساحى والفؤوس حتى هدم البناء ونقل ما على السطح . ثم أشهد على نفسه أنه قد أسقط شهادة الوزير فلا تقبل له شهادة ، وأنه قد عزل نفسه عن القضاء ، وجهر بأنه لا يتولى القضاء لسلطان لا يعدل فى القضية ولا يحكم بالسوية . وهكذا أرسلها العالم العظيم كلمة خالصة لله قوية مجلجلة ! ولم يثنه عن قولها ما كان بينه وبين السلطان من سابق الود ، فما جهر بكلمة الحق فى وجه القوة بدمشق ليسكت عنها بمصر . ولو ارتضى لنفسه مصانعة الملوك على حساب دينه كما يصنع غيره ممن لا خلاق لهم من العلماء لما نفته دمشق ولكان له فيها ما يريد من الثراء الواسع والجاه العريض .

وقد سعى به جماعة من حساده — ومثله لا يخلو من الحساد — عند الملك الصالح أيوب ، وجعلوا يوغرون صدره عليه ، ويقولون إنه لا يثنى عليه فى الخطبة كما يفعل غيره من خطباء الجوامع وإنما يدعو له دعاء قصيرا . فردهم السلطان بغيظهم وقال لهم : « دعوه فإنى إلى دعائه القصير لأحوج منى إلى الثناء الطويل من غيره . وما عزلته عن القضاء وإنما عزل نفسه . ولو قبل أن يعود إليه لأعدته .

وما يملأ عينى من العلماء غيره . فإياكم أن تعودوا للسعاية عندى بابن عبد السلام ! » .

فاشتاق قطز أن يرى شيخه ليبثه ما فى قلبه ، ويسترشد بنصيحته ، فزاره سرا ، ففرح به الشيخ ولكنه نصحه أن لا يعود إليه لئلا يتغير عليه أستاذه إذا بلغه أنه يخالف أمره . ووعده بأنه سيدعو الله له فى سره . وأوصاه بالصبر على ما ابتلى به حتى يجعل الله له مخرجا فيجمع شمله بحبيبته على ما يحبه الله ويرضاه . ورجع قطز من عند الشيخ بقلب راض ونفس مطمئنة . ولبث دهرا يكتفى من حبيبته بالنظرة العجلى وبالأسبوع تنقضى أوائله وأواخره لا يراها إلا مرة أو مرتين حين يصعد القلعة فى حاجة لسيده .

ولكن الواشى درى بأمر الحبيبين فما قرت بلابله . فقد علمت بعض وصائف شجر الدر بما كان يدور فى السر بين الوصيفة جلنار وبين مملوك الأمير عز الدين أيبك فوشين بها إلى سيدتها .

فتربصت الملكة حتى رأت بعينها صدق الوشاية ، فعاتبت جاريتها على ما صنعت وتوعدتها بأن ترفع أمرها إلى السلطان إذا هى عادت لما نهيت عنه . فلم تجب المظلومة بغير دموعها وسكتت على مضضها ولم تستطع أن تدلى بحجتها فى حب ابن عمتها وأليف صباها . ومن ذا كان يصدقها لو فعلت ؟ ومتى سمع الناس فى الدنيا حجة قط لعاشقة ؟

وبعثت الملكة إلى عز الدين أيبك بما كان من مملوكه ، وأوصته أن يتخذ رسولا غيره إلى القلعة حفظا لحرمة السلطان الغيور واتقاء لغضبه . فصدع عز الدين بأمرها وتلطف بمملوكه العزيز عليه ، الأثير عنده ، فعاتبه عتابا جميلا على ما كان منه ، وأوصاه أن يتقى ذلك الحرم وهو فى حل بعد ذلك أن يلهو كما يلهو الشباب .

فبكى المملوك المظلوم ولم يستطع أن يدلى بحجته فى حب ابنة خاله وأليفة

صباه ومن ذا كان يصدقه لو فعل ؟ ومتى سمع الناس فى الدنيا حجة قط لعاشق ؟

وهكذا حيل بين الحبيبين ، وبين ما كانا يتمتعان به من النظرات البريئة والبسمات الطاهرة ، وضرب بينهما بالأسداد ، فبكيا ما شاء الله أن يبكيا ، ولكن الأمل قد انتعش فى قلبيهما ، فعزاهما بعض العزاء ، ولبثا عائشين على هذا الأمل ينتظران فرجا من الله يرجوان أن يكون قريبا . وظل قطز فى خدمة سيده كما كان ، ولم يفقد من حظوته عنده وثقته به شيئا ، غير أنه لم يعد يحمل رسائله إلى القصر .

ومرت السنون تباعا وتوالت الأحداث وطفق الملك الصالح أيوب يجرد الحملة تلو الحملة ، ويبعث القائد بعد القائد من أمراء مماليكه ، ليفتح بلاد الشام ويضمها إلى سلطانه ، فاستولى على غزة والسواحل والقدس ، ثم سلمت له دمشق ، وهرب عدوه الصالح إسماعيل . فلحق بحلب حيث استجار بحليفه الملك الناصر صلاح الدين فأجاره .

وكان الملك الصالح أيوب شعلة من النشاط ، لا يهدأ ولا يفتر ولا يستريح من العمل الدائب فى توسيع رقعة ملكه ، وتنظيم بلاده وتجميلها ، فقد عمر فيها من الأبنية والقصور والقلاع والجوامع والمدارس ما لم يعمر أحد من سلفه مثله حتى وهنت قوته ، وساءت صحته ، فقرر الانتقال إلى دمشق ليستشفى بهوائها ، عملا بنصيحة أطبائه حتى يبرأ من علته .

وانتقلت معه الملكة شجر الدر ، وانتقلت مع الملكة حاشيتها ووصائفها وفيهن جلنار الحبيبة . ترى ماذا كان شعور قطز حين فصل الركب السلطانى من مصر يؤم بحبيبته البلد الذى ارتضعا به أفاويق السعادة معا فى قصر يناوح قصر سيده ابن الزعيم ؟ ترى هل يمر الركب بهذا القصر ؟ وهل تذكره جلنار فتتطلع إليه من سجف هودجها بعينين دامعتين .. ؟ وهل تقع عيناها على قصر آخر قريب منه لا تعلم أنه حنا على حبيبها يوم اضطهده موسى فى قصر أبيه ؟

شعر الصليبيون بالخطر الذى يتهدد إماراتهم بالشام من جراء حملات الملك الصالح نجم الدين أيوب وانتصاراته ، فأرادوا أن ينتهزوا فرصة إقامته بدمشق بعيدا عن عاصمة ملكه ليغيروا على مصر بسفنهم من البحر . وكاتبوا لويس التاسع ملك فرنسا فى ذلك واتفقوا معه على أن يبحر إلى الشرق ويقود بنفسه حملة صليبية كبيرة بأساطيل عظيمة وجيوش عديدة يهجم بها على مصر .

فلما سمع المسلمون بذلك خافوا وأشفقوا على الإسلام أن تقهر قوته فى هذا المعقل الحصين من معاقله . وبرز الشيخ ابن عبد السلام من عزلته فتزعم حركة الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله . وحض الأمراء على الاستعداد لملاقاة المغيرين ودفعهم عن بلادهم ، ونسى ما بينه وبين السلطان من الخصومة فكتب إليه أن يسرع بالرجوع إلى مصر لئلا تفتح بلاد المسلمين وسلطانهم لاه باستشفائه . وكان مما قاله فى كتابه « إن الإسلام فى خطر وصحة السلطان فى خطر . والإسلام باق والسلطان فإن فى الفانين . فلينظر السلطان أيهما يؤثر » .

فلما قرأ السلطان كتابه بكى وعجل بالرحيل فعاد إلى مصر محمولا على محفة لشدة مرضه . ولم يقصد القاهرة بل نزل توا بأشمون طناح « أشمون الرمان » فى قصر له هناك ليكون على قرب من خط الدفاع . ولم يسترح من عناء السفر بل أسرع فشحن دمياط بالأسلحة والأقوات استعدادا للدفاع . وبعث إلى نائبه بالقاهرة أن يجهز الشوانى من صناعة مصر . فشرع فى تجهيزها وسيرها فى النيل شيئا بعد شىء . ثم سير السلطان العساكر إلى دمياط وجعل عليها قائد الأمير فحر الدين ابن شيخ الشيوخ .

وأقبلت أساطيل الفرنج تحمل جموعهم العظيمة بقيادة ملك فرنسا ، وانضمت إليهم سفن فرنج ساحل الشام كله ، فأرست فى البحر بإزاء المسلمين . وسير ملك الفرنج إلى السلطان كتابا كله وعيد وتهديد .

فلما قرىء الكتاب على السلطان اغرورقت عيناه بالدموع ، لا جزعا من غارة الفرنج وتهديدهم ، بل أسفا وحسرة أن يحول مرضه المدنف دون ما تشتهى نفسه من كمال الاضطلاع بدفع هذا الخطب العظيم .

وما لبث الفرنج أن أنزلوا جيوشهم فى البر ، وضربت لملكهم خيمة حمراء ، فجرت مناوشات بينهم وبين المسلمين وقعت على أثرها زلة من قائدهم الأمير فخر الدين إذ سحب العساكر ليلا من دمياط فارتاع أهلها فتركوا ديارهم وخرجوا كأنما يسحبون على وجوههم طول الليل فارين إلى أشمون بمن معهم من الأطفال والنساء حتى لم يبق بالمدينة أحد . فدخلها الفرنج فى الصباح واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة والعدد والأقوات والذخائر والأموال والأمتعة غنيمة باردة . وبلغ السلطان الخبر فغضب غضبا شديدا ، وقال للأمير فخر الدين : « ويلكم أما قدرتم أن تقفوا ساعة بين يدى الفرنج ؟ » وأمر توا بالرحيل إلى المنصورة ، وحمل فى حراقة سارت به على البحر الصغير حتى أنزل بقصر المنصورة على النيل . وأمر عساكره فشرعوا فى تجديد الأبنية للسكنى بالمنصورة وأقيمت بها الأسواق وأصلح السور الذى على بحر النيل وستر بالستائر . وأقبلت الشوانى المصرية بالرجال المقاتلة والعدد الكاملة . وانثال الغزاة المجاهدون والرجال المتطوعون من عوام الناس الذين لبوا دعوة الجهاد فى سبيل الله والوطن . فأقبلوا من كل حدب ينسلون . وجاءت جموع من العربان فأخذوا يشنون الغارات على الفرنج ويناوشونهم .

ولكن العلة قد اشتدت على السلطان ، وأحس بدنو الأجل ، فما أذهله ذلك عن التفكير فى مصلحة الدين والوطن . فأوصى زوجته شجر الدر ومن يثق بهم من رجاله أن يكتموا موته إذا مات لئلا تضطرب قلوب المسلمين وتذهب ريحهم . وأمضى بيده عشرة آلاف

إمضاء على ورق خال ليستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته حتى يقدم ابنه وولى عهده توران شاه من حصن كيفا .

وأسلم الملك الصالح روحه إلى الله وهو يذكره ويسأله أن ينصر عباده المسلمين ويحمى بيضة دينه ، وما عنده إلا زوجته وطبيبه . وحزنت شجر الدر على زوجها العظيم وحبيبها المخلص . ولكنها حبست دمعها ولم تدع الحزن يطغى عليها فينسيها وصية زوجها فى الاحتياط لمصلحة الدولة وحفظ شمل المسلمين مجتمعا وهيبتهم فى صدور أعدائهم وافرة . فتركت جثة السلطان للطبيب يتولى غسلها وتحنيطها . وأحضرت الأمير فخر الدين والطواشى جمال الدين فنعت إليهما السلطان ووصتهما بكتمان موته خوفا من الفرنج . ورسمت لهما الخطة التى يجب عليهما انتهاجها ثم استقدمت الأمراء الذين بالمعسكر وقالت لهم إن السلطان قد رسم بأن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم توران شاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانا بعده ، وللأمير فخر الدين بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة . فقالوا جميعا سمعا وطاعة ، وأقسموا يمين الولاء قاطبة .

وأخذت شجر الدر تدبر الأمور وتصدر الأوامر حتى لم يتغير شيء ، إذ بقى الدهليز السلطانى على حاله ، والسماط فى كل يوم يمد ، والأمراء يحضرون للخدمة . وهى تقول دائما « السلطان مريض ما يريد أن يزعجه أحد » ولكن مثل هذا الخبر العظيم لا يمكن أن يبقى طويلا مكتوما عن الناس ، فما لبثوا أن شعروا بأن السلطان قد مات ، غير أن أحدا لا يجسر أن يتفوه به .

وما لبث الخبر أن تسرب إلى الفرنج فقويت نفوسهم ، فتقدموا من دمياط فارسهم وراجلهم ، ونزلوا على فارسكور وسفنهم على بحر النيل تحاذيهم . ثم تقدموا إلى شرمساح فالبرمون . فاشتد الكرب وعظم الخطب لدنوهم من معسكر المسلمين ، حتى نزلوا تجاه المنصورة يفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم

« البحر الصغير » فاستقروا بمنزلتهم هذه ، وحفروا دونهم خندقا عظيما ، وبنوا حولهم سورا وستروه بالستائر ، ونصبوا عليه المجانيق يرمون بها على معسكر المسلمين ، ووقفت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل ، ووقفت شوانى المسلمين بإزاء المنصورة . وكان معظم عسكر المسلمين فى المنصورة بالبر الشرقى ، ورابط جمع منهم فى البر الغربى (حيث طلخا اليوم) وفيهم جماعة من الأمراء الأيوبيين من أولاد الناصر داود وإخوته ، وأخذ القتال يدور بين الفريقين برا وبحرا ، فما من يوم يمر إلا ويقتل من الفرنج ويؤسر . وقد دأب عامة المسلمين على النكاية بهم ، فجعلوا يغتالون ويتخطفون كثيرا منهم ، ويطرقون معسكرهم فإذا شعروا بهم ألقوا أنفسهم فى الماء وسبحوا إلى بر المسلمين . وكانت لهم فى خطفهم حيل لطيفة يفتنون فى ابتكارها ، ويتنافسون فى اختراعها ، ومن ألطفها أن مسلما أخذ بطيخة فقورها وأدخل فيها رأسه وغطس فى الماء إلى أن قرب من بر الفرنج ، فظنوه بطيخة عائمة فما هو إلا أن نزل أحدهم فى الماء ليتناولها إذ اجتذبه المسلم فعام به حتى قدم به أسيرا إلى المسلمين .

واستمر الحال كذلك قرابة شهرين إذا ببعض المنافقين من المسلمين قد دلوا الأعداء على مخائض فى البحر الصغير ، فما راع الناس إلا فصائل من الفرنج قد تجمعوا فى بر المسلمين ، يقودهم بطل من أبطالهم هو الكند دارتوا أحد إخوة ملك فرنسا الثلاثة ، الذين قدموا معه فى هذه الحملة ، وكان بطلا مغامرا فلم يكد يعبر المخاضة حتى اندفع بفرقته نحو المعسكر الإسلامى . لينفرد بظفر ذلك اليوم . وكان الأمير فخر الدين القائد العام حينئذ فى الحمام ، فأتاه الصريخ فخرج مدهوشا وركب فرسه لينظر الخبر ، ويأمر الناس بالركوب ، وليس معه سوى مماليكه فلقيه الكند وفرقته ، فحملوا عليه ، ففر من كان معه من المماليك وثبت وحده يقاتلهم ويدافعهم عن نفسه ، فصرع جماعة منهم حتى اجتمعوا عليه واعتورته السيوف من كل جانب .

وما إن علم الفرنج بمقتل الأمير فخر الدين حتى انتعشت نفوسهم ، وأسكرتهم خمرة الظفر ، فانتشرت جنود الكند دارتوا فى أزقة المنصورة ، حيث أمطرهم السكان وابلا من الحجارة والطوب والسهام . واقتحم هو بفرقته المعسكر فتفرق الناس وانهزموا يمينا وشمالا حتى وصل إلى السدة الخارجية للقصر السلطانى يفصل بينها وبين القصر فناء واسع ، فشرع رجال الحرس السلطانى يدافعون المهاجمين الذين يريدون اقتحام السدة ، ولكنهم أدركوا أنهم لا قبل لهم بهذا العدد الهائل من الفرسان المتحمسين وقد جاءوا على غرة فبغتوهم ، فأخذوا يستغيثون بأمراء المماليك الصالحية — وكانت منازل هؤلاء قريبا من القصر وحوله ، ليكونوا ردءا للسلطان وزودا دونه .

وكان هؤلاء لم يبرحوا بيوتهم بعد ، ولم يخطر ببالهم قط مثل هذه المباغتة الجريئة فى تباشير الصباح ، فما راعهم إلا الصريخ ، فقاموا إلى أسلحتهم وركبوا خيولهم فزعين إلى مصدر الصوت . فإذا هو آت من جهة القصر ، وإذا نساء القصر قد رفعن أصواتهن بالصياح والعويل ، وإذا بفرسان الفرنج قد دخلوا السدة ، وانتشروا فى الفناء ، وإذا عز الدين أيبك قد سبقهم إلى الصريخ ودخل من الباب الخلفى ، فجعل يقاتلهم دون باب القصر وحوله جماعة من مماليكه وبقية من الحرس السلطانى يقاتلون معه وفيهم مملوكه قطز .

فحاول هؤلاء الأمراء دخول السدة فدفعهم عنها جماعة من الفرنج وقفوا دونها . فصرخ فيهم بيبرس صرخة أدخلت فى قلوبهم الرعب ، وحمل هو وجماعته عليهم حملة صادقة فرقتهم أبادبد وجعل يحاول اقتحام السدة . وكان قطز قد جعل همه أن يشاغل الكند دارتوا ويضاربه بالسيف ، فيهيج الكند ويحمل عليه ليضربه الضربة القاضية فيحيص عنه الشاب حتى يكاد الكند يقع عن فرسه فيعود قطز لمناوشته مبتعدا به عن باب القصر شيئا فشيئا . فاستطاع بذلك أن يشغل الكند الهائج عن الاتصال بجماعته ، ولم يكن أحد منهم ليجسر على

مساعدته ضد مبارزه الشاب ، لئلا يعد ذلك إهانة للكند وتعييرا له بالعجز عن القضاء على قرن واحد . فتركوهما لشأنهما فلم يزالا يتواثبان وهما يتعدان عن باب القصر ويقتربان شيئا فشيئا من السدة ، وكان بيبرس قد شتت جماعة الفرنج الواقفين دون السدة وأراد اقتحامها ، فلحظ الكند ذلك ، وخشي دخول فرسان المسلمين ، وقد سئم منازلة قرنه الشاب المراوغ ، فتخلى عنه وانطلق جهة السدة فوجد بيبرس قد لز بين مصراعيها ، بين الفرنج الدافعين لها من داخل الفناء ، وبين المسلمين الدافعين لها من خارجه . فأهوى الكند عليه بضربة قوية ، كادت تفلق رأسه ، لو لم يتقها بيبرس بسيفه ، فانكسر سيف بيبرس . ورفع الكند يمينه بالسيف ليضربه ضربة ثانية ، فعاجله قطز بضربة أطنت يمينه من ساعدها فهوت على الأرض وسيفها في قبضتها ! ثم طعنه بالحربة في مفرج المغفر من عنقه ، فاندلع لسان الحربة من حلقه ، وهوى الكند صريعا . فكبر قطز وكبر بيبرس وكبر المسلمون إثرهما ، ودفعت السدة ففتحت على مصراعيها . ودخل الأمراء المماليك وخلفهم الجنود ، فتدفقوا في الفناء . وكان الفرنج قد ذهلوا لمصرع قائدهم ، واستولى عليهم الرعب ، فتفرقوا عن باب القصر يمينا وشمالا ، وقصدوا السدة ليخرجوا منها فرارا بأنفسهم . فأمر بيبرس بإغلاقها ، وقال لمن لم يدخلها بعد من المسلمين : « ابقوا مكانكم نحن نكفيهم » فحال بذلك بين الفرنج وبين الفرار ، ووضع المسلمون فيهم السيف حتى أتوا على آخرهم وامتلأ الفناء الرحب بجثث القتلى .

وكانت نساء القصر قد كففن عن الصياح ، لما أقبل الأمراء المماليك وجنودهم للنجدة . فحبسن أنفاسهن ينظرن من شرفات القصر إلى المعركة الدائرة في الفناء ، والصراع القائم دون السدة . وقد وضعن أيديهن فوق ترائبهن ، مشفقات أن تقع الدائرة على حماتهن ، فيقتحم أولئك العلوج الأبواب عليهن . وكانت الملكة شجر الشجر واقفة بينهن ، رابطة الجأش ، تنظر إلى قراع

الأبطال ، وتصاول الفرسان ، كأنها تنظر إلى خيل السباق فى الميدان ، حتى سرت الطمأنينة منها إلى من حولها من وصائفها وجواريها فنسين أنهن فى خطر داهم ، وأن مصيرهن بين كفتى القدر . وفيهن وصيفة حسناء ، قد وقفت كالتمثال بجوار الملكة . لا يتردد طرفها يمنة ويسرة مثلهن . وإنما علقت عيناها بذلك المملوك الشاب ، يواثب ذلك الأسد الهائج ويراوغه ، وينتحى به بعيدا عن القصر ، فكلما أهوى الكند بسيفه عليه ، كظمت نفسها ، ووضعت يمينها على رأسها . فإذا ما حاص الشاب عنها أرسلت يدها وتنفست الصعداء !

ولما تكرر هذا الفعل من جلنار ، لحظت الملكة ذلك منها ، فاستغربته ، وودت لو تسألها عن سره ، لو لم يشغلها اهتمامها بمصير المملكة عن مثل هذا السؤال . ولولا استبعادها أن يكون هذا الشاب المواثب الجرىء ، هو ذلك المملوك الذى كان عز الدين أيبك يبعثه إلى القصر ، فما عفت عينه عن مغازلة جلنار ، لما احتاجت فى معرفة السر إلى السؤال . وأنكرت سائر الوصائف أيضا ما تصنع جلنار ، وأخذن يتغامزن عليها بينهن . وكانت قلوبهن أميل من قلب الملكة إلى الاعتقاد بأن هذا الشاب المواثب ، ما هو إلا ذلك الرسول المغازل . ولعل لغيرتهن من هذه التى تبرعهن جمالا ، وتفوقهن لدى سيدتهن حظوة ، أثرا فى ذلك . فقد نفسن عليها هذا التعلق ببطل توهمن أنه حبيبها . وكان محض توهمهن هذا كافيا عندهن ليبرر تجنيهن عليها . وعلام يحسدنها فى ذلك الموقف ؟ أعلى حبيب — إن صح أنه حبيبها — يضمه الموت بين ذراعيه ، فيضمها معه ؟ أعلى أمل — إن صح أنه أملها — معلق فى الفضاء بخيط من نسج العنكبوت ، تتلاعب به الريح فى يوم عاصف ؟ ولكنها غيرة النساء ، تتواصى بالعدوان والأثم ، وتأخذ بالحسبان والوهم .

وإذا غادرنا ساحة القصر بما عليها من جثث القتلى وتركنا شجر الدر ووصائفها يحمدن الله جميعا على ما من به على المسلمين من تباشير النصر ،

ويممنا ميدان القتال فى شمال المنصورة وبين أزقتها ، وجدنا ملك فرنسا قد وصل إلى الميدان بعد أن نام أخوه نومته الأبدية بساعة . وبعد أن اتقد المسلمون حماسة لما أحرزوه من النصر فى ساحة القصر . فحاول الاستيلاء على تل جديلة الذى نصب المسلمون عليه مجانيقهم وأبراجهم وجمعوا فيه قواتهم وعددهم ، وأراد أن يستكمل بناء القنطرة من الناحية الجنوبية للبحر الصغير حتى تعبر الرجال إليه . وقد نجح فى ذلك كله وفاز بما أراد . ولكن المسلمين قد استيقظوا من سباتهم ، وانتبهوا من غفلتهم ، وغلت الحمية حمية الإسلام فى قلوبهم ، ووطنوا أنفسهم على بذل أرواحهم فداء لله ولمصر ، فجمعوا صفوفهم كأنها بنيان مرصوص ، وحملوا حملة واحدة مزقت صفوف الأعداء وشتتتهم بددا ، وأذهبت ما صنعوه من التدبير سدى . وانهزموا إلى تل جديلة فلاذوا به ، وما كان التل ليعصمهم من أيدى المسلمين لو لم يحجز الليل بين الفريقين .

وقدم السلطان الجديد بعد أن طوى السهول وجاب القفار ليخلف أباه السلطان الصالح . ففرح الناس وقويت شوكة المسلمين . وكانت الميرة ترد للفرنج من معسكرهم بدمياط فى بحر النيل ، فصمم المسلمون على أن يقطعوها عنهم فيقضوا بذلك عليهم ، فصنعوا سفنا جديدة وحملوها مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة فألقوها فيه وشحنوها بالمقاتلة فسارت بهم حتى وقفت عند مجمع البحرين فكمنت هناك ، فلما جاءت مراكب الفرنج خرجت لها من مكمنها ، فنازلتها وأخذتها أخذا وبيلا ، فغنم المسلمون اثنتين وخمسين سفينة مشحونة بالأرزاق والأقوات . وقتلوا ألفا من العدو أو يزيدون .

وما إن انقطع المدد من دمياط عن العدو حتى أذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ويخشون الذهاب . فضاقت بهم أنفسهم وبلغت قلوبهم الحناجر ، فأحرقوا مراكبهم بمثل ما يتقد فى نفوسهم من نار الغيظ . ثم خربوا بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، وقوضوا

معسكرهم ورحلوا جميعا يريدون دمياط . وولى أسطولهم فرارا معهم فركب المسلمون أقفيتهم ، واتبعهم الأبطال الذين أنجبتهم أرض مصر ، حتى إذا بلغوا فارسكور لقيهم الموت من أمامهم ، وطلبهم الموت من خلفهم ، وأحاط بهم المسلمون فأعملوا فيهم سيوفهم وأوسعوهم قتلا وأسرا ، فبلغت عدة قتلاهم عشرين ألفا وناهز عدد أسراهم مائة ألف . والتجأ الملك الخاسر إلى تل المنية ، منية عبد الله ، وقال : « سآوى إلى جبل يعصمنى من الموت » .

قال المسلمون : « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » .

وتم بينه وبينهم الأمان فكان من المعتقلين .

وقيل : يا أرض القتال ابلعى أشلاءك ، يا سماء الموت أقلعى ، وغيض الدم ، وقضى الأمر ، واستوت سفينة الإسلام على جودى النصر ، وقيل بعدا للقوم الظالمين !

الفصل الحادى عشر

وصلت البشائر إلى القاهرة ، فأقيمت فيها الزينات ، ودقت الطبول ، وأعلنت الأفراح ، وسر المصريون بهذا النصر العظيم .

ولكن السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه لم يشكر نعمة الله عليه ، ولم يعرف حق أولئك الأبطال الذين حموا بيضة الدين ، وشفوا صدور المؤمنين ، ورفعوا مجد مصر عاليا على العالمين . فأخذ فى إبعاد رجال الدولة ، وإطراح الأمراء والأكابر من أهل الحل والعقد ، وأعرض عن مماليك أبيه الذين كانوا عنده لمهماته ، وقرب جماعته الذين قدموا معه فخصهم بالمناصب والرتب ، واحتجب عن الناس ، وانهمك فى الشراب واللهو ، وبعث إلى زوجة أبيه شجر الدر — التى مهدت له الدولة ، وضبطت الأمور فى مغيبه ، حتى سلمته مقاليد الحكم — يطالبها بما عندها وما ليس عندها من الأموال والجواهر ، ويتهددها ويتوعدها بالقتل ، فأنف لها صنائع زوجها ومماليك أبيه ، فعزموا على قتله ، وشجعهم على ذلك تنكر الناس له ، وبغضهم لحكمه .

وما هى إلا أيام حتى قتل بأيدى موالى أبيه ، فى سماطه الممدود بفارسكور بين سمع الناس وبصرهم ، فما أجاره منهم مجير .

جلست شجر الدر على أريكة السلطنة بإجماع أمراء المماليك الصالحية واتفاق أعيان الدولة وأهل المشورة . ونقش اسمها على سكة النقود ، ورددت منابر القاهرة ومصر : « اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع ، والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح ... آمين » .

وكان لويس التاسع قد حمل إلى المنصورة مقيدا بقيد من حديد ، فاعتقل فى دار القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى ، كما اعتقل أخواه شارلس وألفونس فأبقيا مع غيرهما من كبار الأسرى .

فلما استقرت الأمور للملكة شجر الدر ، جرت المفاوضات بين المندوب المصرى الحر ، وبين العاهل الفرنسى المعتقل ، إلى أن تم الاتفاق بينهما على أن تسلم دمياط إلى المسلمين ، ويخلى عن الملك ليذهب إلى بلاده ، بعد ما يؤدى نصف ما عليه من الفدية .

وخفق العلم المصرى على أسوار دمياط ، وعادت كلمة التوحيد ترن على مآذنها ، وشهادة الحق تجلجل فى فضائها ، وأفرج عن الملك الأسير بعد ما فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار ، فانطلق إلى زوجته الوالهة بدمياط يندب لها سوء الحظ ونكد الطالع ، وتلومه مرغريت على إلقائه بيده إلى التهلكة ، فيقول لها : « اسكتى ولا تجمعى لى بين عذاب القوم ومرارة اللوم ، وذعينا ننج بأنفسنا وبمن بقى منا إلى بلادنا » .

وشهدت دمياط بين الدمع والابتسام إقلاع آخر سفينة من سفن لويس التاسع وقومه ، تحملهم عن البلاد التى أرقدوا فى ثراها عشرات الألوف من أبطالهم وجنودهم ، بأيدى أبنائها المسلمين ، وصاح شاعر مصر فى أذن الملك الخائب :

أتيت مصر تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح !
ألهمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح !
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح !

وكان عز الدين أيبك قد قوى نفوذه فى الدولة وعظم قدره عند الملكة

شجر الدر منذ أبلى ذلك البلاء الحسن فى الدفاع عن القصر السلطانى بالمنصورة يوم هجم الأعداء عليه ، فردهم هو ومماليكه عن باب القصر حتى جاء غيره من الأمراء المماليك وجنودهم فأنجدوه وملأوا ساحة القصر بجثث المعتدين . فلم يكن بدعا أن ترتضيه شجر الدر وينتخبه الأمراء المماليك ليتولى الأتابكية للسلطانة ، ويتقلد منصب التقدمة على العساكر . وقد كان له أيضا من علو سنه وحنكته وشهامته ما جعلهم يدينون له بالطاعة ويعترفون له بالسبق . على أن هذا الإجماع منهم عليه لم يكن تاما ، فقد كان فيهم منافسون يرون أنفسهم أجدر منه بالرئاسة . وعلى رأس هؤلاء المنافسين الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار ومن شيعته الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . ولكنهم لم يجرؤا فى أول الأمر على إظهار الخلاف والانتقاض على ما اجتمع عليه الأكثرون ، ورأوا تأجيل ذلك إلى أن تحين الفرصة الملائمة ويساعدهم الوقت .

قامت الملكة العظيمة شجر الدر بتدبير مملكتها أحسن قيام ، يعاونها فى ذلك أتابكها عز الدين أيبك وغيره من مماليك زوجها ووزرائه المحنكين وقواده العظام . ولكن ان استتبت لها الأمور فى الديار المصرية حيث تهيمن عليها روحها فما استتب لها كذلك فيما وراءها من بلاد الشام التابعة لمصر . فلم يكد يصل خبر قتل الملك المعظم توران شاه وحلول شجر الدر محله إلى الشام حتى طمع أمراؤه وملوكه من البيت الأيوبى فى الوثوب على دمشق وغيرها من البلاد التابعة لسلطان مصر . وكان أعظم هؤلاء شأنا الملك الناصر صاحب حلب ، الذى جاء إلى دمشق فملكها ، ولم يكتف بذلك بل أعلن أنه سينتقم من شجر الدر ويثأر لنسيبه الملك المعظم توران شاه من قتلته من الأمراء المماليك .

ووردت أنباء ذلك إلى القاهرة . فساد الاضطراب فيها وتشيع بعض الأمراء من غير المماليك الصالحية للناصر واعتبروه الوارث الشرعى لدولة آل أيوب . وحرج مركز شجر الدر ، وزاده حرجا أن الخليفة العباسى ببغداد لما بلغه خبر تولية

شجر الدر ، بعث كتابا إلى مصر ينكر فيه على الأمراء ويقول لهم : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا » ، فما وسع الملكة إلا أن تخلع نفسها وتنزل عن عرشها لأتابكها ومقدم عسكرها الأمير عز الدين أيبك ، فوافقها الأمراء المماليك على اختياره ، وحلفوا له ولقبوه بالملك المعز ، وأركبوه إلى قلعة الجبل يتناوبون حمل الغاشية بين يديه حتى أجلسوه على دست الملك وجلسوا معه على السماط .

كان هذا الاستتباب السريع لعز الدين أيبك واتفاق الأمراء المماليك على توليته الحكم دون تباطؤ أو معارضة راجعا إلى نفوذ شجر الدر ثم إلى خشية الأمراء المماليك أن تضيع السلطة من أيديهم إذا قوى دعاة الملك الناصر وأشياعه بمصر ونجحوا فى ضمها تحت سلطانه ، فحينئذ ينتقم الناصر منهم ولا يبقى عليهم بحال . فوحد الخطر كلمتهم وضم صفوفهم وأعرضوا عما بين بعضهم وبعض من المنافسات والمشاحنات وأسرعوا بموافقة الملكة على اختيار عز الدين .

ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من دعاة الناصر وأشياعه فى مصر بتشتيت شملهم والقضاء عليهم ، ويشعرون بزوال الخطر عنهم ، ورجوع أمرهم كما كان ، حتى دبت عقارب البغضاء بينهم ، وعاد التنافس القديم بينهم من جديد ، وتولى كبيرهم فارس الدين أقطاى كبر الحملة على عز الدين أيبك . وإذ كان لا يجرؤ على طلب الأمر لنفسه رأى أن يكتفى بإفساد الأمر على قرينه ، فدعا الناس إلى تولية أمير من البيت الأيوبى ليجتمع الكل عليه ويطيعه الملوك من أهله ، وتبطل حجة الناصر صلاح الدين فى أحقيته بملك مصر ووراثة دولة أيوب . فما سمع الناس والأمراء المماليك بهذا الرأى حتى مالوا إليه لسداده وقوة برهانه ، فأيدوه وجهروا باستحسانه . وأخذ العامة فى الشوارع يقولون : « ما نبغى مملوكا يتولى علينا بل نريد سلطانا من آل أيوب » .

ثم عقد الأمراء المماليك مجلسا قرروا فيه أن يقيموا صبيا من بني أيوب يكون له اسم الملك ويكونون هم الذين يديرون الملك ويأكلون الدنيا باسمه ، فاختاروا الملك الأشرف موسى ابن الملك مسعود وله من العمر ست سنين فأقاموه سلطانا شريكا للملك عز الدين أيبك على أن يقوم عز الدين أيبك بتدبير الدولة . وقرروا أن يبرز اسمهما على التوقيعات والمراسيم وينقش على النقود وأن يخطب لهما على المنابر .

وركب الملكان الأشرف والمعز تتقدمهما الأعلام السلطانية ، وشقا القاهرة بين الجماهير المحتشدة لرؤيتهما ، والمعز يحجب الأشرف راكبا أمامه بعصا في يده ، والأمراء تتناوب في حمل الغاشية واحدا بعد واحد .

أما فارس الدين أقطاى فقد رأى أنه لم يصنع شيئا إذ بقى عز الدين أيبك في سلطانه وقوته ، ولم يفقد من نفوذه شيئا ، وكانت الأمور كلها في يده وليس للملك الأشرف إلا الاسم . على أن نفسه قد طابت قليلا لأن عز الدين لم يعد له الحق في الاستبداد والاستئثار دون سائر الأمراء المماليك كما لو كان هو السلطان ، فبقى بذلك لأقطاى ولغيره من الأمراء حق الاعتراض على سياسته والتداخل في شؤون ملكه ؛ على أن يؤجل ما وراء ذلك من مطامعه في التغلب عليه إلى حين آخر .

ولم يخف على عز الدين أيبك ما يضمره أقطاى له وما ينويه من التغلب عليه ، فأراد أن يشغله عن ذلك ويصرفه عن التدبير له ؛ فجعل إليه قيادة المماليك البحرية ، وسيره لقتال الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق الذى كان قد جمع الجموع لغزو مصر ، فسار أقطاى إلى غزة بألفى فارس وقاتل جنود الناصر وهزمهم وعاد إلى مصر ظافرا ، ولسان حاله يقول لعز الدين : « هأنذا عدت إليك أقوى مما كنت » .

ولكن عز الدين باستناده إلى ركن قوى من شجر الدر كان مطمئن النفس إلى أنه لا يغلب على أمره ، وأن أحدا من الأمراء المماليك مهما

بلغ من قوة ناصره وكثرة أتباعه لا يقدر أن يزحزحه عن مكانه . فقد كانت شجر الدر — وإن اعتزلت الملك — لا تزال هى القوة المصرفة من وراء الستر ، وكان نفوذها ماضيا على كل الأمراء ، ترفع من تشاء منهم وتضع من تشاء . وكانوا جميعا يعرفون ميلها إلى عر الدين أيبك وثقتها به ، فلم يكونوا ليعارضوها فى تقريبه واصطفائه خوفا من غضبها . وكانوا يعرفون أيضا أن شجر الدر تحب السلطة وتعشق النفوذ والسيطرة . ولم تعتزل الملك إلا مغلوبا على أمرها . وكانت ترى فى نفسها الجدارة للحكم ، والكفاية لتصريف الأمور ، وأنها ما قعد بها عن الاستمرار فى الجلوس على أريكة السلطنة إلا كونها أنثى . فرأت أن تتغلب على قصورها هذا الطبيعى بأن تجعل على عرش المملكة رجلا من صنائعها ، تثق بإخلاصه لها ، وتطمئن إلى أنه لا ينتقض عليها فيستأثر بالأمر دونها . فاختارت عز الدين أيبك لأنه كان أطوع الأمراء لها ، وأخلصهم كان لزوجها ، وليس له من كثرة الأتباع والمماليك ما قد يطمعه فى الخروج على طاعتها والتخلص من سيطرتها .

على أنها لم تشأ أن تطمئن إليه كل الاطمئنان ، وتذهب فى الثقة به إلى أبعد مما تقتضيه حاجتها للاستتار به . فلم تقصر كل عطفها عليه بل جعلت للآخرين نصيبا من برها وعنايتها ، تضمن به ودهم لها ، ودفاعهم عن حقها إذا بطر عز الدين أيبك نعمتها ، وحاول استلاب النفوذ من يدها . فكانت تطيب نفوسهم ، وتشعرهم أنها لم تختر عز الدين لكونه أفضل فى عينها أو أدنى إلى قلبها منهم ، وإنما أرادت بذلك أن تحفظ سلطتهم ، وتصون مقامهم ، لأنه ليس له من القوة والشراسة وحب الاستبداد ما يخشى عليهم منه .

وكان عز الدين يعلم هذا منها ، فكان يتقى إغضابها ويبالغ فى استرضائها ، ولا يقطع أمرا دونها . ولم يكن عزوفا عن الاستبداد بالأمر والاستقلال بالسلطة — وإن كان يتظاهر بذلك عندها وعند الناس — ولكنه احبها ومال إليها قلبه ، فلم

يجد حرجا فى احتمال سيادتها عليه ، وتحكمها فيه ، ولم يشعر بغضاضة فى خضوعه لها ، وذله بين يديها ، بل كان يجد لذة فى كل ذلك . وكان عفيفا حييا ، لا يكاد يرفع إليها طرفه ، وإذا حدثها ، حدثها بوقار واحتشام ، كما كان يفعل لو أن زوجها السلطان كان حيا بعد . وقد برح به حبها ، وما منعه من التصريح لها بما فى نفسه إلا أنه كان يهابها أن يقول لها شيئا كان يراه مستحيلا فى حياة سيده .

ولم يصعب على شجر الدر أن تتبين حبه الخفى لها ، فقد شعرت به فأضمرت له مثله ، ولكنها كانت تغالب هذا الحب وتدافعه ، خشية أن تستسلم له ، فيحملها هذا الاستسلام على التضحية بما جبلت عليه من شهوة الحكم ، وحب السلطان ، فأرادت أن تحتفظ بإرادتها حرة ، لا يحد منها حب ولا تجور عليها نزوة من نزوات القلب .

نعم إنها كانت تعلم أن لا بدلها من التزوج بأحد الأمراء يوما ما ، لأنها لم تبلغ من الكبر بحيث ينقطع أملها فى الزواج ، وتخلد نفسها إلى التأيم . ولكن من ذا يضمن لها إذا هى اصطفت عز الدين بعلا يصون لها ما تحب من السيطرة ولا ينازعها حقها فى السيادة — من ذا يضمن لها حينئذ أن يبقى لعز الدين ملكه وأن لا ينتزعه من يده أحد منافسيه الأقوياء فتخسر بسقوطه كل شىء ؟ ولم يزل التنافس بين الأمراء قائما على قدم وساق ، فلتتريث حتى ترى لمن تكون الغلبة القاهرة ، فتمد إليه يدها إذا مد إليها يده — وهى موقنة أنه سيفعل — فأى منهم لا يتمنى أن يحظى بها ، ويسعد بحبها ؟

وكان سيف الدين قطز شديد الإخلاص لأستاذه عز الدين أيبك — لثقة أستاذه به ، واعتماده عليه فى المهمات ، ولأن أستاذه كان مثله دينا عفيفا ، فأحبه لدينه وعفته ، فكان لا يألو جهدا فى توطيد مركز عز الدين بما يجمع حوله من الأتباع ، وبما يستميل إليه القلوب ، وقد عرف أن لأستاذه منافسين أقوياء ، وأن عيونهم لا تنام عنه ، وأنهم يتربصون به الدوائر ليثبوا عليه ويحكموا

مكانه ، وهذا الفارس أقطاى يفوق أستاذه فى كثرة الحشداشية والأشياع وهو مغامر بطل ، ومن حوله مغامرون أبطال ، ولو لم يكن فيهم إلا بيبرس لكفى ، وقد رأى قطز أن أستاذه يستمد نفوده من شجر الدر ، وأن شجر الدر لا يمكن الثقة بها ، ولا الركون إليها ، وهؤلاء الأمراء يتقربون إليها ، ولا يبعد أن ينجح أحدهم فى استمالة قلبها إليه ، فتميل عن أستاذه عز الدين فيتم بذلك سقوطه .

وقد هداه التفكير إلى أن الضمان الوحيد لبقاء أستاذه فى الحكم هو أن يتزوج عز الدين شجر الدر . وكان قد عرف ميله إليها وغرامه بها ، وإن لم يخبره أستاذه بذلك ، لأنه — هو العاشق المستهام — لا يعز عليه أن يكتشف سر عاشق مثله ، فأراد أن يشير على أستاذه بطلب يدها ، فدخل عليه يوما وقال له : « إن سيدى كثير الاختلاف إلى السلطانة ، وإن الناس يقولون إنه سيتزوجها ، ومملوكه الوفى يعتب عليه أن يجهل ما يعلمه الناس عن سيده » . فنظر إليه عز الدين باهتمام كأنما لذ له أن يسمع مثل هذا الحديث ، وقال له : « لا تصدق ما يقوله الناس فليس ذلك بصحيح » .

قال قطز : « فسيقولون ما هو أعظم من هذا ، مما لا يطيق المملوك سماعه فى أستاذه العفيف » . ففهم عز الدين ما أراد، وقال له : « ما شأننا بهم ، دعهم يقولوا ما يشاءون » . فقال قطز : « صدقت يا سيدى ، لندعهم يقولوا ما يشاؤون ليس لنا بهم شأن ، ولكن دعنا أيضا نفعل ما نشاء ليس لهم بنا شأن . إن سيدى يرغب فيها ، فلماذا لا يطلب يدها ؟ » .

قال عز الدين : « من قال لك إننى أرغب فيها ؟ » .

فأجابه قطز : « إذا لم يشعر المملوك بهموم سيده لم يكن أهلا لثقته » .

فرأى عز الدين أن لا فائدة من إخفاء الحقيقة عن مملوكه ، وشعر بالارتياح ، إذ رأى أن ما كان يجول فى سره كحلم من الأحلام ، قد أصبح حقيقة

يتحدث عنها بين يديه : فقال له : « ومن يضمن لى أنها ترضانى ؟ » . فقال له قطز : « وهل تجد بين يديها من هو أفضل منك ؟ » .

— إنى مملوك زوجها يا قطز .

— وهل كانت إلا جارية مملوكة ؟ ومن من ملوك بنى أيوب يرضى الأمراء المماليك أن يتزوجها ؟ اللهم إلا أن يكون الملك الأشرف ، فهل تتزوج هذا الصبى ؟

فضحك عز الدين عند سماعه هذا ، ومضى قطز يقول : « إنه لا يتزوجها إلا أنت أو أقطاى ، وقد سمعت أنه قد خاطبها فى ذلك » .

فاختفى من وجه عز الدين الضحك ، وظهر مكانه التقطيب والاهتمام ، وسأل مملوكه : « ممن سمعت هذا ؟ » .

— سمعته من بيبرس ، وقال لى أشياء أخرى عن نفسه تأبى الصداقة التى بينى وبينه أن أفشيها .

فسكت عز الدين طويلا ، ثم قال :

— ولكنى لا أجرؤ على مخاطبة السلطانة فى ذلك ، وقد حاولت ذلك غير مرة فيعقد الحياء لسانى فى كل مرة » .

— إذا شاء سيدى أعارنى قلبه وأعرته لسانى .

— تريد أن أبعثك إليها ؟

— نعم فأبوح لها بذات صدرك .

— ماذا أنت قائل لها ؟

— دع هذا للموقف يملِ علىّ ما يقتضيه ، وأيقن أن لسانى لن يعثر فى شىء لا يرضيك .

فنظر إليه عز الدين ضاحكا ، وقال مداعبا :

— قد عرفتك يا قطز ، إنما تريد أن ترى وصيفتها جلنار ! .

فابتسم قطز وقال : « ليس هذا بسر عليك ، وما أريد أن أكذبك

فأنكر أنى أطمع منها فى نظرة ، لا أحسب سيدى يستكثرها على جزاء لى على الخدمة . آه إنى لم ألقها إلا مرة واحدة ، يوم دعتنى الملكة ثالث يوم لارتقائها أريكة السلطنة ، فأثنت على صنيعى يوم قتلت الكند دارتوا ، ثم قالت لى : أتحب هذه الوصيفة ؟ فنظرت فإذا جلنار واقفة دونى فأذهلنى ذلك عن جوابها ، فما راعنى إلا صوت الملكة تقول : وتريد أن أزوجكها ؟ قلت : لا أرفض نعمة السلطانة . قالت : متى تريد ذلك ؟ فقلت : خير البر عاجله . فابتسمت السلطانة ، وقالت : لا ، حتى ينقضى الحزن على السلطان .. آه يا سيدى لا أدرى متى ينقضى هذا الحزن على السلطان ! » .

فسكت عز الدين هنيهة يتعجب من حماسة مملوكه الشاب وطلاقة لسانه فى الحديث ، ثم قال له وهو يبتسم : « ينقضى هذا الحزن على السلطان حينما تتزوج السلطانة » .

فقال قطز : « أجل يا سيدى فتزوجها من أجلى أنا إن لم يكن من أجلك وخلصنى من هذا الحزن الطويل » .

فأغرب عز الدين فى الضحك ، وقال له : « إذاً فأنا الذى أستحق الجزاء منك » .

ولم يكن ما سمعه قطز من صديقه بيبرس حديثا مختلقا ، فقد ذهب الفارس أقطاى حقا إلى شجر الدر وخاطبها فى الزواج ، وكان جريئا فما عقد الحياء لسانه ، وما عاقته هيبة الملكة عن الإفضاء إليها برغبته فى يدها ، وقد فوجئت شجر الدر بهذا الطلب الصريح الجرىء ، ولكنها ملكت أعصابها ، وقالت له بهدوء : إنها لا ترد طلبه ، ولكنها لا تريد أن تفكر فى الزواج ، حتى ينتهى أمر الملك الناصر صاحب دمشق وتأمن على مصر وعلى نفسها من غزوه وتهديده ، فاقتنع منها أقطاى بهذا الجواب ، وحسب ذلك وعدا منها بالقبول فاطمأن قلبه ، وجعل همه القضاء على الناصر وجنوده .

وأما ذهب قطز رسولا من أستاذه إلى شجر الدر ، لم يشأ أن يصرح لها برغبة

سيده في زواجها ، ولكنه عرض لها بذلك تعريضا لطيفا ، فكان مما قاله لها :
« مولاتي السلطانة ، إن أستاذي بعثني إليك في أمرين : أحدهما أن تنجزي وعدك لمملوكه بالزواج من وصيفتك ، والآخر أنه إذ يعلم أنكِ لا تحبين فراق وصيفتك ، وهو لا يقدرعلى فراقي ، فإنه يتوسل إليك أن تسمحي لنا أنا وهي بأن نعيش في خدمتكما معا » .

فسكتت الملكة هنيهة تفكر فيما قال ، ثم سألته في صوت هادىء رزين :
« أي هذين الأمرين أحب إلى أستاذك أن أقضيه له ؟ » .

فطرب قطز إذ أدرك أن الملكة فهمت تلميحه وأرادت أن تستوضحه فحْوَى كلامه لتستوثق من صواب ما فهمت ، فبدرها قائلا :
« الأمر الثاني يا مولاتي السلطانة » .

فقالت له الملكة : « كيف عرفت ذلك ؟ » .

فأجابها قائلا : « لأن الأمر الثاني يتضمن الأمرين معا » .

فتورد وجه الملكة خجلا ، وصفقت بيدها فأُتي لها بماء في كوب من الذهب فشربت منه ، ثم التفتت إلى قطز وقد سكن ما بها ، وعادت إلى هيئتها الأولى ، وقالت له :
« ارجع إلى أستاذك فقل له إني لا أستطيع أن أقيم عرسا وجنود الناصر على أبواب مصر » .

فقال لها قطز :
« يا مولاتي السلطانة ، أحسب أن في هذا ظلما لي وإخلافا لوعدي » .

فاستغربت شجر الدر ما قال ، وقالت له : « كيف ذاك ؟ » .

قال : « هل لي أن أقول لأستاذي إن السلطانة لا تستطيع أن تقيم عرسين في القصر وجيوش الناصر على أبواب مصر ؟ » .

فأجابته الملكة بين التقطيب والابتسام :
« قل له ما بدا لك أيها المملوك الماكر وانصرف من هنا » .

فشيعته الملكة ببصرها ، وهمست تقول :

« لا خوف على عز الدين أيبك وهذا المملوك عنده » .

وفهم عز الدين مما بلغه قطز أن شجر الدر تعده بقبول الطلب بشرط أن يهزم الناصر وجنوده ، ولم يكتف مملوكه بأن ينقل لأستاذه كلام الملكة ، بل أخذ يشرح له ما استنبطه من سرها ، وما قرأه على أسارير وجهها وفسَّر ذلك كله بأنها تحب أستاذه ، لا شك في ذلك عنده .

وأخذ عز الدين يشككه في ذلك ، فيقول له قطز : « ألم أتبين حبك لها قبل أن تخبرني به ؟ » ، فيقول له عز الدين : « بلى » . فيقول قطز لأستاذه : « فقد تبينت حبها لك من حيث تبينت حبك لها » .

فعزم الملك المعز أيبك أن يسير بنفسه لملاقاة الناصر وجنوده ، وأن لا يكتفي في ذلك بتسيير قوَّاده لئلا ينفرد دونه فارس الدين أقطاي بظفر هذا اليوم العصيب .

وكان الملك الناصر قد حشد الجنود لأخذ مصر من أيدي المماليك ، وانضم تحت لوائه عصبة من ملوك بني أيوب بالشام أشهرهم الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق السابق ، فسار إليه عز الدين أيبك بعساكره ، واستصحب معه كبار قواده ، ولقي جموع الناصر بالرمل بين الخشبي والعباسية ، فدارت بين الفريقين معركة هائلة ، كانت الدائرة في بادىء الأمر على الجنود المصريين ، فانهزموا حتى وصل بعضهم إلى القاهرة في غد يوم الوقعة وكان يوم الجمعة فما شك الناس في أن الأمر تم للملك الناصر ، وخطب له في جوامع البلاد كلها ، إلا جامع القاهرة حيث كان يؤم الناس فيه الشيخ ابن عبد السلام ، فما انقضت صلاة الجمعة حتى وردت البشائر بهزيمة الناصر وفراره إلى دمشق ، وانتصار الملك المعز ، فزينت البلاد لمقدمه ظافرا ومعه الأسرى من الملوك ، وفيهم الملك الصالح إسماعيل ، فلما مر الموكب بتربة الملك الصالح أيوب ، أحدق المماليك البحرية بالصالح إسماعيل ، وجعلوا يصيحون : « يا مولانا ، أين عينك

ترى عدوك إسماعيل ؟ » .

ولما دخل المعز إلى القلعة تلقاه السلطان الصغير الملك الأشرف موسى وهنأه بالظفر ، فصاح فارس الدين أقطاى قائلا للملك الأشرف : « كل ما حصل إنما حصل بسعادتك ، وما سعينا إلا فى تقرير ملكك » . ولسان حاله يقول للملك المعز : « إياك أعنى واسمعى يا جارة » !

واهتم قطز بأمر الملك الصالح إسماعيل السجين بالقلعة ، وتذكر خيانته لله ولرسوله — أيام كان ملكا على دمشق — وبيعه بلاد المسلمين لأعداء الله الصليبيين ، وما كان من اضطهاده لشيخه الشيخ ابن عبد السلام وأنصاره المجاهدين ، فأشار على أستاذه الملك المعز بقتله ، فلما رأى تردده فى ذلك استخرج له فتوى من الشيخ ابن عبد السلام باستحقاق هذا الملك الخائن للقتل ، فأمر به المعز فقتل خنقا ، ولقى جزاء خيانته لدينه ووطنه .

وأخذ فارس الدين أقطاى يستنجز شجر الدر وعدها ، فكان يبعث إليها ركن الدين بيبرس رسولا من قبله ، فتتلقاه الملكة بالترحيب ، وتحسن الإصغاء إلى حديثه وهو يعدد لها مناقب صاحبه وشجاعته وفروسيته وقوة ناصره وكثرة أتباعه ، ويصف لها وقائعه وبلاءه فى المعارك التى شهدها ، وأثره فى إحراز النصر لمصر فى كل غارة تشن عليها ، فينطلق لسان بيبرس فى وصف ذلك انطلاقا عجيبا ، ويصوره تصويرا قويا يأخذ بمجامع قلب الملكة ، ويستولى على مشاعرها حتى يخيل إليها أنها تسمع صليل السيوف وقعقعة الرماح وحفيف السهام وصهيل الخيل وصيحات الأبطال ، وتشهد الصفوف تزحف ، والصفوف تنهار ، والفرسان تكر ، والأعداء تنهزم وتفر ، وترى الفارس أقطاى كالأسد الهائج يقدم ولا يحجم ، والجواد يتوثب به فيعلو حينا وينزل به حينا ، والسيف فى يمينه ، والأبطال تخر صرعى عن يمينه وشماله .

ولكن بيبرس قلما يصف لها حب صاحبه وغرامه بها وإذا تعرض لذلك ففى جمل بكيئة لا تخرج من القلب فلا تصل إلى القلب ، وأنى لبيبرس أن يصف

شيئا لا يعرفه ولا يحس به ؟ وعلام يعنى نفسه فى صوغ كلمات لا تطرب لها شجر الدر كما تطرب لحديثه المتدفق الممتع عن بطولة صاحبه وشجاعته فى ميادين القتال ؟ .

أما قطز فإنه لا يعدد لشجر الدر ما تعلم من مناقب أستاذه وخلاله ، بل يجتزىء فى ذلك بالإشارة إلى دينه وعفته ، وصدقه وأمانته ، وإخلاصه ووفائه ، ثم يفيض فى شرح حبه وبث غرامه ، ويصور لها خطرات نفسه وخلجات ضميره ، ويسمعها وجيب قلبه وحنين فؤاده ، واصفا فى خلال ذلك الفينة بعد الفينة صورتها فى عينه جميلة رائعة ، نقية طاهرة ، جامعة بين محاسن الخلق ومكارم الخلق . وكان قطز إذا ما أخذ فى هذا الحديث نسى أنه ينوب عن أستاذه ويقول على لسانه واستحضر حبيبته جلنار كأنها جالسة أمامه حيث تجلس شجر الدر من أريكتها ، وكأنه يبثها ما فى قلبه من لواعج الحب ومرارة الشكوى ورقة الحنين . فكانت كلماته تقع من الملكة موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فما تملك الملكة نفسها أن تتنهد مسارقة من حين إلى حين . ولولا أنفتها أن يظهر عليها الضعف أمام المملوك الرسول ، وقدرتها على امتلاك عواطفها والاحتفاظ بهدوئها ، لأرسلت دموعها وعلا صوتها بالنحيب .

وما لبثت وصائفها أن شعرن بما يدور بينها وبين هدين الرسولين المتنافسين أيهما يغلب الآخر فى اجتذاب قلبها إلى صاحبه . فأخذن يتربصن وصولهما ، فإذا جاء أحدهما همس بعضهن لبعض فوقفن على أبواب المقصورة على أطراف أرجلهن يتطلعن من وراء الستائر ويتسمعن إلى الحديث حابسات أنفاسهن حتى إذا انقضى الحديث عدن إلى أماكنهن كأن لم يعلمن بشىء وقد انقسمت الوصائف فريقين : فريقا يتشيع لقطز ، وفريقا أقل منه عددا يتشيع لبيبرس ، وفى هذا الفريق حواسد جلنار اللائى لا يطقن أن يشهدن لحبيبها بالسبق فيعمدن إلى الحط منه ومن أستاذه والمبالغة فى رفع بيبرس وصاحبه .

أما جلنار فقد كانت تصمت بينهن ولا تقول فى حبيبها ولا منافسه شيئا ، وإذا

تطلعت مثلهن وتسمعت للحديث وقفت وحدها بعيدا عنهن وفرائصها ترعد وشفتاها تختلجان خشية أن يتفوق بيبرس على حبيبها قطز . وخطر لها يوما وهى تنظر إلى بيبرس من خلل الستور — وكانت قد عرفت من أمد بعيد أنه هو رفيقها القبجاقى الأشقر ذو العيون الزرق فى سوق الرقيق بحلب — أن سيدتها قد تزوجها منه إذا غلب قطزا وتزوجت شجر الدر أقطاى . فأصابها الدوار وكاد يغشى عليها فى موقفها ذلك لولا أنها سحبت نفسها إلى مخدعها فارتمت على سريرها . فما تطلعت بعدها إلى مشهد بيبرس . واكتفت بالتطلع إلى مشهد حبيبها إذا جاء فتتبقط حديثه كأنه يسوقه إليها ويعنيها به إذا اندفع فى مناجاته الغرامية ، فما تملك دموعها تسيل على خديها .

وكان مما وعت من حديثه يوما أن قال : « أيتها السلطانة العظيمة ، يا أجمل غانية رويت من ماء النيل ! لا تعجبى إذا قصرت فى تصوير ذلك الحب العظيم الذى ضاقت به الدنيا ووسعه صدر من بعثنى إليك ، ولا تعجبى إذا أنا أحسنت البيان فقد أعارنى أستاذى قلبه النابض الكبير وأعرته لسانى العاجز الصغير ، وأيقنى أن لسانى مهما أجاد التصوير وأفاض فى التعبير فإنه لا ينال من مكنون ذلك الصدر إلا مثل ما يتعلق بمنقار الطائر من ماء البحر ».

« مولاتى السلطانة ، ياأجمل غانية رويت من ماء النيل ! لو كان أستادى مجوسيا لكنت ناره التى يعبدها ، ولو كان وثنيا لكنت صنمه الذى يتوجه إليه . ولكنه مسلم صادق الإيمان ، فأنت كعبته و صلاته ، وأنت الزلفى التى يتقرب بها إلى الله ».

« مولاتى السلطانة ، ياأجمل غانية رويت من ماء النيل ! لقد ضرب الله فى كتابه للناس أمثالا لعلهم يعقلون ؛ فضرب مثلا لنوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . وأين نور الله الذى أشرقت به السماوات والأرض يا مولاتى من هذه المشكاة ؟».

وضرب للحب مثلا أميرا وأميرة ، ابنى عم صغيرين نقلتهما الأقدار من نعيم الملك إلى أيدى اللصوص ، فباعوهما فى سوق الرقيق . فعاشا معا فى كنف مولى صالح وعدهما بالعتق وبالزواج لمكان حبهما ، فمات قبل أن ينجز وعده ، فتفرقا فى أيدى المالكين ، وباعدت بينهما البلاد ، فظل كلاهما دهرا يحن إلى أليفه حنين اليأس ، إلى أن جمعتهما الدار يوما فرآها بعد القنوط فثار به حبه القديم ؛ فوالله الذى فلق الحبة وبرأ النسمة للحب الذى أجتهد فى شرحه بين يديك أعظم من حب ذلك الأمير لابنة عمه الأميرة !

وكان جواب الملكة العظيمة لكلا الرسولين : أن خطر الناصر على مصر لا يزال قائما ، وأنها لن تفكر فى الزواج حتى يزول . فجعل أقطاى يقود الحملة أثر الحملة لقتال الناصر وأشياعه بالشام ابتغاء مرضاة شجر الدر . ويغار عز الدين من أن ينفرد خصمه بشرف الانتصار دونه فيسير أحيانا بنفسه لقتال الناصر ، وينيب مملوكه الأمين على البلاد . حتى تقرر الصلح بينه وبين الناصر على أن يكون للمصريين إلى الأردن داخلا فى ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل كله ، وللناصر ما وراء ذلك .

فلم يبق لدى شجر الدر ما تتعلل به من أمر الناصر دون الزواج ، ولكنها لم تشأ أن تتعجل الفصل فى هذا الأمر العظيم الذى يقوم عليه مستقبلها الغامض ، فلم تعدم معاذير أخرى تستأجل بها البطلين المتنافسين ، وظلت توازن بينهما أيهما تمنحه رضاها وتأمنه على مصيرها . ونظرت فوجدت أمامها رجلين أحدهما يحبها ويخضع لها أكثر من صاحبه ، والآخر تعجب به لقوته وبطولته أكثر من أخيه ، فمال قلبها إلى الأول . ولكنها لم تشأ أن تقطع بقبول عز الدين أيبك ، حتى ترى ما يكون من أمره إذا نفد صبر فارس أقطاى فعزم على مواثبته جهارا . فرأت على أن تعمل على تأريث نار الخصام بينهما فتستعجل بذلك يوم الفصل . فقالت لرسول عز الدين لما جاءها : قل لأستاذك إنى لا أقبل أن أتزوج نصف ملك ، فإذا صار ملكا تزوجته .

ففهم عز الدين أنها تحرضه على عزل السلطان الصغير ، الملك الأشرف ، والاستقلال بالملك دونه ، وكان قد فكر زمنا فى ذلك ، إذ رأى أن أركان ملكه لا تثبت بدونه ، لأن الأمراء المماليك وخصمه أقطاى خاصة يتخذون حق السلطان الصغير سببا يعترضون به على سلطته ، ويتداخلون به فى شئونه ، فلما وجد شجر الدر تقترح عليه ذلك صدع بأمرها وتوكل على الله .

وما هى إلا أيام حتى انفرد الملك المعز بملك مصر ، وأزيل إسم الملك الأشرف من الخطبة ، وقبض عليه فسجن بالقلعة ، والملك الصغير لا يدرى لماذا أجلسوه على العرش ، ثم لماذا أودعوه السجن ، وهو لم يأت عملا استحق به العرش فى الأول ، ولم يقترف جرما استحق به السجن فى الآخر .

وكبر على فارس الدين أقطاى ما فعل الملك المعز ، وأيقن أن قد آن أوان الجد فى منازلة خصمه العتيد ، فجمع إليه أشياعه وأتباعه واستعد للوثوب ، ولكنه لم يشأ أن يستعجل الأمر ويثب فى وضح النهار لئلا يثير بذلك خوف شجر الدر منه ، فتتقى شره بتحريض سائر الأمراء والمماليك عليه — وكلمتها مسموعة عندهم ، ولا يجرؤ أحد منهم على مخالفتها — فيبوء بالخيبة وينتصر خصمه عليه ، لا سيما وهو لم ييأس بعد من اكتساب رضاها إذ ذاك ، ولم تقطع أمله فى الوفاء بما وعدته به ، فهذا رسوله بيبرس لا يزال يتردد إليها ، فتلقاه بما يسره من الوعود ، ويفهم من ذلك أن الملكة لا تمد يدها إلا إلى الغالب .

فقر عزم أقطاى أن يكيد للملك المعز ، بنشر الاضطراب فى البلاد حتى يظهر بذلك عجز الملك المعز عن القبض على زمام الحكم ، وحينئذ تتلفت البلاد فلا تجد غير أقطاى .

فأوعز أقطاى إلى خشداشيته من المماليك البحرية وأتباعهم ، فعاثوا فى الأرض فسادا واستطالوا على الناس . فجعلوا يأخذون أموال العامة ونساءهم وأولادهم بأيديهم فلا يقدر أحد على منعهم ، حتى بلغ من بغيهم وفسادهم أن كانوا يدخلون الحمامات يأخذون النساء منها غصبا ، فإذا قيل لأقطاى فى ذلك

قال :« لا قدرة لى عليهم ، فدعوا الملك المعز يكفهم عن البغى فى البلاد ».

أما الملك المعز فقد حاول فى أول الأمر أن يسترضى أقطاى ، فأغدق عليه الأموال ، وأقطعه ثغر الإسكندرية ، وكتب له منشورا بذلك طمعا فى أن يكف شره عنه وشر أتباعه . ولكن أقطاى عد هذا ضعفا من جانب المعز ، فزاد طمعه فيه وقوى أمله فى الانتصار عليه .

ونظرت شجر الدر إلى ما انتهت إليه الأمور فى الصراع بين البطلين المتنافسين فيها وفى عرش البلاد ، فأدركت بحكمتها ودهائها ، أن السلاح الذى استعمله أقطاى سيرتد فى نحره يوما ما فيقضى عليه ، لأن الناس قد ضجوا من فساد أتباعه وأخذوا يجأرون بالشكوى منه ، وهى تعرف قوة العامة وأثرهم فى تقرير مصائر الرؤساء والحكام ، فبتت فى أمرها ، وأعلنت الملك المعز بعزمها على التزوج به ، ولم تشأ أن تتباطأ فى ذلك فعجلت به .

وما راع الناس إلا زفاف الملكة شجر الدر إلى الملك المعز ، وإقامة الزينات والأفراح فى القلعة والقاهرة وسائر المملكة المصرية ، فدقت الطبول ونشرت الأعلام ، وقدمت وفود الرجال والنساء من سائر البلاد يهنئون الملكين العروسين على زواجهما السعيد .

وأسقط فى يد أقطاى ، إذ رأى أمله ينهار أمامه ، وأدرك أن شجر الدر كانت تخادعه وتمنيه بالباطل ، فاضطرم قلبه حقدا عليها ، ونوى أن ينتقم منها ، ولو فقد فى سبيل ذلك رأسه الذى على عنقه . فجمع أصحابه وأتباعه وهدد بهم غيرهم من المماليك البحرية لكى ينضموا إليه ، ويبسط عليهم نفوذه . وجهر بمعارضة أوامر الملك المعز ، واستبد بتدبير الأمور دونه ، ووضع مقاليد السياسة فى أيدى أتباعه ، فلم يبق للملك المعز معهم أمر ولا نهى ، ولا حل ولا عقد ، وعاد لا يسمع أحد منهم له قولا ، فإذا رسم لأحد منهم بشىء ، أخذ أضعاف ما رسم له ، وإن أمر لأحد من غيرهم بشىء ، لم يمكن من إعطائه ما أمر به . واجتمع الكل على باب فارس الدين ، وصارت كتب الملك الناصر وغيره إنما

ترد إليه ، ولا يقدر أحد أن يفتح كتابا أو يرد عليه ، أو يبرم أمرا ، أو يتكلم بشيء إلا بحضوره .

وهذا عقابه للملك المعز ، فأين عقابه للملكة شجر الدر ، وأين انتقامه منها ؟ إن عقابها لا يتم إلا بإنزالها من قلعة الجبل ، لتحل محلها زوجة له من بنات الملوك . وقد أحكم تدبيره لهذا الأمر من قبل ، فما راع الناس إلا النبأ العظيم بأن الأمير فارس الدين أقطاى قد صاهر الملك المظفر ، صاحب حماة ، وأن ابنته قد حملت إلى دمشق ، فى موكب عظيم ، لإحضارها إلى مصر حيث تزف إلى من بيده فيها الأمر والنهى .

وركب أقطاى فى عصبة من أصحابه إلى الملك المعز بقلعة الجبل ، فأخبره بإصهاره إلى الملك المظفر صاحب حماة ، وطلب منه الإذن له بأن يسكن قلعة الجبل بعروسه من سلالة الملوك . فوجم الملك المعز هنيهة ، ثم قال : إنه سينظر فى طلبه . فقال له أقطاى :« لا أرى موضعا للنظر فى هذا الطلب . وإن كنت إنما تريد استشارة شجر الدر ؛ فما أحسبها تستنكف أن تنزل عن سكنها فى قلعة الجبل لابنة ملك من بيت مواليها وأولياء نعمتها ». فانقطع المعز ولم يجب .

ولما سمعت شجر الدر بالخبر أيقنت بالخطر وأدركت أن الأمر كله جد لا هزل فيه ، وأن ابنة الملوك آتية لا ريب فيها ، فنازلة بقلعة الجبل كما شاء أقطاى ، إذا لم تعجل بالضرب على يده . وقد عرفت أنه قصد بذلك إرغام أنفها ، وتحدى كبريائها ، وكسر نفسها ، انتقامامنهالأنها آثرت عز الدين أيبك عليه . وكان قد أزعجها قبل ذلك تحدى أقطاى لسلطة الملك المعز ، وتعديه على حقوقه ، واستبداده بالأمور دونه حتى كأنه هو الملك ، فأخذت تفكر فى التخلص منه ، ولكن هذه الطامة الأخيرة هى الطامة الكبرى . فلتظفر به قبل أن يظفر بها .

فأشارت على زوجها ألا يعارض أقطاى فى شيء ، وأن يتظاهر بالرضا عن طلبه ، وأوعزت إلى سيف الدين قطز ، مملوك زوجها ،أن يلقى فى أذن صديقه

بيبرس أن الملكة قد عزمت على التحول من قصر القلعة وتركه للأميرة القادمة . ونفذت شجر الدر هذا التدبير بالفعل ، فجعلت تظل نهارها بقلعة الجبل ، حتى إذا أمسى المساء ، انتقلت مع جواريها وحاشيتها إلى قصر آخر ، أسفل القلعة ، فأوقدت فيه المصابيح . فلم يشك أقطاى أن شجر الدر إنما عجلت بإخلاء قلعة الجبل لكيلا تأتى زوجته الأميرة إلا وهى فى قصر آخر ، فتخفف على نفسها بذلك معرة الخنوع لإرادته . فاطمأن أقطاى إلى حاله واعتز بنفسه ، واعتقد أن الأمور ستواتيه ، وأن الملك سيتم له .

وبعثت شجر الدر إلى مملوك زوجها ، فقالت له :« إنى أريد أن أفى بوعدى وأزوجك جلنار ، ولكنى لا أحب أن يتم عرس وصيفتى الأثيرة عندى فى غير قلعة الجبل ، وقد رأيت أننا أخليناها لذلك الذى لا يقدر عليه أحد فى مصر ، ليسكنها مع زوجته !».

فأدرك قطز أن الملكة تحرضه على قتل فارس الدين أقطاى ، وتعده بإنجاز ما وعدت إذا هو خلصها من شره . فدار بخاطره أن الملكة ربما لم تماطله وعدها إلى ذلك العهد إلا لتندبه لمثل هذا العمل الخطير ، وتطلب منه أن يقدم رأس أقطاى مهرا لجلنار ، وإنه لمهر كبير ولكن جلنار أثمن من ذلك . وقد بدا من ظلم أقطاى وبغيه على الناس وفساد أصحابه فى البلاد ما يستحل به دمه ويتقرب إلى الله بقتله . وكذلك قد رأى أستاذه الملك المعز لن يستقر له أمر ولن يثبت له ملك حتى يزول أقطاى من الوجود .

فأعلن قطز إلى الملكة وإلى أستاذه الملك المعز أنه كفيل لهما بقتل أقطاى ، فاتفق الثلاثة على أن يدعى أقطاى لمقابلة المعز فى القلعة ، حتى إذا بلغ الدهليز برز له قطز فقتله . وأشار المعز على قطز أن يختار جماعة ممن يثق بهم من مماليك المعز وأشياعه ليساعدوه فى مهمته الخطيرة ، فقال قطز :« إننى أكفيكه وحدى ».

قال المعز : « إنه شديد القوة كريه اللقاء يا قطز ، ونحن بعد بحاجة إليك ، ولئن أفلت من يدك ليكونن فيه هلاكنا . وما زال بقطز حتى رضى بأن يعاونه إثنان اختارهما من مماليك المعز وهما بهادر وسنجر الغتمى .

وكان قطز وبيبرس لا يزالان صديقين إلى ذلك العهد ، فكان أحدهما إذا أراد الخروج للصيد مع أصحابه دعا الآخر فخرج معهم . واتفق يوما أن عزم بيبرس على الخروج للصيد ، فدعا قطزا لمرافقته فى غد ذلك اليوم ، وعلم منه قطز أنه سيخرج مع جماعة كبيرة من أصحابه من كبار أشياع فارس الدين أقطاى . فرأى قطز أن يغتنم فرصة غياب هؤلاء عن البلد لينفذ ما تعهد به من اغتيال أقطاى . فأظهر لبيبرس الموافقة على اقتراحه ، ولكنه بعث إليه فى صباح اليوم التالى من اعتذر له عن الخروج بانحراف مزاجه .

ولما تأكد قطز من خروج بيبرس وجماعته دخل على أستاذه فأخبره أن الفرصة قد سنحت .

فبعث الملك المعز إلى فارس الدين أقطاى يدعوه إليه ليستشيره فى أمر مهم . وكان أقطاى قد اطمأن من جهته لما أظهره من موافقته ومصانعته ، ولما رأى من نزول شجر الدر عن قصرها بالقلعة ، فلم يصغ إلى مماليكه الذين نصحوه أن لا يجيب دعوة الملك المعز ، وقالوا له إنما دعاك ليكيد لك فانتظر حتى يرجع بيبرس وقلاوون الألفى وسنقر الأشقر من الصيد ، فقال لهم : « إنى لا أنتظر فى أمر كهذا حتى يرجع هؤلاء ، ولكن هؤلاء يجب أن ينتظروا حتى أرجع ».

وركب أقطاى غير مكترث بنصيحة مماليكه ، فقالوا لا نتركك وحدك وركبوا معه ، فعندما دخل القلعة وصار إلى قاعة العواميد أغلق باب القلعة ومنع مماليكه من العبور معه ، فأحس بالشر ووضع يده على مقبض سيفه ، ومنعه كبرياؤه عن النكوص فمضى فى طريقه ، فلقيه قطز وصاحباه فى الدهليز ، فلما رآهم قال لهم بلهجة الآمر : « اذهبوا فافتحوا الباب لمماليكى » .

فقال قطز لصاحبيه : « اذهبا فافتحا لمماليكه » ، فمر الرجلان حتى صارا خلفه ، فمضى به قطز قدما فى الدهليز فقال له : « أعطنى سيفك فلا ينبغى للملك أن يقابله أحد رعيته والسيف معه » . فغضب أقطاى وصاح فى وجهه قابضا على سيفه : « أتجردنى من سيفى أيها المملوك القذر ؟ » .

فبدره قطز فطعنه فى جنبه بخنجره وهو يقول له : « بل أجردك من حياتك وأطهر البلاد من رجسك » .

فثار أقطاى وحمل على قطز بسيفه واضعا يده الأخرى على فم الطعنة فى جنبه ، فسل قطز سيفه فلقيه به ، وأراد الآخران ضرب أقطاى من خلفه فصاح بهما قطز : « دعاه يقتله المملوك القذر وحده لئلا يقول الناس قتله ثلاثة من مماليك المعز » . فبقى قطز يواثبه ويتقى ضرباته الهائلة يبغى بذلك أن تخور قواه للطعنة التى فى جنبه وأقطاى يصيح : « يا ملعون اثبت لى » . فيجيبه قطز : « يا زوج الأميرة اثبت لنفسك » ، حتى نزف أقطاى الدم ونهكته المواثبة ، فخانته قدماه فوقع كالجمل البارك وما تكف يده عن الضرب بسيفه يمينا وشمالا ، وقطز أمامه ينظر إليه ، وهو يقول لقطز فى صوت كالحشرجة : « ادن منى يا صديق بيبرس . ادن منى » .

وكانت الملكة شجر الدر تطل على المشهد من مقصورتها والملك المعز يشرف من ديوانه . فنادت الملكة بصوت يسمعه أقطاى : « يا مغرور دع بنت الملوك تنفعك » . فلما سمع صوتها اجتهد أن يرفع طرفه ليراها فوقع على ظهره وهو يقول : « يا خائنة ! » ولم يقل بعدها شيئا .

ولما استبطأ مماليكه الذين على الباب خروجه ، أيقنوا بأن المعز قبض على أستاذهم ، فانطلقوا يذيعون خبره بين أصحابه ، حتى بلغ بيبرس وجماعته وهم فى الصيد فرجعوا مسرعين ، وجمعوا أتباعهم فركبوا إلى قلعة الجبل فى سبعمائة فارس يتقدمهم بيبرس فوقفوا تحت القلعة يطلبون تسليم زعيمهم ، فما راعهم إلا رأس

أقطاى قد رمى به المعز إليهم وناداهم قائلا : « انجوا بأنفسكم قبل أن ينالكم ما نال رئيسكم » .

فأسقط فى أيدى القوم وأيقنوا أن المعز لم يجرؤ على ما فعل إلا وقد استعد لهم ، فسرى فى قلوبهم الرعب فانطلقوا متفرقين وخرجوا فى الليل من القاهرة ، فمنهم من قصد الملك المغيث بالكرك ، ومنهم من سار إلى الملك الناصر بدمشق فيهم بيبرس ، ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقاء والقدس يقطع الطريق ويأكل بقائم سيفه ، وجعل بيبرس من ذلك اليوم يقول : « لقد فعلها صديقى فىّ ، والله ليكونن من قتلاى » .

الفصل الثانى عشر

قبض الملك المعز فى صباح اليوم الثانى على من بقى من حماعة أقطاي من المماليك البحرية ، فقتل رؤساءهم الذين يخشى منهم وحبس الباقين ، واستراح الناس من بغيهم وفسادهم ، وظلوا أياما يتذاكرون حديث مصرع أقطاى بيد سيف الدين قطز ، وأعجبوا بشجاعة قطز وبطولته ، وعظم فى عيونهم ، وأحبوه من ذلك الحين . وعرف الملك المعز لمملوكه الشجاع الأمين فضله عليه وعلى ملكه ، فزاد فى تقريبه وترقيته ، حتى أعتقه وقلده أكبر منصب فى الدولة وهو منصب نائب السلطنة ، فلم يزد قطز إلا إخلاصا له وتفانيا فى خدمته .

ولم تنس الملكة شجر الدر فضل هذا المملوك الشجاع عليها ، فبرت له بوعدها وأنعمت عليه بجلنار ، وكان الذى تولى عقد تزويجها له هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وكانت الملكة هى التى تولت بيدها إصلاحها وتزيينها ، وزفتها بنفسها إلى نائب السلطنة سيف الدين قطز .

وأقيم العرس السعيد فى قلعة الجبل ، وجلس الملك المعز لاستقبال وفود التهنئة بزواج مملوكه الوفى ، كما جلست الملكة تستقبل وفود النساء المهنئات بزواج وصيفتها الجميلة .

وانتصف الليل ، وانفضت جموع المدعوين والمدعوات ، وسكتت أصوات الغناء ، وألحان المزاهر والعيدان ، وخفتت الطبول ، وسكنت حركات الرقص ، وتناعست عيون المصابيح ، وأخذ الخدم يرفعون الموائد ويطوون الأخونة ، وآوت الجوارى إلى مخادعهن بين الفرح والحسرة ، وأرخيت الستائر على الجناح الميمون ، وخلا الحبيبان السعيدان .

فطاب اللقاء وساد الصفاء ، وسالت دموع الفرح ، وتحدث القلب إلى القلب ولذّت الشكوى ، ورقت النجوى ، وتذوكرت ذنوب الزمان ثم غفرت له دفعة واحدة ، ومرت اللحظات ، كأنها حبات عقد من اللؤلؤ النضيد وهي سلكه فانتثر وقرت بنعيم الوصل عيون طالما أسهدها البين الطويل ، فما كانت تنطبق إلا على لوم نافذ ، ومضجع قلق ،فمشى إليها النعاس مترفقا يستعتبها فأعتبته وضمته فى شوق بين أهدابها الساجية . فرقد اثنان الحب ثالثهما تحوطهما بسمات الله ورضوانه . وتحقق حلم فى الأرض ، وأجيبت دعوة فى السماء انطلقت من فم رجل صالح : واطمأنت روحا امرأتين غرقتا فى نهر السند ، وكانتا كثيرا ما تنظران إليهما صغيرين يلعبان فى حديقة القصر الملكى بغزنة فتتمنيان أن تريا مثل هذا اليوم .

حتى تنفس الصبح وبرد السوار ، فهب العروسان مذعورين يخشيان أن يكون ما كانا فيه رؤيا فى المنام ، والتمس أحدهما الآخر فى نور الغبش ؛ فإذا هما متعانقان .

وعاش الزوجان السعيدان حينا من الدهر فى قصر من قصور قلعة الجبل تحت رعاية سيديهما الزوجين السعيدين ولكن الزمان الغادر كان أبخل من أن يبقى على قصرين هانئين فى تلك القلعة التى طالما تعاقبت فيها المآتم والأفراح ، فما لبثت يده أن جالت فى حواشى القصر الكبير فتكدر صفوه ، ونضبت بشاشته ورحلت الطمأنينة عنه .

فإن المعز لم يكد يتخلص من أقطاى وجماعته ويأمن جانبهم وتستتب له الأمور ويدين له الجميع بالطاعة ، حتى استثقل سلطة الملكة شجر الدر ونفوذها عليه وتشبثها بما تدعيه من حقها فى الاستئثار بالسلطان دونه . إذ ترفع من تشاء وتضع من تشاء ، ويرى أمره مردودا إلى أمرها وأمرها ليس له رد ، وكان قد انقطع زمنا عن زوجته القديمة أم

ابنه على ، فعاد إليها وجعل يفكر فى مستقبل ابنه وتوطيد الأمور له ليكون خلفه على عرش مصر . فاستوحشت شجر الدر منه ، وغارت من ضرتها عليه كما غارت منه على سلطتها المهددة بالزوال .

وليست شجر الدر بمن يستنيم للحوادث أو يترك حبل الأمور على غاربها حتى يضيع حق قلبها فى الاستئثار بزوجها وحق نفسها فى الاحتفاظ بسلطتها العتيدة ، فعزمت على الكفاح دون هذين الحقين وعدم التفريط فى شىء منهما مهما يكلفها ذلك من المتاعب ، فرسمت للدفاع عن كلا الحقين خطة تجرى عليها : فأما حقها الأول ، فقد أمرت زوجها بالانقطاع عن زوجته الأخرى ، ولكى تستوثق من ذلك ألزمته بطلاقها . وأما الحق الثانى ، فكان أمره يسيرا عليها إذ جعلت تدنى إليها من لا يميل إلى الملك المعز من المماليك الصالحية ، وتقربهم وتوليهم المناصب ، وعمدت إلى خاصة رجاله ومماليكه وأشياعه فطفقت تقصيهم وتنزع منهم مقاليد الأمور . وما زالت كذلك حتى تعاظم نفوذها واستبدت بأمور المملكة فكانت لا تطلع الملك المعز عليها .

أما الملك المعز فقد شق عليه ما فعلت شجر الدر ، ولم تطب نفسه بتطليق أم ولده الذى كان يسعى فى توريث الملك له . فاشتدت الوحشة بينه وبين الملكة حتى خشيها على نفسه ، فنزل عن قلعة الجبل وأقام بمناظر اللوق حيث يبيت فيها مع زوجته أم على ، ولا يغشى قلعة الجبل إلا وجه النهار ليقوم فيها بشؤون الملك . وظلت الحرب بين الملك والملكة مستعرة من وراء الستار وكلاهما يفكر فى التخلص من الآخر . ومن عجيب أمرهما أنهما اتفقا فى وسيلة واحدة ظناها ناجعة فى هذا السبيل ، وأخذاها عن عدوهما البطل الصريع فارس الدين أقطاى ، وهى أن يرفعا من قدرهما بالإصهار إلى ملك من ملوك البيت الأيوبى . أما شجر الدر فقد بعثت أحد أمناء سرها بهدية فاخرة إلى الملك الناصر صاحب دمشق ، وأرسلت معه كتابا تعرض فيه على الملك الناصر التزوج بها على أن

تملكه مصر وتتكفل له بقتل الملك المعز . فخشى الملك الناصر أن يكون هذا خديعة منها فلم يجبها بشيء ، وأما الملك المعز فإنه بعث يخطب أخت الملك المنصور ابن الملك المظفر صاحب حماة عروس عدوه أقطاى التى لم تزف إليه ، فلما لم تقبل الأميرة الحموية طلب قاتل خطيبها عاد فبعث إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته ، فقبل الملك الرحيم طلبه وكتب إليه يحذره من شجر الدر ويعلمه بأنها باطنت الملك الناصر .

وعلمت شجر الدر بما كان من خطبة المعز لابنة صاحب الموصل كما علم هو بما عرضت على الملك الناصر . فتضاعفت الوحشة بينهما وكشر الشر عن أنيابه ، ولم يبق للوفاق بينهما سبيل . واحتاطت شجر الدر فأمرت وصيفتها جلنار بأن تنقطع عن خدمتها في القلعة . فانتقلت مع زوجها الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة إلى قصر آخر خارج القلعة . وكان قطز قد حار فى هذه المسألة الدقيقة بين الملك والملكة . فلأستاذه فضل عليه ولشجر الدر فضل على زوجته وعليه كذلك ، فظل زمنا يصرف أستاذه عن خطبة ابنة صاحب الموصل ويوصيه بأن يتريث فى الأمور ويعالجها بالحكمة والرفق ، حتى تخضع له شجر الدر أو يظفر بها إذا اقتضى الحال ذلك ، لكن أستاذه كان يحتج عليه بأنه لا يستطيع إجابة الملكة إلى ما سألت من تطليق أم ولده ، ولا يقدر أن يصبر على مجاهرتها بعداوته واستبدادها بالأمور دونه . فلا يسع قطزا إلا السكوت ، غير أنه لما علم بمكاتبة شجر الدر للملك الناصر قوى عنده عذر أستاذه فشد أزره في الباطن ، ولكنه بقى على ود الملكة فى الظاهر حفظا لسابق جميلها معه ومع زوجته .

وعلمت شجر الدر بعزم الملك المعز على إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة ، وأنه جاد فى ذلك ، فعزمت على أن تسبقه بالكيد قبل أن يخرج الأمر من يدها فبعثت إليه من حلف له بأنها ندمت على ما كان منها فى حقه ، واشتاقت إلى مصالحته ، ونزلت عن إلزامها إياه بتطليق أم ولده . وأنها ما فعلت ذلك إلا بدافع

من حبه والغيرة عليه ، متكلة في ذلك كله على ما لها من الدالة عنده . وقد تبين لها الآن أنها أسرفت في العتاب عليه ، وذهبت في عتابه إلى أبعد مما يقتضيه استصلاحه واسترجاعه إليها .

فرقّ لها الملك المعز حتى بكى ، وغلبه الحنين إليها ، والشوق إلى سالف عهدها وكان حبها لا يزال حيا في قلبه وإن رانت عليه المطامع وغشيت أهواءه السياسة . فما لبث أن انتعش لما سمع من استعتابها الرقيق ، وعز عليه أن لا يعتبها بعد أن بعثت إليه تسترضيه وترجوه المصالحة . فقال لرسولها إنه سيصالحها ويبيت عندها تلك الليلة .

وكانت شجر الدر قد أوصت رسولها بأن لا يخاطب الملك المعز في حضرة مملوكه نائب السلطنة ، ولكن قطزا علم بما جرى فنهى أستاذه عن المبيت في القلعة ، وحذره من كيد الملكة ، وأكدله أنها تنوى به الشر فلم يجد من أستاذه أذنا صاغية .

ولما اشتد قطز في نهيه احتد عليه المعز وقال له : « أرأيت لو نهيتك عن لقاء زوجتك جلنار كنت تدعها لقولي ؟ » فعرض عليه قطز أن يصحبه إلى القلعة ، فامتنع وقال له : « يا حبيبي لا تفعل ، كيف أصالحها وأسيء الظن بها ؟ » فوجم قطز وقال في نفسه : « ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .

وقضى الأمر حقا وقتل الملك المعز في الحمام ليلا بأيدى جماعة من خدم شجر الدر . وأشيع أن المعز مات فجأة في الليل ، وصاح الصائح في القلعة فانطلق مماليك المعز إلى الدور السلطانية وقبضوا على الخدم والحريم حتى أقروا بما جرى . فقبضوا على شجر الدر واعتقلوها في أحد أبراج القلعة ، ونُصب نور الدين على ابن الملك المعز أيبك سلطانا بقلعة الجبل ولقب بالملك المنصور ، وكان عمره خمس عشرة سنة . وأقيم الأمير سيف الدين قطز نائب

السلطنة على حاله ، وصار مدبر دولة الملك الصغير . ولما استقرت الأمور كان أول ما فعل الملك المنصور أن أمر فحملت شجر الدر إلى أمه ، فأمرت جواريها فضربنها بالقباقيب حتى ماتت فألقيَت من سور القلعة إلى الخندق ، ثم ووريت التراب بعد أيام ، وأسدل الستار على الملكة العظيمة المجاهدة شجر الدر صاحبة الملك الصالح أم خليل .

الفصل الثالث عشر

لما قدم بيبرس وجماعته المغاضبون إلى دمشق أكرمهم الملك الناصر ، وأغدق عليهم الأموال وخلع عليهم على قدر مراتبهم ، وما استقر بهم المقام عنده حتى جعلوا يحرضونه على قتال المعز وانتزاع مصر من يده . فظل الناصر يدافعهم عن ذلك ، لا يجيبهم إلى ما طلبوا ولا يؤيسهم من إجابته ، حتى تجدد الصلح الأول بينه وبين الملك المعز منصوصا فيه على أن لا يؤوى الملك الناصر أحدا من المماليك البحرية فما كان منهم إلا أن غادروا دمشق ولحقوا بالملك المغيث فى الكرك فأقاموا عنده يحثونه على غزو مصر ، ويعرضون عليه مساعدته فى ذلك . فتردد الملك المغيث برهة حتى بلغه موت الملك المعز . فتشجع وسير عسكره مع بيبرس فى ستمائة فارس . فجهز الأمير سيف الدين قطز عسكرا لقتالهم ، فالتقى الجمعان بالصالحية فانكسر عسكر المغيث وانهزم بيبرس إلى الكرك .

شق على بيبرس أن يغلب فى هذه المعركة ، وكان قد منى نفسه بالتقدم إلى مصر وأخذها من يد المعز ، والانتقام لرئيسه أقطاى منه ومن أصحابه ولا سيما صديقه قطز الذى أقسم هو ليقتلنه بيده . ولما رجع من هزيمته إلى الملك المغيث بالكرك آنس منه وحشة لأن المغيث اعتقد أنه غرر به وبعسكره إذ حرضه على غزو مصر ، فرأى بيبرس أن يعود إلى الملك الناصر لعله يجد عنده من العزم على غزو مصر فى هذه المرة بعد مقتل المعز ما لم يجد عنده من قبل . فبعث إلى الناصر يستأمنه ويستحلفه ، فأمنه الناصر وحلف له ، فرجع بيبرس إليه ، وعاد الناصر إلى بره وإكرامه .

وكان خطر التتار فى ذلك الحين قد عاد يتهدد بلاد الإسلام بأشد مما

كان فى أيام جنكيز خان . فقد انحدر منهم جيش كبير بقيادة طاغيتهم الجديد هولاكو فعصفوا بالدولة الإسماعيلية فى فارس ثم زحفوا على بغداد فقتلوا الخليفة أشنع قتلة ثم مضوا يسفكون الدماء وينتهكون الأعراض وينهبون الدور ويخربون الجوامع والمساجد ، وعمدوا إلى ما فيها من خزائن الكتب العظيمة فألقوها فى دهر دجلة حتى جعلوا منها جسرا مرت عليه خيولهم واستمروا على ذلك أربعين يوما وأمر هولاكو بعد القتلى بعد ذلك فبلغت عدتهم زهاء مليونى نفس .

سرت أنباء هذه الفاجعة التى حلَّت بعاصمة المسلمين الكبرى ، فاهتز لها العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه . وامتحن الله بها قلوب ملوكه وأمرائه ليعلم من يثبت منهم على دينه فينتدب لجهاد أولئك البغاة المشركين ، ومن يرتد منهم على عقبيه جزعا من الموت وخوفا على ما فى يديه من زينة العاجلة ومتاع الحياة الغرور ، فيوالى أولئك البغاة ويمالئهم على دينه وأمته ووطنه . فهذا الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد خشى التتار فأعانهم على إخوانه المسلمين المجاهدين بأربل ، وهذا الملك الناصر صاحب دمشق ، سليل هازم الصليبيين وسميه ، قد أنفذ ابنه الملك العزيز بهداياه إلى طاغية التتار ليسأله فى نجدة يأخذ بها مصر من المماليك .

ولكن فى مصر ــ مصر التى حمت الإسلام يوم فارسكور ، وهزمت الصليبيين ، وسجنت لويس التاسع فى دار ابن لقمان وردته إلى بلاده بخفَّى حنين ــ رجلا كأنما أعده جبار السماء للقاء جبار الأرض ! ومن أصلح لجهاد التتار من زوج جلنار الذى كان كل همه فى الحياة أن يعيش حتى ينتقم منهم لأسرتهما المجيدة ــ وهذا حظ نفسه ــ وحتى ينتصف منهم للإسلام ــ وهذا حظ دينه وملته !

فلم يكد نائب السلطنة المصرية يسمع بما حل ببغداد من نكبة التتار ، وبتحفز هولاكو للانقضاض على سائر بلاد الإسلام ، حتى ثارت شجونه ، وتمثلت له ذكريات خاله جلال الدين وجده خوارزم شاه ، وما كان من جهادهما

لهم في عهد طاغيتهم الأكبر جنكيز خان ، وكيف انتهى ملكهما على أيديهم وتشتت شمل أسرتهما فصاروا في الناس أحاديث . وأيقن أن دوره العظيم قد جاء لينتصف حفيد خوارزم شاه من حفيد جنكيز خان ، وأن رؤيا النبي ﷺ قد بدأت تتحقق . أليس هو اليوم حاكم مصر ، ومدبر دولتها ومصرف أمورها ، وليس لسلطانها الصغير إلا الاسم ؟!

وقد سرى الخوف من التتار إلى مصر لكثرة اللاجئين إليها من العراق وديار بكر ومشارف الشام . وأخذ هؤلاء يحدثون الناس بفظائع التتار وأفاعيلهم المنكرة ، من أشياء تقشعر لها الأبدان ، وتقف الشعور ، وتستك المسامع ، وتنخلع القلوب جزعا وهلعا ، فما يشك الناس بمصر أن التتار آتون إليهم لا محالة ، وأن دورهم سيحين يوما ما . وقد شاع فيهم اعتقاد قوى بأن التتار قوم لا يغلبون ، ولا يقوم لهم جيش ، ولا تقى منهم حصون . فانتشر بينهم الذعر ، وعزم فريق منهم على الرحيل عن مصر إلى الحجاز أو اليمن . وعرضوا أملاكهم ليبيعوها بأبخس الأثمان ، فكان على نائب السلطنة أن يبذل جهودا عظيمة لطمأنة الناس وتسكين خواطرهم ، وإفهامهم أن التتار ليسوا إلا بشرا مثلهم ، بل هم بما أعزهم الله به من الإسلام أقوى من أولئك الوثنيين ، وأجدر أن يثبتوا للبأس ، وأن يبيعوا نفوسهم غالية في سبيل الله ودينه . وكان الأمير سيف الدين قطز في خلال ذلك يختلف سرا إلى بيت شيخ الإسلام ابن عبد السلام ويستشيره في أمور كثيرة ، فلما سأله الشيخ عما أنجز من الأعمال استعدادا لقتال التتار ، شكا إليه قطز ما يلقاه من المصاعب ، لمكان الملك الصبي ، والتفاف بطانة السوء حوله وحول أمه ، يفسدون ما بينه وبين قطز فيتصدى لخلافه فيما يرى القيام به لازما في هذا الموقف . وكان الملك المنصور قد كثرت مفاسده وشغل عن شؤون الملك باللعب ومناقرة الديكة ، وتحكمت أمه فاضطربت الأمور وكرههما الناس . فأخذ ابن عبد السلام من ذلك الحين يشجع قطزا على خلع الملك والاستقلال بالسلطة دونه . بل جعل يوجب ذلك عليه إذ ليس في البلاد أصلح منه.

لجمع كلمة المسلمين ، حتى يتأهبوا لدفع غائلة التتار عن بلادهم .

وقد كان عزيزا على قطز المعزى أن يخلع ابن المعز أستاذه وولى نعمته ، وتردد طويلا فى ذلك ، وود لو استطاع أن يمضى فى عمله مع بقاء المنصور فى السلطة ، ولكنه رأى استحالة ذلك فى مثل هذا الموقف العصيب الذى يحتاج إلى اجتماع الكلمة وسرعة البت فى الأمور . فكان عليه أن يختار بين الوفاء لأستاذه الذاهب ، والوفاء لمصر الباقية . وفى الأول تعريض سلامة مصر وسلامة سلطانها نفسه لخطر التتار ، وفى الثانى الرجاء فى حمايتها وحماية سائر بلاد الإسلام من هذا الخطر الداهم . فصح عزمه على خلع المنصور .

واتفق إذ ذاك أن بعث الملك الناصر صاحب دمشق رسولا إلى سلطان مصر الملك المنصور يستنجد بعسكر مصر لصد التتار عن بلاده ، بعد أن يئس من إجابة هولاكو طلبه ، إذ كتب إليه هولاكو يأمره بالخضوع له وتسليم البلاد إليه . فاغتنم قطز هذه الفرصة ، وعقد مجلسا بقلعة الجبل عند الملك المنصور ، دعا إليه الوزراء والأمراء والعلماء والقضاة وأهل الحل والعقد ، وحضره سفير الملك الناصر . فتذاكروا أمر التتار وما أوجب الله على المسلمين من جهادهم ، ودفع شرهم عن البلاد ، وحفظ بيضة الإسلام منهم . فشعر الحاضرون شعورا واضحا بضعف السلطان ، وعدم صلاحيته للحكم فى مثل هذه الظروف الحرجة . وأن لا بد من سلطان قوى حازم يضطلع بهذا الأمر الكبير ، حتى لا يختلف الناس وتذهب ريحهم .

وكان الشيخ ابن عبد السلام فيمن حضر ذلك المجلس من العلماء ، فجهر بهذا الرأى فى غير تعريض ، واقترح أن يلى الحكم الأمير سيف الدين قطز لصلاحه وقوته ، حتى تتفق كلمة المسلمين . فدهش أهل المجلس من شجاعة الشيخ ابن عبد السلام وصراحته ، وأشفق عليه أصحابه ومحبوه أن يصيبه سوء من قبل السلطان والأمراء الذين يعز عليهم أن يخضعوا لقطز ، ويستأثر دونهم

بالسلطة . وحصل اضطراب فى المجلس ، وجهر الأمراء المماليك المعزية منهم والصالحية برفض الاقتراح . وعدوه افتئاتا على حق الملك المنصور . وكان أشدهم فى ذلك الأميران علم الدين سنجر الغتمى وسيف الدين بهادر وغيرهما من مماليك المعز ، وكاد يحصل ما لا يحمد فى المجلس لولا أن فضه الأمير قطز ، فانصرف الحاضرون وهم يتذاكرون ما جرى فى المجلس ، فمنهم من يميل إلى الأمير قطز وهم سواد الناس ، ومنهم من يميل إلى الملك المنصور وجلهم من الأمراء وأتباعهم . وخشى الأمير قطز على الشيخ ابن عبد السلام أن يجنى عليه الأمراء ، فرتب رجالا أشداء لحراسته حتى أبلغوه مأمنه ، وظلوا بعد ذلك يحرسونه أينما ذهب .

وانتهز الأمير قطز فرصة خروج كبار الأمراء ذات يوم للصيد ، فقبض على المنصور وأخيه قاقان وأمهما واعتقلهم فى برج بقلعة الجبل وأعلن نفسه سلطانا على مصر ، وجلس على سرير الملك وتلقب بالملك المظفر .

ولما رجع الأمراء من الصيد وبلغهم ما فعله نائب السلطنة ركبوا إلى قلعة الجبل وأنكروا ما كان من قبض قطز على المنصور وتوثبه على الملك . فاستقبلهم السلطان الجديد استقبالا حسنا وألان لهم الحديث ، واعتذر لهم بحركة التتار إلى جهة الشام فمصر ، والتخوف مع هذا من الناصر صاحب دمشق أن ينضم إلى التتار ويستنجد بهم للإغارة على مصر ، وقال لهم : « إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك قادر ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم ، أقيموا فى السلطنة من شئتم ، وإذا كان فيكم من يرى نفسه أقوى منى على الاضطلاع بهذا الأمر فليتقدم إلىّ لأحله محلى فيعفينى من هذه التبعة العظيمة ويتحمل مسئولية حفظ بلاد الإسلام أمام الله » .

فسكت الأمراء جميعا ونظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا .

وورد الخبر إلى مصر بأن الملك الناصر لما استبطأ حواب سلطان مصر أخذ

يفاوض التتار مرة أخرى ليساعدوه على غزو مصر ، فشق هذا على الملك المظفر ودعا السفير الشامي فقال له : « أما يستحي صاحبك أن يستنجد بنا على عدو الإسلام ، ثم يستنجد به علينا ؟ إذا لم يكن عنده إسلام فلتكن عنده مروءة ! » .

فجعل السفير يهدىء من غضب الملك المظفر ويقول له : « لعله استبطأ جوابكم فخشي أن تكونوا ضده » . فقال له الملك المظفر وهو يتميز من الغيظ : « فهب أننا كنا ضده لما بيننا من سالف الخلاف والتنافس ، أيرضى لنفسه ولدينه أن يتطوع لأعدائه وأعدائنا وأعداء الإسلام فيعينهم علينا ، ويمهد لهم السبيل لغزو بلادنا والقضاء على ما بقي فيها من دين وإيمان ؟ والله لئن لم يكف عن خيانته للدين لأسيرن إليه فأحطمنه قبل التتار ! » .

أما بيبرس فقد كان في غزة ، لما بلغه قبض خصمه الأمير قطز على الملك المنصور ، وإعلان نفسه سلطانا على مصر ،ففكر في مصالحة عدوه وصديقه القديم ، فبعث إليه يعترف له بالسلطنة ، ويعظم شأنه ويصف له ما يكابده هو من ذل الغربة وعذاب التشرد ، ويتوسل إليه بحق الصداقة القديمة أن يقيل عثرته ويقبل خدمته ، ويأذن له بالرجوع إلى مصر ، ليشد أزره في عزمه على قتال التتار .

فلما قرأ الملك المظفر قطز كتابه ، أدركته الرأفة فبكى وقال : « الحمد لله قد عاد صديقي القديم إلي » ، وكتب إليه جوابا رقيقا يسأله القدوم عليه ويعده بالوعود الجميلة .

ففارق بيبرس غزة ، وسار في جماعة من أصحابه عائدا إلى مصر ، فلما قارب القاهرة ركب الملك المظفر للقائه ، فعانقه واستقبله استقبالا حسنا ، وأنزله بدار الوزارة وأقطعه قصبة قليوب وأعمالها ، وأخذ الملك المظفر بعد ذلك يقربه إليه ويستشيره في أموره ، ويبالغ في إكرامه ومجاملته خشية من بدواته . ولم ينس ما يضمره له كبير أتباع أقطاي من الخصومة والحقد ، فاجتهد أن يستل

سخيمته من صدره ليتخذه عضدا له فى جهاد أعداء الإسلام ، لما يتصف به بيبرس من الشجاعة والبأس . وكثيرا ما نصحه بعض بطانته بالقبض على بيبرس حتى يأمن جانبه فلا ينتقض عليه فى وقت الخطر ، فكان يعرض عنهم ويقول لهم : « دعونى وصديقى بيبرس ، ليس لى أن أحرم المسلمين فضل بأسه وشجاعته » .

وكان بيبرس فى بدء إقامته بمصر يظهر الإخلاص للملك المظفر والاستعداد لخدمته ومناصرته ، ولكنه سرعان ما نسى جميل المظفر وإحسانه إليه ، وعند ما كثر اجتماعه بزملائه من المماليك الصالحية الذين رأوا الأمر قد خرج من أيديهم منذ مقتل أقطاى ، وغلبهم عليه المماليك المعزية ، فأوغروا صدره على الملك المظفر وحسنوا له الانتقاض عليه لاسترجاع سالف سلطانهم ، وذكروه بثأر رئيسهم فارس الدين أقطاى ، فصادف هذا هوى فى نفس بيبرس ، ولكنه أوصاهم بالكتمان ، وإرجاء الأمر إلى الحين المناسب ، ريثما يدبرون مكيدة للقبض على الملك المظفر وحلول بيبرس محله .

وكان الملك المظفر إذ ذاك يفكر فى تدبير المال اللازم لتقوية الجيش المصرى ، وتكثير عدده ، وتجهيزه بالأسلحة والعدد وآلات القتال ، وجمع الذخائر والأقوات والأرزاق الكافية لإعاشته وتموينه — إذ ليس ببيت المال ما يكفى للقيام بهذا الأمر العظيم ، فخطر بباله أن يفرض ضريبة على العامة وأملاكها لجمع المال اللازم : فعقد مجلسا حضره العلماء والقضاة والأمراء والوزراء والأعيان ، وفى مقدمتهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام . فاستفتى الملك المظفر العلماء فى جواز فرض الأموال على العامة لإنفاقها فى العساكر ، فتهيب العلماء الافتاء . وخافوا إن هم أفتوا بالجواز أن يغضبوا العامة عليهم ، وإن أفتوا بالمنع أن يبوءوا بغضب السلطان ، فظلوا يتدافعون الإفتاء حتى صدع ابن عبد السلام بفتياه العظيمة فسكت سائر العلماء وانفض المجلس على ذلك .

وكانت الفتيا صريحة فى وجوب أخذ أموال الأمراء وأملاكهم حتى يساووا العامة فى ملابسهم ونفقاتهم ، فحينئذ يجوز الأخذ من أموال العامة ، أما قبل ذلك فلا يجوز . فحار الملك المظفر فى الأمر لأنه إن سهل عليه الأخذ من أموال العامة فليس من اليسير عليه أن يأخذ من أموال الأمراء دون أن يحدث ذلك شغبا فيهم قد يوقد فى البلاد فتنة يصعب إطفاء نارها . فبعث إلى الشيخ ابن عبد السلام ، وشرح له صعوبة الأخذ من أموال الأمراء ، وتلطف معه ليفتيه بجواز الأخذ من أموال العامة إذا صعب الأخذ من أموال الأمراء . فلم يرض ابن عبد السلام وقال له : « لا أرجع فى فتواى لرأى ملك أو سلطان » ، وذكره بالله وبالعهد الذى قطعه على نفسه أن يقوم بالعدل وينظر لمصلحة المسلمين ، وأغلظ له فى ذلك حتى لم يشك الحاضرون أن السلطان سيقبض عليه ، فما كان من الملك المظفر إلا أن اغرورقت عيناه بالدموع ، وقام إلى الشيخ فقبله على رأسه قائلا : « بارك الله لنا ولمصر فيك ، إن الإسلام ليفتخر بعالم مثلك ، لا يخاف فى الحق لومة لائم » .

وبعث الملك المظفر إلى الأمير بيبرس فاستشاره فى هذا الأمر الخطير ، فخوفه بيبرس فى أول الأمر من عاقبة الأخذ من أموال الأمراء ، وأكد له أنهم سينتقضون عليه ولا يطيعونه . وكان غرضه بذلك أن يحمل الملك المظفر على نقض ما أفتى به ابن عبد السلام ، ليغضب هذا العالم لدينه فيثير الناس على المظفر . ولكنه لما بلغه أن المظفر رضى عن الشيخ لتشدده فى التمسك بفتياه ، وأثنى عليه لذلك ، رجع بيبرس إلى المظفر وقال له : « قد رجعت عن رأيى الأول ، وأرى الآن أن تمضى ما أفتى به الشيخ ابن عبد السلام ، وسأكون أول من ينزل عن أملاكه لبيت المال » . وكان بيبرس يريد بهذا أن يثور الأمراء على الملك المظفر ويخلعوه ويولوا بيبرس مكانه . وقد اجتمع بهم سرا وحرضهم على ذلك ، وأنذرهم بأن قطزا سيجردهم من أملاكهم وأموالهم ويساويهم بالعامة ، وأن فى

ذلك إخلالا بشرفهم وإسقاطا لحقوقهم ولن تقوم لهم بعد ذلك قائمة .

وأخذ أولئك الأمراء يستعدون لذلك اليوم الذى يفاتحهم فيه المظفر بالنزول عن ممتلكاتهم لبيت المال ، وتشاوروا طويلا فيما يقابلونه به عند ما يحاول بهم التنفيذ . وكانوا موقنين بأنه سيأخذهم بالشدة ، فتهيأوا لمقابلتها بمثلها ولو أفضى بهم ذلك إلى قتله .

وانتهى شيء من خبرهم إلى الملك المظفر فدعا الأمير بيبرس إليه وخلا به وقال له : « اتق الله يا بيبرس فى دينك ووطنك ، إننا لسنا فى وقت يكون لنا فيه أن نتنافس على الملك ، فأمامنا تبعات جسام نحو الأمة والملة . وقد ترى كيف يغير هؤلاء التتار المتوحشون على أطراف الشام وهم قادمون إلينا . فإذا لم ننهض لصدهم فسيكون مصيرنا مصير بغداد . وقد تعين علينا الجهاد فى سبيل الله ، فلنمض له ولنجمع عليه ، ولا تفرقنا المطامع والأهواء ولا الإحن والعداوات » .

فحاول بيبرس أن يتنصل مما عزى إليه ، فبدره السلطان قائلا : « لا تنكر ذلك بالقول يا بيبرس ، ولكن انكره بفعلك . واعلم أنى لو أردت قتلك لما أعجزنى ذلك ، ولكنى أضن برجل مثلك أن يقتل فى غير سبيل الله ، وأريد أن أستبقيك ليوم مع أعدائنا مشهود ، تكون لك فيه البطولة والفضل » .

قال بيبرس وقد ظهر الغضب فى وجهه : « أتهددنى يا سيف الدين ؟ فوالله إنى لأقوى منك ناصرا وأكثر عددا » .

قال السلطان : « وإنى والله لا أهاب عددك ، ولا أخشى ناصرك . ولو امتلأ الوادى بشيعتك من منبعه إلى مصبه لرجوت الله أن ينصرنى عليك ويكفينى شرك ولو أفردت وحدى ، فإن حسبى الله به حولى وقوتى وهو نعم الوكيل ! » .

فأطرق بيبرس مليا ، فمضى السلطان يقول : « إنك جئت إلىّ — وقد تقاذفتك بلاد الله الواسعة ، فضاقت عليك بما رحبت — تستقيلنى فأقلتك وقبلت

عذرك وأدنيتك من مجلسي واتخذتك صفيا لى لا أقطع أمرا دونك ، وأقطعتك من مال البلاد لتقوم بخدمتها ، فقل لى ماذا تقم منى فأنصفك من نفسى ؟ » .

فرفع بيبرس رأسه وقال ، وقد سكت عنه الغضب : « إنى ما أنقم منك إلا سوء ظنك بى » .

— « إنك أنت الذى أفسدت رأيى فيك ، وإنى لمستعد لأعود لحسن ظنى بك إذا قمت بواجبك نحو دينك وأمتك » .

— ماذا تريد منى أن أصنع لترجع عن سوء رأيك فى ؟

— ابسط يدك فعاهدنى أن تكون معى على هؤلاء المؤتمرين من شيعتك ، الذين طالما شبعوا من أموال الأمة ، ثم بخلوا عليها بالقليل حين تعرضت سلامتها للخطر .

— أعاهدك بشرفى ودينى أننى أقاتل معك أعداء الإسلام التتار حتى تنتصر عليهم أو أقتل دونك . أما الأمراء الذين ذكرت فشأنك وشأنهم لا أعينك عليهم ولا أعينهم عليك .

فمد السلطان يده فصافحه قائلا : « حسبى هذا منك أن تقاتل معى التتار وأن تكون بصدد الأمراء كفافا ، لا على ولا لى » ، وحلفه على ذلك فحلف له بيبرس .

ولم ينم الملك المظفر ليلته تلك ، فقد قضاها ساهرا يفكر فى طريقة يحمل بها الأمراء على تسليم ما عندهم من ذهب وفضة . وفى الصباح دعا وزيره يعقوب بن الرفيع وتشاور معه طويلا ، ثم اتفقا على أمر نوى التصميم عليه .

ودعى الأمراء المماليك إلى مجلس القلعة ، فلما حضروا جميعا دخل عليهم المظفر فقاموا له وحياهم جميعا ، ثم بسط لهم القضية التى دعاهم من أجلها وكان مما قاله لهم : « إن الأمراء هم جنود الدولة ، جاءوا إلى هذه البلاد من أسواق

الرقيق لا يملكون شيئا ، فغنوا من أموال الأمة ، وامتلأت خزائنهم بالذهب والفضة حتى إن فيهم لمن يحهز بناته بالجواهر واللالىء ، ويتخذ الإناء الذى يستنجى به فى الخلاء من فضة ، ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر . كل ذلك والأمة صابرة عليهم راضية بهم لأنهم يقومون لها بمهمة الدفاع عن بلادها ، وتوفير أسباب الأمن لها . وها هو ذا العدو على الأبواب قد أقبل يريد القضاء عليها وعلى دينها وشرفها وعرضها ومالها . وليس فى بيت المال ما يكفى لتجهيز الجيش اللازم لرد العدو . فكان علينا أن نأخذ من أموال الأمة لبيت المال إذ لا سبيل لنا غير ذلك . ولكن الشرع الشريف أفتانا بأنه لا يجوز لنا ذلك حتى ننزل نحن — معشر الأمراء — عما احتجناه من أموال الأمة ، ونرد لبيت المال ما كنزنا من ذهب وفضة وجواهر وغيرها مما يفضل عن حاجتنا ، فإذا أحصينا ذلك ولم يكف كان لنا حينئذ أن نأخذ من أموال العامة . وإنى ما دعوتكم الآن إلا لتساعدونى على تنفيذ حكم الشرع فى وفيكم ثم فى الأمة حتى نبرأ إلى الله من مظالمنا ونخرج للجهاد فى سبيله وقد رضى عنا ورضينا عنه ، فينصرنا على عدونا ويثبت أقدامنا يوم اللقاء » .

كان الأمراء قد عرفوا ما دعاهم الملك المظفر من أجله قبل حضورهم فعزموا على بيبرس أن يتولى عنهم محاجة السلطان ، ولكن بيبرس اعتذر لهم بضعف حجته وعدم طلاقة لسانه وقال لهم : « أن الملك المظفر قوى البيان فاختاروا منكم رجلا أقوى منى بمحاجته ، وإنى لا أخالفكم فى أمر تجتمعون عليه » . فقبلوا عذره واختاروا غيره ليتولى عنهم الكلام .

فلما انتهى الملك المظفر من حديثه انتدب له لسان القوم فقال له : « أتريد أن تجردنا من أموالنا يا خوند ؟ » .

قال السلطان : « كلا ... بل أريد أن تتجردوا عما يفيض عن حاجتكم مما

أخذتموه من مال الأمة » .

ـــ أأردت أن تقول إن أموالنا ليست لنا ؟

ـــ نعم إنها ليست لكم وإنما هي للأمة وإلا فأخبروني من أين جاءتكم .. ؟ فهل ورثتموها عن آبائكم أو كسبتموها بالتجارة أو أى طريق من طرق الكسب المشروعة ؟

ـــ حرام عليك يا خوند أن تتركنا نموت جوعا لتعيش أنت وحدك سلطانا على مصر ويخلو لك الجو .

ـــ إنكم لن تموتوا جوعا ، فأنتم جنود الأمة وعليها إعاشتكم من صلب مالها ، وها هو ذا سلطانها بينكم (يشير إلى نفسه) يتعهد لكم بإعاشتكم وإعاشة أبنائكم وأهليكم بما يكفل شرفكم ويصون حرماتكم ، يقتطع ذلك لكم بالمعروف من بيت مال الأمة . وسأكون أول من ينزل لبيت المال عما يملك من ذهب وفضة . وهذه حلى سلطانتكم ـــ وأشار إلى صندوق كان قد وضعه قدامه ـــ قد نزلت عنها لبيت مال الأمة . وأقسم لكم بالله أنى لن آخذ من مال البلاد إلا ما يكفينى ، ولن يزيد نصيبى على نصيب أى فرد منكم . أما قولك يا هذا إننى أريد أن يخلو لى الجو فأنتم والله عدتى وقوتى ، وكيف يعيش السلطان بغير عدة وقوة ؟

فانقطع متكلم القوم ولم يحر جوابا ، فنظروا إليه مغضبين وصاحوا به : « تكلم ! انطق ! » فقال لهم : « والله لا أدرى ماذا أقول له . لقد أوقعنى بيبرس فى هذه الورطة وخلص هو منها سالما » . ونظروا يتلمسون بيبرس فلم يجدوه بينهم فقالوا للسلطان : « أمهلنا حتى نرى رأينا فيما ذكرت » . فأجابهم السلطان : « لا أمهلكم أكثر من

هذا اليوم فتشاوروا فيما بينكم الآن إن شئتم ، ولن تخرجوا من هنا إلا على شيء » .

وكان بيبرس قد سبقهم إلى القلعة ، واتفق مع الملك المظفر أن يجلس وراء الباب الذى دخل منه السلطان بحيث يسمع حديثهم ، وعليه جماعة من حرس السلطان ، فلما قال القوم : « نريد بيبرس لنرى رأيه » . قال لهم السلطان : « إن الأمير بيبرس قد اتفق معى على ما أردت ، وحلف لى بذلك . وهو الآن موجود خلف هذا الباب يسمع حديثكم » .

فصاحوا جميعا : « لقد باعنا بيبرس » وطلبوا دخوله إليهم ، فناداه السلطان ، فدخل بيبرس القاعة فرمقوه بعيون محمرة وصاحوا به : « بعتنا للسلطان يا بيبرس ! » فأجابهم بيبرس قائلا : « كلا والله ما بعتكم للسلطان ، وإنى غير مسئول عنكم تعرفون شأنكم معه . وإنما عاهدت السلطان أن أقاتل معه التتار ، وتعهدت له بأننى لا أعينكم عليه ولا أعينه عليكم ، وهذا التعهد لا يربط غيرى . أما أنتم فأحرار تفعلون ما شئتم ! » .

فصاح القوم جميعا : « لا نطيع السلطان ، لا ننزل له عن أموالنا وأملاكنا » ونظروا إلى أبواب قاعة العواميد فوجدوها قد غلقت عليهم فاستقروا فى مجالسهم . وعند ذلك نهض السلطان من مجلسه وقال لهم : « سأمهلكم ساعة تتراجعون فيها وحدكم لتنزلوا عما عندكم من أموال الأمة راضين ، قبل أن تنزلوا عنه صاغرين ! » وأخذ بيد صديقه بيبرس فغادر به القاعة من الباب الخاص .

وكان الملك المظفر قد دبر فرقة من رجاله الأشداء الأمناء لكبس بيوت الأمراء المماليك وكسر خزائنهم وحمل ما فيها من الذهب والفضة والجواهر إلى بيت المال ، وخصص كلا منهم لبيت من بيوتهم ، وأمرهم أن ينتظروا إشارته بذلك . فلما مضت الساعة ولم يتفقوا على شيء أشار إلى رجاله فانطلقوا ينفذون تدبيره .

وما راعهم إلا السلطان قد دخل إليهم يقول لهم : « انصرفوا إلى بيوتكم فقد

نفذ الله فيكم ما أراد سبحانه » . ونظروا فإذا أحد أبواب القاعة قد فتح ، فجعلوا يخرجون منه واحمين ، وإذا عصبة من رجال السلطان قد وقفوا خارج الباب فقبضوا على رؤساء القوم وتركوا الباقين .

وأحصى ما جاء من عند الأمراء فوجد أنه لا يكفى لتقوية الجيش وتموينه ، فعند ذلك أمر الملك المظفر بأحصاء الأموال وأخذ زكاتها من أربابها ، وبأخذ كراء شهرين من الأملاك والعقارات المستأجرة ، وبفرض دينار على رأس كل قادر من سكان القطر المصرى . فاجتمع من ذلك فى بيت المال نحو ستمائة ألف دينار .

ولما انتهى الملك المظفر من ذلك عهد إلى وزيره يعقوب بن عبد الرفيع وأتابكه أقطاى المستعرب أن يباشرا تقوية الجيش المصرى بالأسلحة والعدد وآلات القتال ، وتكثير عدده بتجنيد الشباب الأقوياء من أهل مصر واستقدام العربان والبدو وتجنيدهم وتفريق الأموال فيهم . وأمرهما بإنشاء المصانع الكبيرة لصنع الأسلحة والمجانيق وغيرها من العدد الحربية فى جميع أرجاء البلاد ، وبشراء الجياد العربية العتيقة والبغال القوية والإبل الهجان .

وأوعز للشيخ عز الدين بن عبد السلام فأنشأ ديوانا كبيرا للدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله ، يضم إليه من يختارهم من خطباء الجوامع فيلقنهم ما ينبغى لهم أن يخطبوا الناس به على المنابر ليدعوهم إلى الجهاد ويبينوا لهم فضائله ، ويفصلوا لهم ما أنزل التتار ببغداد وغيرها من الخراب والدمار ، وما اقترفوه فيها من سفك الدماء ونهب الأموال وانتهاك الأعراض والحرمات وتهديم الجوامع والمساجد وقتل الأطفال الرضع والشيوخ والعجائز وبقر بطون الحوامل . ويبعث من ذلك الديوان الوعاظ يطوفون بالقرى يدعون أهلها إلى الجهاد ، ويوقدون فى قلوبهم نار الحماسة لله والوطن . وكان الشيخ ابن عبد السلام لا يجيز أحدا من هؤلاء الخطباء والوعاظ بالانطلاق لعملهم حتى يحفظ سورتى الأنفال والتوبة من القرآن عن ظهر قلب . فكان من جراء ذلك أن صارت المنابر والجوامع والأندية

ومجالس القرى تعج بآيات القتال من القرآن حتى كاد الرجال والنساء والأطفال يستظهرونها حفظا .

وكانت الأخبار ترد باطراد تقدم التتار فى بلاد الجزيرة ، يقصدون الشام ومصر . كل ذلك والملك المظفر رابط الجأش ساكن الأعصاب لا يضيع من وقته لحظة فى غير الاستعداد . وفى خلال ذلك جاءت رسل التتار إلى مصر ، وكانوا بضعة عشر رجلا يرأسهم خمسة من كبارهم ، يحسنون اللسان العربى ، ومعهم صبى مراهق . وكان فيهم رجال مخصوصون للتجسس ، ليعرفوا مداخل الحصون ومخارجها واستحكامات المدينة والثغر الضعيفة فيها . وقد جاءوا بكتاب من هولاكو إلى الملك المظفر ، فأمر باستقبالهم استقبالا حسنا ، ورتب جماعة من عسكره ليقوموا بشؤونهم وحاجاتهم ويصحبوهم إلى كل موضع يحبون الذهاب إليه . وقد عجبوا لهذه الحرية التى أعطيت لهم إلا واحدا من رؤسائهم الخمسة أمر الملك المظفر أول ما قدموا فعزل عن أصحابه ، واعتقل فى برج من أبراج القلعة ، فلم يسأل الباقون عنه لانهماكهم فى تعرف قوى الدفاع للدولة . والاطلاع على حصون المدينة وأسوارها وأبوابها ، حتى إذا قضوا من ذلك ما أحبوا أمر بهم الملك المظفر فاعتقلوا فى برج آخر . أما الصبى الترى ، فكان يتسلل إلى القصور السلطانية فى غفلة الحراس ، حتى عثر عليه يوما عند الحريم قد أحاطت به جوارى القصر ، يتعجبن من خلقته وشكله ، وهو يخاطبهن بكلمات عربية مكسرة . فقض عليه ، وسيق إلى الملك المظفر ، فأمر باعتقاله وحده .

واستشار السلطان الأمراء فيما يجيب التتار به . فأشار معظمهم أن يرسلوا إلى هولاكو جوابا لطيفا يتقون به شره ، ويخطبون به وده ، ويتفقون معه على مال يؤدونه جزية إليه كل سنة لئلا يهجم على بلادهم فيهلك الحرث والنسل . وقالوا إنه لا فائدة من مقاومة التتار ، وإن اللين معهم أنفع من الشدة . فغضب الملك

المظفر غضبا شديدا ، واحمر وجهه حتى كاد الدم ينبثق منه وجعل يقول بصوت أجش : « إن الله تعالى يقول فى كتابه : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » وأنتم تريدون منا أن نعكس الآية وتقول : « حتى تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ؟ » ثم قام إلى كبير الجماعة فاختطف منه سيفه فكسره على ركبته ثم ألقاه أمام صاحبه ، وهو يقول : « إن السيف الذى يجبن حامله على القتال لخليق أن يكسر هكذا ويلقى فى وجه صاحبه » .

وأمر بإحضار الرسل فأحضروا بين يديه ، فقال لرجاله : « اصنعوا بهم ما أمرتكم به » . فخرجوا بهم ، ونودى بأمرهم فى الناس ، فخرج الرجال والنساء والصبيان لمشاهدتهم في موكب عظيم ، وقد أركبوا على جمال شدوا إلى أقتابها بالحبال ووجوههم إلى أذيالها ؛ ما عدا الرسول المفرد المعزول وحده . فقد قيد وحمل على محفة ليشاهد ما يفعل بأصحابه ، وما خلا الصبى التترى ، فقد أمر السلطان باستبقائه ليجعله في جملة مماليكه . وخرج الموكب بالطبول من القلعة ، وسارت جموع الناس حولهم يصيحون ويضحكون ويصفقون بأيديهم لهوا ومرحا ، حتى وصلوا سوق الخيل تحت قلعة الجبل فقتلوا أحد الرسل ولما بلغوا ظاهر باب زويله قتلوا الثانى ، وقتلوا الثالث بظاهر باب النصر ، والرابع بالريدانية ، ثم أنزل الباقون فقتلوا دفعة واحدة ، وعلقت رءوس الجميع على باب زويله .

وأمر السلطان فأقيم عصر ذلك اليوم استعراض عظيم للجيش المصرى فى ميدان الريدانية حيث نصب للملك سرادق فى مرتفع جلس فيه على كرسيه يحيط به كبار الأمراء والوزراء ، فأقبلت فرسان الجيش فرقة بعد فرقة يتقدمها أميرها حاملا لواءه وهم جميعا شاكو السلاح ، فكلما مرت فرقة أشار أميرها بالتحية ، فقام الملك المظفر وأومأ بيده ردا على تحيته ، ثم مرت فرق المشاة وهم شاكو السلاح حتى غص بهم الميدان ، وأقبلت وراءهم فرقة المجانيق محمولة

على عجلات تجرها البغال القوية . ثم مرت فرق الهجانة على دللهم وعليهم العمائم الصفر . ثم مر كبار الأمراء فامتطوا جيادهم وتباروا سبعة أشواط فى الميدان ، ولما انتهى الشوط السابع ترجلوا وقصدوا السرادق فصافحهم الملك وأجازهم .

ونهض الملك المظفر بعد ذلك ونزل من السرادق وامتطى جواده الأبيض تحرسه كوكبة من الفرسان ، وتحرك ركابه إلى قلعة الجبل يخترق الجماهير المحتشدة وهى تهتف له بالدعاء : « يعيش السلطان ! يديم الله أيامه ! يطول عمر المظفر ! » حتى إذا ما حاذى السلطان باب القلعة أمر بالصبى التترى فأحضروه لديه ، وأمر بالرسول التترى فأطلق بين يديه وقال له : « أخبر مولاك اللعين بما شاهدته من بعض قوتنا ، وقل له إن رجال مصر ليسوا كمن شاهدهم من الرجال قبلنا ، وقل لمولاك إننا استبقينا هذا الصبى عندنا لنملكه عليكم فى بلادكم عند ما نكسركم ونمزقكم كل ممزق » .

ثم أمر وزيره يعقوب بن عبد الرفيع فسلم الرسول التترى جوابا مختوما لهولاكو ، وأمر جماعة من رجاله ليحرسوه ويوصلوه إلى الحدود . وهكذا قطع الملك المظفر أمل أولئك الأمراء المشاغبين فى مسالمة هولاكو ووضعهم أمام الأمر الواقع .

لم يكتف المظفر بإعداد الجيش المصرى وإكمال عدده ومؤنه لملاقاة التتار ، بل رأى أن يقيم دونهم جبهة قوية من ملوك بلاد الشام وأمرائها . وكان يعلم تخاذلهم وتواكلهم وتقاعسهم عن قتال التتار وميلهم إلى التسليم لهولاكو والخضوع له ، فكتب إلى كل واحد منهم رسالة يشرح لهم فيها أنه جاد فى العزم على قتال التتار وقد أعد للتتار جنودا لا قبل لهم بها ، وهو مصمم على أن ينقذ بلاد الإسلام منهم ، ويطهرها من رجسهم ، وأنه يعتبر بلاد الشام حصون مصر الأمامية ، وأن وقوعها فى أيدى التتار يعرض سلامة مصر للخطر . ويؤكد لهم فيها أنه لا مطمع له فى ملك الشام وسيترك بلاد الشام لملوكها وأمرائها المسلمين .

وإنما غايته أن يساعدهم على حفظها من السقوط فى أيدى الكفرة الفجرة ، ويقول فيها : إنه وإن اعترف أن بلاد الشام لملوكها إلا أنه لن يسمح لأحد منهم أن يستسلم للتتار ، بله أن يظاهرهم على إخوانه المسلمين . وإن مثله ومثلهم ومثل التتار كمثل من اشتعلت النار فى بيت جاره الأدنى فعليه أن يسعى لإطفائها وليس لجاره أن يقول له : « لا شأن لك بدارى » . ويصرح لهم فيها أنه سيعاقب من يمالىء الأعداء منهم بقتله وتوريث بلاده لمن هو أحق بها منه ممن قاتل التتار من ملوك الشام . وأنه إذا لم يستطع أحدهم الوقوف فى وجه العدو واضطر للنجاة بنفسه ، فعليه أن يلحق بالديار المصرية حيث يجد منها التكرمة والحفاوة حتى يحين الوقت لتحرك الجيوش المصرية فيقاتل معها عدو الجميع . ومن لم يفعل ذلك وتأخر لغير عذر قاهر فإنه يفقد بلاده وملكه عندما يتم إجلاء التتار عنها بسيوف المصريين . وما اكتفى السلطان كذلك بهذه الرسائل حتى سير إلى بلاد الشام جماعة من الشاميين المقيمين بمصر ليحدثوا أهل بلادهم بما أعده الملك المظفر من الجيوش الإسلامية العظيمة لرد غارات التتار وإجلائهم عن بلاد المسلمين .

ولما اشتدت هجمات التتار على بلاد الشام لحق بمصر كثير من ملوكها الذين آثروا الانضمام إلى الملك المظفر ليقاتلوا التتار معه ، فأكرم السلطان وفادتهم ، وجعلهم فى بطانته يستشيرهم فى كبار الأمور ويشركهم معه فى تبعات الجهاد فى سبيل الإسلام . وأمر كلا منهم على من قدم معه من مماليكه وجنوده إلى مصر ، وضم إليه عددا من الجنود المصريين ، فكانوا تحت قيادته . ولحق آخرون ممن كتب الله عليهم الذل فى الدنيا والخزى فى الآخرة بهولاكو ، حتى كان فيهم من أعانه وقاتل المسلمين معه .

الفصل الرابع عشر

قضى الملك المظفر عشرة أشهر من ملكه لم يعرف للراحة طعما ، ولم ينم إلا غرارا ، بل ملأ ساعاتها كلها بجهود تنوء بها العصبة أولو القوة . فقد كان عليه أن يوطد أركان عرشه ، بين عواصف الفتن وزعازع المؤامرات ، ويدبر ملكه ، ويقضى على عناصر الفوضى والاضطراب ، ويضرب على أيدى المفسدين والدساسين ، ويقبض بيد قاهرة على أزمة السياسة الجامحة ، ويعالج الأمراء المماليك ، ويستعمل مع بعضهم اللين ومع آخرين الشدة . وكان عليه أن يقوى الجيش ، ويضاعف عدده وأسلحته وعدده ، ويجمع له المؤن والذخائر والأقوات ، ويحصل لذلك كله الأموال الكافيه . وكان عليه أن يسكن القلوب الوجلة من قدوم التتار ، وينفخ فيها روح العزم على مقاومتهم على كثرة المخذلين من الأمراء ، المعوقين عن قتالهم ، الداعين إلى مسالمتهم والخضوع لهم . ولولا ما خصه الله به من قوة البنية ، ومتانة الأعصاب ، ومضاء العزيمة ، وصرامة الإرادة ، وصدق الإيمان ، والعقيدة القوية بأن الله قد هيأه وأعده للقيام بكسر التتار وطردهم من بلاد المسلمين ، لما استطاع أن ينجز فى بضعة أشهر ، ما يعجز غيره عن القيام ببعضه فى بضع سنوات . فقد خلق الجيش المصرى خلقا جديدا ، ونفخ فيه روح الفداء والاستماتة فى الدفاع عن الدين والوطن ، وأفاض عليه من شجاعته وحماسته ، فإذا هو يتوقد حماسة للقتال ، ويحن شوقا للجهاد فى سبيل الله . وقد استطاع أن ينزل السكينة والطمأنينة فى قلوب سواد الناس بعد أن كانت ترجف هلعا من ذكر التتار ، وأن يبذر فيها الثقة واليقين بأن مصر ستفلح فى رد غارات التتار عنها ، بل طردهم من بلاد الشام ، كما أفلحت من قبل فى رد الصليبيين على أعقابهم .

وكانت زوجته وحبيبته السلطانة جلنار تشد أزره فى ذلك كله ، وتشجعه على المضى فى هذا السبيل الوعر . فكانت تسهر الليل معه ، وتشاطره همومه وآلامه ، وتمسح بيدها الرفيقة شكواه ، كلما ضاق صدره بتخاذل الأمراء عن طاعته ، ونيلهم منه فى مغيبه ، ونفاقهم له فى مشهده ، وإلقائهم العوائير فى طريقه . وكان ربما أنساه انهماكه فى عمله الدائب طعامه وشرابه فعنيت بتقديمهما بنفسها إليه ، وإذا نهكه السهر فى أعقاب الليل ، قامت إليه ، فأخذت بيده وقادته إلى فراشه ، ليأخذ نصيبه من نومه وراحته . وكانت لا تفتأ تملأ قلبه ثقة بالفوز فيما ندب نفسه للقيام به ، فيزداد يقينه ويتضاعف إيمانه . وكانت تقول له : « إنى سأخرج معك إلى ميدان القتال ، لأرى مصارع الأعداء بعينى ، فيشتفى بذلك صدرى » ، فيقول لها : « أخشى عليك يا حبيبتى من سهامهم » . فتقول له : « لن أخشى على نفسى ما لا أخشاه عليك . ولكى تطمئن على سأكون وراء الجيش فى مأمن من سهامهم وكراتهم » .

— أما تخافين أن يخلصوا إليك أثناء الكر والفر ، فتقعى أسيرة فى أيديهم ؟

— أنا ابنة جلال الدين لا يخلصون إلى وجوادى معى ينجو بى منهم ، أما تذكر يا محمود أيام كنا نتبارى على جوادينا ، فتسبقنى حينا وحينا أسبقك ؟

فيضحك الملك المظفر ، ويعانقها قائلا : « أجل أذكر ذلك يا جهاد ! كيف أنسى تلك الأيام السعيدة ؟ » .

ورأى الملك المظفر عند ما انسلخ الشهر العاشر من حكمه أن قد تكامل جيشه وأصبح كافيا بحول الله وقوته لملاقاة التتار . فأراد أن ينتظر بهم شهر رمضان ، حتى إذا انقضى تحرك بجيشه لقتالهم . ولكن حركات التتار صوب الديار المصرية كانت أسرع من أن تدع له انتظار شهر رمضان حتى ينقضى . فقد وردت الأنباء بأن طلائعهم قد بلغت غزة وبلدا لخليل ، فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والصبيان ، ونهبوا الأسواق ، وسلبوا الأموال ، وارتكبوا الفظائع كعادتهم ،

فلم يسع السلطان إلا العزم على الإسراع لملاقاتهم والتعجيل بالخروج .

وكان شهر رمضان قد دخل ، وصام الناس بضعة أيام منه ، حينما نودى فى القاهرة وسائر مدن القطر المصرى وقراه ، بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ونصرة دين رسول الله ﷺ . وتردد هذا النداء العظيم فى جميع أرجاء القطر ، فخالط الناس شعور عجيب ، لم يعهدوا له مثيلا من قبل ، وأحسوا كأنهم خلق آخر غير ما كانوا ، وأنهم يعيشون فى عصر غير عصرهم ذاك — فى عهد من عهود الإسلام الأولى حين كان الصحابة رضوان الله عليهم يلبون دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فينفرون خفافا وثقالا ، يجاهدون معه المشركين ، ويبتغون احدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة ، حتى يجعلوا كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا .

وطغى هذا الشعور على جميع طبقات العامة ، حتى كف الفسقة عن ارتكاب معاصيهم ، وامتنع المدمنون عن شرب الخمور ، وتأثمت العواهر عن مزاولة البغاء ، وامتلأت المساجد بالمصلين ، ولم يبق للناس فى البيوت والأندية والمساجد والطرقات من حديث إلا حديث الجهاد !

وأمر الملك المظفر الأمراء والقواد بدعوة أجنادهم ، وإعدادهم للمسير إلى الصالحية ، وأن يضرب بالمقارع كل من وجد مختفيا منهم . وتقدم هو بالمسير ، حتى نزل بالصالحية ينتظر تكامل العساكر . فلما تكاملت طلب الأمراء ، وكان قد آنس ازورارا من جانبهم ، وميلا إلى القعود والتخلف ، فتكلم معهم فى الرحيل للقاء العدو ، فأبى ذلك عليه جماعة كبيرة من الأمراء ، كانوا قد تعاقدوا على عصيان الملك المظفر واعتذروا له بأن الرأى هو أن يبقوا هنالك حتى تأتى جموع التتار فيصدوها عن البلاد . فغضب الملك غضبا شديدا حتى انعقد لسانه ولم يستطع الكلام برهة من الزمن ، ثم انفجر يخاطبهم قائلا : « بئس الرأى الضعيف رأيكم ! أما والله ما حملكم على هذا إلا الجبن والهلع من سيوف التتار أن تقطع رقابكم هذه التى سمنت من أموال الأمة ! ألم تعلموا يا أمراء السوء

أنه ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا ؟ يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للقتال كارهون . ما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أشبهكم بأولئك المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ ، إذ يقول الله فيهم : (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ؛ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) . والله لأتوجهن بمن معى لقتال أعداء الله ، فمن اختار الجهاد منكم فليصحبنى ، ومن لم يشأ فليرجع إلى بيته غير مأسوف عليه ، فإن الله مطلع عليه ، وتبعة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين !

ولم يكد يتم كلامه حتى أشار على الأمراء الذين ثبتوا معه على رأيه بأن يعتزلوا ناحية ، وطلب منهم أن يبايعوه على المسير لجهاد التتار ، فبايعوه على ذلك حتى الموت ، فما وسع الباقين إلا الموافقة فأخذوا يتسللون واحدا بعد واحد ، فيبايعونه على المسير حتى لم يبق منهم أحد إلا بايع .

وأمسى الليل والصالحية مدينة كبيرة من المضارب والخيام ، يتوسطها المخيم السلطانى . ولم تنقطع حركة الجمال والبغال تحمل المؤن والذخائر والأثقال ، فيتلقاها الرجال المكلفون بذلك . وأصدر الملك المظفر أوامره بأن تأخذ العساكر قسطها من النوم والراحة ، رتب طوائف كبيرة من الحرس العسكرى ليسهروا على بعد من حدود المعسكر ، ولا سيما فى الجهة الأمامية نحو الشام ، حتى لا تأتى طلائع العدو ، فتبيت المعسكر على غرة . ويقوم على المخيم السلطانى الحرس الملكى ومعظمه من رجال السلطان نفسه ومماليكه الذين يثق بهم ، أما الأمراء المماليك فجعلت مضاربهم فى الخط الأمامى مما يلى جهة

الشام يصل بينها وبين المحيم السلطانى مجاز تحرسه فرقة قوية من الحرس الملكى ولا يؤذن لجندى من غير الأمراء أن يمر فيه .

وكان مع الملك المظفر فى محيمه الأمير بيبرس والوزير يعقوب بن عبد الرفيع والأتابك أقطاى المستعرب ، وعلى مقربة منه مضارب ملوك الشام اللاجئين . وكان السلطان يتشاور مع هؤلاء فى رسم الخطط للهجوم على العدو فكان يعرض الرأى فيناقشونه فيه ، فيستمع إلى اعتراضاتهم واقتراحاتهم بانتباه شديد ، فيرد على هذا برفق ، ويتلقى رأى هذا بالقبول والاستحسان ، ثم يستخلص من ذلك كله الرأى الذى يصمم عليه ، بعد ما أشعرهم جميعا بأن الرأى رأيهم وليس رأيه وحده . فلما انتهوا من ذلك عرض الملك المظفر على الأمير بيبرس أن يأخذ نصيبه من النوم ، وأشار على الآخرين بمثل ذلك وقال لهم : « إنكم ربما لا تذوقون النوم غدا ومساء غد » ، فشكروه وانصرفوا إلى مخادعهم إلا أتابكه الأمير أقطاى المستعرب فقد بقى مع السلطان . وبعد أن ساد الصمت بينهما برهة شكا إليه السلطان من تخاذل الأمراء فى مثل ذلك الوقت الحرج . ونعى عليهم غرامهم بالخلاف والمكابرة وقلة شعورهم بالتبعة الملقاة على عواتقهم فى دفع الأعداء المتوحشين عن الوطن وإنقاذ بلاد الإسلام منهم .

فقال له الأتابك : « هون عليك يا مولاى فإن فى مضاء عزمك ما يأخذ المسالك على تخاذلهم . وقد فعلوا ذلك مرارا فما لبثوا أن انصاعوا لأمرك ونزلوا على حكمك فاحتمل ذلك منهم فأنت أهل للاحتمال » .

قال السلطان : « إنى قد أحتمل هذا منهم فى وقت السعة والأمن ، ولكنى لا أستطيع احتماله فى وقت الضيق والحرب ، وإنى سائلك فلتجبنى بدون مواربة ما رأيك فى الأمير بيبرس ؟ » .

قال أقطاى : « ليس المسئول عنه بأعلم من السائل » ، فبدره السلطان قائلا : « أريد أن أعرف أما يزال يتصل بالأمراء سرا ويحرضهم علىّ ؟ » .

فأجابه الأتابك : « ما أظن ذلك يا مولانا ، ومبلغ علمى به أنه منذ يوم القلعة إذ عاهدك على قتال التتار وفى بما عاهدك عليه فلم يحرضهم على العصيان ولم يحاول أن يصرفهم عنه ، وإذا كان فيهم وسمع شيئا من ذلك سكت ولم يشترك معهم » .

قال السلطان : « ولكن هذا السكوت هو الذى أتعبنى منه يا أقطاى » .

قال الأتابك : « ولكن مولانا قد رضى هذا السكوت منه » .

فقال السلطان : « نعم قد رضيته منه ، ولكنى كنت أحسبه يرجع إلى صوابه فيما بعد ، ويخلص للأمر الذى نعمل له ، فلا يدع هؤلاء يتآمرون على عصيانى بين سمعه وبصره دون أن يصدهم عن ذلك بفعل أو قول . ألا ترى معى يا أقطاى أنه لولا وجود بيبرس وحياده هذا لما اجترأ أصحابه هؤلاء على شىء مما فعلوه ؟ » .

قال أقطاى : « الأمر لمولانا السلطان ، إذا شاء أنفذت أمره فى أكبر رأس يشتمل عليه هذا المعسكر » .

قال السلطان : « لا يا أقطاى لا نستغنى عن بيبرس ، إنى لا أريد أن أحرم المسلمين شجاعة هذا الرجل وقوته . وقد رأيت منه انبعاثا للخروج ورغبة صادقة فى قتال التتار ، ولعل الله ينصر به المسلمين نصر مؤزرا » .

وأشار السلطان على أتابكه أن ينام قليلا ليستريح ، واضطجع هو على فراشه فنام نومة خفيفة وكذلك فعل الأتابك .

ولما كان الهزيع الأخير من الليل هب السلطان من نومه ، وأيقظ أتابكه وأوعز إليه يصدر الأوامر للعساكر بالسرى . فهب المعسكر كله من نومه وأخذ فى الاستعداد للمسير . وبينا هم كذلك إذ بلغ السلطان تلكؤ الأمراء عن المسير ، فلم يكترث بهم ولم يقل لهم شيئا بل ركب هو وركب معه رحاله وقال : « أنا ألقى التتار بنفسى ! » فلما رأى الأمراء المتلكئون ذلك منه أدركهم الخجل فركبوا معه على كره .

وكان السلطان قد أمر الأمير بيبرس أن يتقدم فى جمع من العسكر ليكون طليعة يعرف له أخبار التتار فسار بيبرس والجمع الذى معه سيرا حثيثا حتى وصل غزة وبها طلائع التتار . فناوشهم القتال فانهزموا إذ ظنوا أن وراءه جيشا عظيما وتركوا له غزة فدخلها ونزل فيها بجمعه حتى وافاه السلطان بالعساكر فأقام فيها يوما يستجم ويدبر الخطط .

وهناك وافته السلطانة جلنار راكبة على جوادها وهى بملابس الفرسان من الأمراء إلا قناعا من الحرير الأسود مسدولا على وجهها لولاه لقل من يستطيع تمييزها عنهم . وتصحبها جاريتان حبشيتان على بغلتيهما ويسير حولها جماعة من العبيد السود يحرسونها ويقومون بخدمتها ، فضرب لها مخيم خلف المخيم السلطانى جعل السلطان يتردد عليها فيه .

ولاح للسلطان أن عكاء بيد الفرنج وأنهم قد يغدرون بالمسلمين عندما يلقون التتار فيطعنونهم من الخلف . فرأى أن يقطع عليهم هذا السبيل فتوجه إلى عكاء عن طريق الساحل بعد ما بعث إليها رسلا من قبله . حتى إذا شارفها وعلم أهلها بدنوه منهم خرجوا إليه بالألطاف والهدايا ، فقال لهم السلطان : « إنه لا ينوى بهم السوء ولم يخرج لقتالهم ، وإنما خرج لقتال التتار فعليهم أن يلزموا الحياد التام » . فخافوا منه وألطفوا له القول وأعربوا له عن إخلاصهم وولائهم له ، وعرضوا عليه أن يسيروا معه نجدة من عسكرهم ، فشكرهم وقال لهم : « إن جيشه

لا يحتاج إلى معونة أحد » . ثم استحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه . وأقسم لئن تبعه فارس منهم أو راجل يريد أذى المسلمين ليرجعن إليهم فيقاتلنهم قبل أن يلقى التتار .

وكان هؤلاء الفرنج قد كاتبوا التتار قبل ذلك يعلمونهم بأنهم معهم على المسلمين ، وأنهم على استعداد ليجيئوا المسلمين من خلفهم إذا تقدموا لقتالهم، ولكنهم لما رأوا انهزام طلائع التتار وجلاءهم عن غزة خشوا أن ينقض عليهم المسلمون فاتبعوا سبيل الوفاق معهم ، ولم يكتف السلطان بوعدهم وأيمانهم حتى شرط عليهم أن يبقى فى الحصون القائمة على منافذ عكاء حاميات من عسكره ليضمن بذلك بقاءهم على الحياد ، فوافقوا على ذلك مكرهين .

ورحل السلطان عن عكاء حتى إذا عسكر بعيدا عنها ، جمع الأمراء والقواد ومقدمى العساكر فوقف بينهم خطيبا على جواده ، وجعل يحرضهم على قتال العدو ويذكرهم بما حاق بأهل الأقاليم من القتل والسبى والحريق ، ويخوفهم وقوع مثل ذلك لهم ولبلادهم ، ثم حثهم على استنقاذ بلاد الشام من أيدى التتار ونصرة الإسلام والمسلمين ، وحذرهم عقوبة الله وغضبه إذا هم قصروا فى جهادهم . فضج السامعون بالبكاء ، وتحالفوا على الصدق والاجتهاد فى قتال التتار . وحينئذ دعا السلطان الأمير بيبرس وأمره أن يسير بكتيبة من العسكر لتكون طليعة له ، فصدع بيبرس بأمر السلطان وسار بكتيبته حتى لقى طلائع التتار ، فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك ، وأخذ يناوشهم فتارة يقدم عليهم وتارة يحجم عنهم ، يبغى بذلك مشاغلتهم وعدم الاشتباك معهم فى معركة فاصلة . واستمر على ذلك حتى وافاه السلطان عند عين جالوت فنزل بعساكره فى الغور . ولما رأى طلائع التتار قدوم الجيش المصرى لزموا مواقعهم ينتظرون تكامل جموعهم المقبلة .

وكان الجيش طوال مسيره من الصالحية إلى غزة ومن غزة إلى عكا . ومن عكاء إلى عين جالوت يردد هذا النشيد :

نمضى إلـــى التتـــار
بالأبـيـض البتـــار
والأسل الحــــــرار
نطلبهـــم بالتـــار
لله والمختـــــــار
وشرف الديــــــار
نطرحهـم فى النـار وغضب الجبـار
نمضى إلـــى التتـــار
بالعسكــر الجــرار
كالأُسْد الضوارى
نعصف بالفجَّـــــار
كالريح ... كالإعصار
كالمائـــج الهـــدَّار
نغرقهـم فى النــار وغضب الجبـــار

وأمست ليلة الجمعة لخمس بقين من شهر رمضان ، والسلطان م
بعسكره فى الغور ، ومن دونهم معسكر التتار تتوارد إليه جموعهم طوال ا
وكلا الفريقين ينتظر النهار ، ولا يشك أن غدا سيكون يوم الفصل . ولم يأو ا
المظفر إلى فراشه ليلته هذه . بل قضاها فى ترتيب العساكر وتعيينه
مواقعهم ، وإصدار الأوامر إلى قوادهم ومقدميهم ، والتفكير فى خطط اله
ولما غلبه النعاس من شدة التعب نام على مقعده ، ولم يضع جنبه على الأر
وكان فى خلال ذلك يكثر من ذكر الله . وتلاوة ما يحفظ من آ

القرآن وسوره ، ويطرق من حين إلى حين مخيم زوجته فيطمئن عليها ويخرج .

وكان هولاكو قد رحل من حلب يريد بلاده لأخبار وصلت إليه بوفاة أخيه منكو خان ملك التتار . وأناب عنه فى قيادة عساكره قائده الكبير كتبغا وأمره بمواصلة الغزو إلى مصر . ولكنه لما وصل إلى بلاد فارس ، بلغه مسير سلطان مصر بجيوشه العظيمة الجرارة ، فأقام بها ينتظر ما تتمخض عنه الحوادث .

ولما طلع الصباح تراءى الجمعان فتهيب كلاهما لقاء الآخر ، لأنه يعلم أن المعركة التى هو خائضها ستقرر مصيره ، وحبس كليهما عن التقدم للقاء الآخر حابس . أما التتار فلما يصل كتبغا قائدهم الكبير ، فوقفوا ينتظرون قدومه . وأما المسلمون فقد انتظر بهم الملك وقت صلاة الجمعة ليباشروا قتال أعدائهم وخطباء المسلمين على المنابر يدعون لهم بالتأييد والنصر .

ووصل كتبغا قبل الزوال بساعة فما لبث أن رتب عساكره وساقها للقاء المسلمين . وكان الملك المظفر إذ ذاك قد عين عساكره فى مواقعهم ، فجعل الأمير ركن الدين بيبرس على ميسرته ، والأمير بهادر المعزى على ميمنته ، وكان هو على القلب وحوله جماعة من أبطاله ومماليكه . بينهم الصبى « التترى » الذى كان استبقاه من رسل التتار ، واتخذه مملوكا له ، ووكل به من علّمه فرائض الدين ، فكان يسير معه لا يكاد يفارقه . وكان الملك المظفر يحبه لذكائه وفطنته ، ويقول له : أنت ملك التتار ، فكان رجال المظفر يدعونه دائما ملك التتار ، وكان الصبى يزهى بذلك فيضحكون له .

وما لبث العسكران أن تقاربا ، فأخذت سهام التتار تمرق فى صفوف المسلمين فتجرح وتقتل فيهم .

فلما اشتد ذلك على المسلمين أمر السلطان رجاله بالهجوم عليهم ، فاندفعوا إلى الأمام ، حتى تصافحت الصفوف الأمامية من كلا الفريقين

بالسيوف . واشتد القتال واستبسل الفريقان استبسالا عظيما ، واستحر فيهما القتل ، إلا أن المسلمين كانوا لذلك الحين ظاهرين على أعدائهم .

وكان الملك المظفر فى وسط القلب ينظر إلى القتال بصدر منشرح ، كأنه سره أن يرى أصحابه يهجمون على التتار بعد أن كانوا يخشون لقاءهم ويظنون أنهم قوم لا يغلبون لكثرة ما سمعوا من أخبار شجاعتهم وتوحشهم ، وهو يدفع أبطاله ويحض رجاله على التقدم . وكان الصبى التترى واقفا على فرسه بين مماليك السلطان وقريبا منه ، فاستأذنه الصبى أن يتقدم للقتال فابتسم له السلطان ، وقال له : « تقدم يا ملك التتار ! » فشق الصبى صفوف المسلمين أمامه ، ثم اندفع فى صفوف التتار يضرب بسيفه يمينا وشمالا فيقتل أربعة منهم أو خمسة ، ثم يخلص منهم عائدا إلى صفوف المسلمين حتى يقف فى موضعه الأول عن يسار السلطان فيحييه السلطان ويقول له : « مرحى يا ملك التتار ! » وقد تكرر هذا الفعل من الصبى ، فصار المسلمون يوسعون له السبيل إذا ذهب منطلقا كالسهم إلى صفوف التتار ، وإذا كر راجعا إليهم ، ويتعجبون من شجاعته وفروسيته ، ويصيحون به (احمل يا ملك التتار ! مرحى يا ملك التتار !) .

ولكن الصبى كان فى الحقيقة يهمس لقومه التتار كلما خاض صفوفهم ، ويعلمهم بموقع السلطان فى القلب ليتبعه فرسان منهم وهو ينهزم إلى مركز السلطان ، فيتيسر لهم قتله .

وكانت السلطانة جلنار قد جعلت همها حماية زوجها من الغيلة ، فجعلت تلاحظه وهى على جوادها من تل مرتفع خلف السلطان ، وتراقب من حوله . فوسوس لها خاطرها من جهة الصبى التترى ، وعجبت كيف يخوض صفوف التتار ثم يخلص منها سالما ، فظلت تراقب حركاته وإنها لكذلك ، إذ حمل الصبى فقتل من قتل من التتار كعادته ، ثم ارتد سريعا وخلفه خمسة فرسان من التتار اندفعوا كالسهم إلى جهة السلطان . ففوجىء السلطان ودهش ، وفوجىء

من حوله من الرجال فاضطربوا ، ولكن السلطان تلقاهم بسيفه فجندل ثلاثة منهم .

وإذا بالمملوك التترى قد رمى السلطان بسهم من خلفه فأخطأه وأصاب الفرس فترجل السلطان وقصده الفارسان التتريان ، فجعل يحيص عنهما ، ثم قصد أحدهما فضرب قوائم فرسه فوقعت به ، وكاد الفارس التترى الآخر يعلو السلطان بسيفه لو لم يبرز له فارس ملثم شغله عن ذلك ، فاختلفا ضربتين بالسيف فخرا صريعين .

وصاح الفارس الملثم : « صن نفسك يا سلطان المسلمين ! ها قد سبقتك إلى الجنة ! » وكان هذا الفارس قبل ذلك قد أطار رأس الصبي التترى .

وكان فرسان الحرس السلطانى قد ثاب إليهم رشدهم إذ ذاك ، فاجتمعوا حول السلطان وقبضوا على الفارس الذى ضرب السلطان قوائم فرسه فقتلوه ، وسدوا الثغرة الأمامية وتكاثفوا فيها دون السلطان فلم يدعوا أحدا يقترب منه ، وتذكر السلطان صوت الفارس الملثم فارتاب فى أمره فقصد إليه وكشف عن وجهه فإذا السلطانة جلنار وهى تجود بنفسها ، فهاله الأمر وحملها وهو لا يعقل ما يفعل ، وبعث إلى بيبرس وهو على الميسرة ليحل محله فى القلب ، وانفتل هو منطلقا إلى المخيم فلقى أقطاى الأتابك على الباب فقال له : « لا ترع ، هذه سلطانتك جريحة ، فعلىَّ بالطبيب والجاريتين » ، فذهب أقطاى ليحضرهم ، وأضجعها السلطان على فراشه وجعل يقبل جبينها والدموع تنهمر من عينيه وهو يقول لها : « وا زوجاه ! وا حبيبتاه ! » . فأحست به ورفعت طرفها إليه وقالت له بصوت ضعيف متقطع وهى تجود بروحها فى السياق : « لا تقل وا حبيبتاه ... قل وا إسلاماه ! » . وما لبثت أن لفظت الروح بين يديه حين حضرت الجاريتان الحبشيتان مرتاعتين وخلفهما الطبيب ، فطبع السلطان على جبينها القبلة الأخيرة ، ومسح دموعه ونهض تاركا زوجته الشهيدة للطبيب والجاريتين يتولون

تجهيزها ، وخرج من المخيم فامتطى جوادا طار به إلى ساحة القتال .

وكان قد شاع فى عسكر المسلمين خبر مصرع السلطانة جلنار ، وانتشر فيهم كالنار فى الهشيم ، وخالطهم من ذلك أسف ووجوم . وشاع فيهم أيضا أن السلطان احتملها إلى المخيم وترك مكانه للأمير بيبرس . فلما رأوه عاد إلى محله صاحوا جميعا : « الله أكبر » ، وتمثلت لهم بطولة السلطانة الصريعة ، فشعروا بهوان أنفسهم عليهم ، وحموا واستبسلوا .

ولما رأى التتار ذلك — وكانوا قد فرحوا بغياب السلطان ، وظن كثير منهم أنه قتل — حموا أيضا واستماتوا فى الهجوم . فاضطربت ميمنة المسلمين التى عليها الأمير بهادر ، حتى صار صف المسلمين خطا مائلا مقدمه الميسرة عليها بيبرس ، ومؤخره الميمنة التى انكشفت حتى تعرض القلب لهجمات التتار الحامية . وقد أدركوا أن فيه السلطان فاندفعوا لاختراقه ، وضغطوا عليه حتى تقهقر قليلا ، فكاد يوازى الميمنة المنكشفة ، وصار الصف بذلك أشبه بضلعين بزاوية منفرجة .

وعند ذلك تقدم السلطان قليلا إلى الأمام فكشف عنه خوذته وألقى بها إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته ثلاثا « واإسلاماه ! » وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، وتردد صوته هدا فى أرجاء الغور فسمعه معظم العسكر وردده معه وحملوا حملة عنيفة انتعشت بها الميمنة ، فتقدمت ببطء شديد من كثافة جموع التتار الذين حاولوا منها أن يطوقوا المسلمين . وبصر السلطان بكتبغا قائد التتار وقد حمى واستبسل وهو يضرب بسيفين ، وكلما عقر جواده استبدل به جوادا آخر وكأنما كان يترقب الفرصة ليشق لبعض مقدمى رجاله منفرجا يصلون به إلى السلطان .

وكان الأمير بيبرس إذ ذاك يحض أصحابه على القتال ، ولا يدع لهم مجالا للتقهقر مهما اشتد بهم الضغط ، فكأنما كانوا مقيدين بسلسلة طرفاها فى يده ،

فثبتوا ثبات الرواسي ، وكثر القتل فيهم وفى أعدائهم ، حتى إنهم ليطأون بحوافر خيولهم على جثث قتلاهم وصرعاهم ، وكان يزج بنفسه فى مقدم الصف فيجندل ما يجندل من أبطال العدو ثم يتراجع ويغوص بين أصحابه ويطوقهم من الخلف يحرضهم ويدفعهم إلى الأمام ، وما أسرع ما يمرق من خلال صفوفهم حتى يبرز إلى المقدمة من ناحية أخرى وهكذا دواليك .

وكان فى كل ذلك حذرا كأنما ينظر بألف عين ، لا تفوته أقل حركة يقوم بها العدو ، ولا أى تضعضع يبدو من قِبَل أصحابه . وكان مع ذلك موكل الطرف بالشجعان المعلمين من رجال العدو يتخير أشدهم على المسلمين فيفجأه بضربة لا تمهله فربما قدَّه وقدَّ جواده معه ! وربما أطار رأسه فوثب الجواد بجسم لا رأس له ! وكثيرا ما وكل ذلك إلى أحد أبطال رجاله فيقول له : « اقتل هذا الفارس وخلاك ذم ! » .

وكان من جراء شجاعة بيبرس وصرامته أن تحامى العدو الميسرة واستضعفوا الميمنة واندفعوا إليها حتى كان من أمرها ما كان . ولم يفت بيبرس أن العدو لما رأى قوة الميسرة أمر ميمنته بالتأخر قليلا والانتشار إلى الغرب ، وغرضه من ذلك أن تندفع ميسرة المسلمين إلى الأمام فيقوموا بتطويقها ، فأبطل عليهم تدبيرهم هذا إذ أمر رجاله بالانتشار إلى الغرب أيضا وجعل تقدمه ببطء وحذر ريثما يرى ما يكون من ميمنة المسلمين والقلب ، حتى إذا سمع صرخة الملك المظفر : « وا إسلاماه ! » ورأى القلب يتقدم ويكر على صفوف الأعداء ، وأدرك بفطنته أن السلطان يريد أن يطوق ميسرة التتار ويفصلها عن قلبهم إذ رآه يندفع بشطر من القلب فاخترق به صفوفهم — رأى الفرصة سانحة حينئذ ليقوم بحركة تطويق لميمنة التتار وقلبهم حتى يحصرهم بين ميسرته وبين الشطر الآخر من قلب المسلمين . فأمر رجاله بالتقهقر ليندفع العدو إلى الأمام ، وبالانتشار إلى الغرب ثم التقدم إلى الأمام فى شكل هلالى ينتهى طرفه الشمالى بخط مائل إلى

الغرب ، ليسد بذلك على العدو سبيل الالتفاف ، ثم أمر رحال الشكل الهلالى أن يضغطوا شيئا فشيئا على العدو فأخذ مجال العدو يضيق من ذلك الحين .

وكان الملك المظفر يقاتل قتال المستميت حاسر الرأس ، وقد احمر وجهه وانتفش شعره ، فصار كأنه قطعة من اللهب يعلوها إعصار من الدخان الأسود . وكان الناظر إليه وهو يتقدم الصفوف ويضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال ، فكلما اعوج له سيف التمس له سيف آخر ورمى الأول فى وجوه العدو ، وكلما جندل بطلا من أبطال العدو صاح : « الله أكبر » — يشفق عليه ، ولا يشك أنه يتعرض للشهادة ، وأنه عما قليل سيصاب . فعظم ذلك على خواص رجاله المخلصين لما رأوا من قلة حذره وتهاونه بنفسه إلى حد التهور ، فعزم أبطالهم على أن يقوه بأنفسهم ما استطاعوا . فكان لا يتقدم خطوة إلى الأمام إلا تقدموا معه محيطين به فى نصف دائرة ، فاستحر القتل فيهم ولم يثنهم ذلك عن الاندفاع معه إلى حد التهور إذ لا سبيل لهم مع ذلك إلى الأخذ بجانب الحيطة والحذر .

وبصر السلطان بسهم يصوب نحوه فشد عنان جواده فوثب الجواد قائما على رجليه ، فنشب السهم فى صدر الجواد فتداعى ونزل عنه السلطان ومسح عرقه وهو يقول : « فى سبيل الله أيها الرفيق العزيز ! » واستمر السلطان يقاتل راجلا وهو يصيح : « إلىَّ بجواد ! » فأراد بعض أصحابه أن ينزل عن فرسه فأبى السلطان عليه ذلك وقال له : « اثبت مكانك ، ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك فى هذا الوقت ! » .

وبقى يقاتل راجلا حتى جِىء له بفرس من الجنائب فامتطاها وتوغل بشطر كبير من جيشه فيما بين قلب العدو وميسرته ، وبعث إلى الأمير بهادر قائد الميمنة بما عزم من تطويق ميسرة العدو ، فأمر الأمير بهادر رجاله بالانتشار إلى الشرق فى اتجاه شمالى .

وبقى الملك المظفر يحث أصحابه على توسيع المجال الذى اخترقه فى

صفوف العدو ليقيم بذلك برزخا قويا بين ميسرة العدو وسائر جيشه ، فلم يزل البرزخ يتسع بما يندفع فيه من صفوف الجيش الإسلامى . وكان القتال أحمى ما يكون فى جانبى البرزخ ولا سيما فيما يلى قلب العدو ، حيث يرى كتبغا كبير التتار وقد استكلب فى القتال وهو يقاتل بسيفيه ، وخواص رجاله يقونه بأنفسهم من الضربات فيتصرعون أمامه وحواليه ، والملك المظفر يتردد بين البرزخ وبين سائر القلب ، حتى إذا ما عاينه كتبغا فى البرزخ تقدم صوبه بأبطاله يريد اختراق البرزخ إليه ، فأراد المظفر أن يلقاه فتقدمه أصحابه يبغون أن يصدوه عن ذلك إشفاقا عليه ، والسلطان يقول لهم : « دعونى ليس له قاتل غيرى ! أريد أن أقتله بيدى ! » .

فلما أعياهم ذلك انتدب أحد أبطالهم وهو الأمير جمال الدين آقوش الشمسى — وكان يقاتل إلى جانب السلطان — فأبصر فرجة فاقتحمها إلى قائد التتار الأكبر وصاح بجانب السلطان : « يا خوند ! أنا يدك لقد قتلت عدو الله بيدك ! » وأهوى بسيفه على عاتق الطاغية فأبانها ، وضربه كتبغا بيده الأخرى فصرعه من على فرسه ، ولكن الأمير آقوش كان قد زج حينئذ برمحه فى عنق الطاغية ، فلما هوى من فرسه هوى الطاغية معه ورمح آقوش ناشب فى حلقه وآقوش قابض على الرمح بيديه . وكبَّر الأمير آقوش — وسيوف العدو تتعاوره من كل جانب — فكبَّر السلطان وكبَّر من حوله معه ، فعرف المسلمون أن كتبغا قد هلك ، فكبَّروا جميعا بصوت واحد ألقى الرعب فى قلوب التتار ، فازداد هلعهم واختلت صفوفهم وأخذوا يتقهقرون .

فأمر السلطان جنود البرزخ وصفوف الميمنة أن يكملوا تطويق ميسرة العدو ، واندفع باقى القلب إلى البرزخ ليساعد ميسرة المسلمين التى عليها الأمير بيبرس على تطويق من لم يتمكن من الفرار من قلب العدو وميمنته ، فانحصر معظم جيش العدو فى هاتين الدائرتين ، وحيل بينهم وبين الفرار ، فأوقع بهم المسلمون وافنوهم ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح حتى امتلأ الغور بجثثهم وأشلائهم . ولم

يسلم منهم إلا القليل من ساقتهم الذين تمكنوا من الفرار ، واعتصم منهم جماعة بالتل المجاور لمكان الوقعة وأخذوا يمطرون المسلمين بوابل من سهامهم ، فأحدق بهم المسلمون وصابروهم فى القتال ، وحملوا عليهم مصعدين حتى سحقوهم سحقا بعد أن كثر قتلى المسلمين دون هذا التل ، لما لقوه من سهام التتار التى تتساقط عليهم كالمطر ولا تكاد تخطىء أهدافها .

وانتهت المعركة وقد تهللت وجوه المسلمين فرحا واستبشارا بما أنعم الله عليهم من هذا النصر الكبير ، وبما غنموا من أموال التتار مما نهبوه وسلبوه من أغنى المدن والبلاد التى مروا بها ، فكانت غنيمة عظيمة لم ير مثلها فى حروب ذلك العهد .

وخر الملك المظفر ساجدا لربه ، شاكرا لما اجتباه من أنعمه ، وأطال السجود ثم رفع رأسه والدموع تتحادر على لحيته حتى سلم من صلاته ، فامتطى صهوة جواده ، وخطب فى جيشه قائلا : « أيها المسلمون ، إن لسانى يعجز عن شكركم ، والله وحده قادر على أن يجزيكم الجزاء الأوفى ، لقد صدقتم الله الجهاد فى سبيله . فنصر قليلكم على كثير عدوكم . قال الله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، وقال عز وجل : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

إياكم والزهو بما صنعتم ، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله ، إنه ذو القوة المتين ، وما يدريكم لعل دعوات إخوانكم المسلمين على المنابر فى الساعة التى حملتم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم ، يوم الجمعة ، وفى هذا الشهر العظيم ، شهر رمضان ، كانت أمضى على عدوكم من السيوف التى بها ضربتم ، والرماح التى بها طعنتم ، والقسى التى عنها رميتم . واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه ، وأن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. ألا فترحموا

على إخوانكم الذين علم الله ما فى قلوبهم من الإيمان والخير ، فاختار لهم الشهادة والجنة ، واختار لكم النصر والبقاء ، لتعودوا للجهاد فى سبيله ، وما عند الله خير وأبقى . وترحموا على أمة الله سلطانتكم ، فقد صدقت الله ما عاهدته عليه ، وآثرت ما عنده على ما عند عبده قطز ! » .

وهنا أدركته الرقة فبكى وعلا نحيبه ، فبكى المسلمون جميعا وتعالت أصواتهم بالنحيب ، وهم يقولون : « يرحمها الله ! يرحمها الله ! » .

ثم تلا السلطان قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

الفصل الخامس عشر

فرغ الملك المظفر بعد ذلك لمحاكمة الأسرى من المسلمين الذين انضموا إلى التتار وأقبلوا من الشام يقاتلون إخوانهم المسلمين مع أعدائهم . فقُدِّموا إليه فردا فردا ، فكلما تقدم إليه واحد منهم سأله عن اسمه واسم أبيه واسم بلده ، وعن عمله وحاله من الفقر والغنى ، ثم سأله عن التتار وماذا يعتقد فيهم ، وما حمله على القتال معهم ، فكانوا يجيبونه بأجوبة مختلفة ، فإذا تبين له من كلام المسئول أنه لا عذر له من اضطرار أو إكراه أو جهل أمر به فضربت عنقه ، وإلا بيَّن له سوء عمله ، واستتابه وضمه إلى جيشه بعد أن أعلمه أن حكمه القتل ، ولكنه عفا عنه لما يتوسم فيه من بقية خير .

وكان في هؤلاء الأسرى ملك من ملوك آل أيوب انضم إلى التتار ، وقاتل معهم المسلمين يوم الغور قتالا شديدا ، فأمر به السلطان فجيء به إليه يرسف في قيوده ، فقتله السلطان بيده جزاء له على خيانته وفسقه ، ليكون عبرة لغيره من الملوك الذين يتمالأون مع أعدائهم على أمتهم ودينهم .

ثم تحرك الملك المظفر بعساكره إلى طبرية حيث أرسل كتابا إلى أهل دمشق يخبرهم بالفتح وكسر العدو ، ويعدهم بالوصول إليهم ونشر العدل فيهم ، وأنه سيولي عليهم خير من يرتضونه من ملوكهم وأمرائهم . وأمرهم بالقبض على أعوان التتار وأنصارهم من أهالي دمشق حتى يصل إليها فيرى رأيه فيهم .

وبعث بكتاب آخر في معناه لمولاه الأول السيد ابن الزعيم الذي كان مختبئا في بعض ضواحي دمشق . وكان ابن الزعيم يتنسم أخبار مملوكه قطز منذ فارقه

إلى الديار المصرية مع خادمه الحاج على الفراش ، وكان يراسله الفينة بعد الفينة ويشجعه على تحقيق البشارة النبوية ، حتى إذا جلس قطز على أريكة السلطنة كتب إليه يهنئه بها ، وختم رسالته بهذا الإمضاء : « من خادمكم المطيع ابن الزعيم » . فلما قرأها الملك المظفر بكى وقال : « الحمد لله الذى ولّى عبده قطزا على عباده المسلمين » ، وكان ابن الزعيم بعد ذلك يوالى الرسائل إليه ، ويصف له أحوال دمشق وغيرها من بلاد الإسلام ، ودخائل ملوكها وأمرائها وزعمائها ومواقفهم من معاداة التتار وموالاتهم . فاسترشد السلطان بهذه الرسائل فى حملته هذه على بلاد الشام وتطهيرها من دسائس التتار .

وما لبث الملك المظفر أن وصل بعساكره إلى ظاهر دمشق فى آخر يوم من شهر رمضان ، فخيم هناك حيث وافاه السيد ابن الزعيم ففرح به السلطان فرحا عظيما ، وطفقا يتعانقان طويلا والدموع تنهمر من عيونهما . وعيَّد السلطان فى ذلك الموضع ، وذبح الذبائح فأطعم الفقراء والمساكين من أهل القرى المجاورة . وأشار على ابن الزعيم فصلّى به وبعساكره صلاة عيد الفطر ،وتمنى كلاهما لو أن الشيخ ابن عبد السلام كان حاضرا ذلك اليوم ليؤم الناس .

ثم دخل السلطان مدينة دمشق ، ففرح به أهلها ، وأقاموا له الزينات ، واستقبلوه بالطبول والأعلام ، ونثروا على طريقه الأزهار والرياحين ، حتى نزل بقلعتها ؛ وكان أول شيء فعله عقب دخوله دمشق أن سيَّر الأمير بيبرس بجيش كبير فطارد فلول التتار ، وقتل منهم خلقا عظيما ، ونازل حاميتهم الكبيرة بحمص حتى مزق شملهم ، واستولى على حمص بعد أن قتل خلائق منهم وأسر ، وهرب الباقون فى طريق الساحل فتخطفهم عامة المسلمين ولم ينج منهم أحد . وكانت وقعة حمص هذه آخر أمر التتار ببلاد الشام ، فقد هربوا بعدها من حلب وغيرها ، وألقوا ما كان بأيديهم من أموال ومتاع ونجوا بأرواحهم فارين إلى بلادهم .

ولما بلغ هولاكو وهو ببلاد فارس انهزام عسكره وقتل نائبه الكبير كتبغا عظم

عليه الخطب ، وإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك . ولم يهدأ غضبه حتى قتل من لحق به من خونة ملوك الشام وأولادهم ، فلقوا جزاء خيانتهم بيد من مالأوه على إخوانهم المسلمين . إلا واحدا منهم عشقته زوجة هولاكو فشفعت له عند زوجها فعاش طليق امرأة كافرة !

ورحل طاغية التتار الأكبر ليومه بمن بقي من جموعه إلى بلاده ، تشيعه لعنة الله ولعنات المسلمين .

الفصل السادس عشر

استطاع الملك المظفر إلى هذا الحين أن يكبت حزنه على زوجته الشهيدة منذ سمعها تقول له وهى فى السياق « لا تقل وا حبيبتاه .. قل وا إسلاماه » فحبس دمعه واستمر منطويا على لوعته ما كان خطر التتار قائما فى بلاد الشام . فلما انتهى أمرهم بعد وقعة حمص وهرب الباقون منهم ناجين بأرواحهم إلى بلادهم ، وأكمل هو تدبير بلاد الشام وجعلها بأيدى من اصطفاهم من ملوكها وأمرائها ممن قاتل معه أو حسنت توبته ، شعر بأنه قد قام بما أوجبه الله عليه من الصبر على مصيبته بفقد زوجته لئلا يشغله الحزن عليها عن كمال الاضطلاع بالأمر العظيم الذى عاهد الله على القيام به . فرجع إلى نفسه وفكر فى مصابه وإذا هو قد فقد سلواه الوحيدة فى الحياة بفقد جلنار ، فانفجر ما كان حبيسا فى نفسه من الحزن إذ ضعف عن مغالبته ولم يعد يقوى على احتماله ، فسالت دموعه حتى تقرحت جفونه ، وأظلمت الدنيا فى عينه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت . وجعل يتذكر مصرع جلنار ، وكيف احتملها إلى المخيم ، وكيف قالت له تلك الكلمة التى صرخ بها ساعة العسرة فى الجيش فكانت مفتاح النصر . ثم تذكر أنها لن تعود معه إلى مصر ، ولن تشاطره فرح الناس بمقدمه ظافرا منتصرا تقام له الزينات والأفراح وتدق له الطبول وترفع الأعلام وتنثر فى طريقه الأزهار والرياحين ، وأنه سيأوى إلى قلعة الجبل وحيدا لا أنيس له ، وسيعود إلى الاضطلاع بشؤون الحكم وتدبير أمور الدولة ، وماذا فى الحكم غير النصب والهم والتقلب بين حسد الحاسدين وطمع الطامعين ؟ وأنّى له القدرة اليوم — وقد

ضعفت نفسه وخارت عزيمته — على كبح جماح الأمراء المماليك وغرامهم بالخلاف وتكالبهم على السلطة والجاه ؟ أيدع البلاد لهم فتعود إلى سيرتها الأولى من الظلم والفساد والفوضى والاضطراب ، وتنطلق أيديهم فى أموال الأمة وخيرات البلاد فيبتزونها بالباطل ، ويعودون إلى اكتناز الذهب والفضة والجواهر ، غافلين عن مصالح البلاد ، غير آبهين لما يتهددها من الأخطار ، حتى تحل بها كارثة لعلها تكون أعظم من كارثة التتار ؟ وقد رأى كيف أنهم لم يخرجوا معه لقتال التتار إلا بالإكراه والقسر ، وبعد أن تعب فى ممارستهم ومعالجتهم باللين وبالشدة ، ولقى منهم من التخاذل والتقاعس والتواكل مرة بعد مرة ما كان كافيا لصد أمضى العزائم وتخذيل أقوى النفوس حماسة ويقينا ، لو لم يظهره الله عليهم بتأييد من عنده .

وقد كان له فى الدنيا أمل هوَّن عليه كل ما لقى فى سبيل ذلك من المتاعب ، وذلل كل ما قام فى طريقه من المصاعب ، فأين ذلك الأمل اليوم ؟ لقد انطوى إلى الأبد . أين جلنار التى كانت تشاطره همومه وآلامه ، وتمسح بيدها الرقيقة شكواه ، وتطرد عن نفسه اليأس ، وتنعش فى قلبه الأمل ، وتذكى فى فؤاده الرغبة فى الحياة والمجد ؟ وما لذة الحياة بعد جلنار ؟ وفيم يطلب المجد وقد نامت العين التى كانت تباركه وتسهر عليه ؟

أين جلنار التى كان يشهد فيها بقية أهل بيته الذين نكبهم التتار ؟ وها هو ذا قد انتقم لهم وللإسلام من التتار ولكن بأى ثمن ؟ ما أحقر هذه الحياة الدنيا لذوى النفوس الشاعرة ، وما أهونها على من ينظر فى صميمها ، ولا ينخدع بزبرجها وباطل نعيمها . لقد كتب الله عليها أن لا يتم فيها شىء إلا لحقه النقصان ، ولا يربح فيها امرؤ إلا أدركه الخسران .

طغى الحزن الجبار على تلك النفس القوية فوهنت ، وعلى تلك العزيمة

الماضية فكلَّت ، وعلى تلك الهمَّة الطائرة فهيض جناحها ، وعلى ذلك الرأى الجميع فانتقض غزله من بعد قوة أنكاثا . وأصبح الملك المظفر يائسا فى الحياة يستثقل ظلها ، ويستطيل أمدها ، ويود لو استطاع فجاز ما بقى له فيها من الأيام مرحلة واحدة ، إلى حيث يلقى حبيبته الشهيدة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر !

ولكن الذى هزم التتار ، وحمى الإسلام فى وقعة عين جالوت فأضافها إلى أخواتها الكبرى : بدر وأحد ، والقادسية واليرموك ، وحطين وفارسكور . لم يكن لينسى إذا هو عاف الحكم وضاق ذرعا بالحياة أن ينظر للإسلام وأهله ، فيختار من بين المسلمين رجلا قويا يعهد إليه بحكمهم ، ويبرأ به إلى الله من تبعتهم فظل أياما يتلفت فيمن حوله من الملوك والأمراء . فما ملأ عينه منهم إلا صديقه القديم وعدوه اللدود ونصيره فى جهاد التتار : الأمير ركن الدين بيبرس فقد رآه — على ما فيه من الخديعة والمكر والتكالب على الرئاسة والحكم — أقومهم جميعا بالأمر ، وأقدرهم عليه ، وأجدرهم أن يسوق الناس بعصاه ويحملهم على ما فيه استقامة أمورهم ، ودوام قوتهم وعزتهم ، وبقاء هيبة الإسلام فى صدور أعدائه ، فعزم على أن ينزل له عن الحكم ويتخلى له عن عرش مصر عاصمة المسلمين وملاذهم ، ومظهر قوتهم وسلطانهم فى ذلك الحين .

ولكنه رأى أن يكتم هذا الأمر عن الناس حتى يعود إلى مصر ، خوفا من الفتنة وخشية من انتقاض الأمراء المماليك واختلافهم إذا سمعوا بذلك ، ولا سيما المعزية منهم إذ كانوا يرون أنفسهم أولى من غيرهم بالحظوة والتقدم عند المظفر لما بينه وبينهم من صلة الخشداشية والانتساب إلى أستاذ واحد هو الملك المعز عز الدين أيبك ،وكانوا ، قد نقموا على السلطان أنه ساواهم بالأمراء الصالحية فى الإقطاعات التى أقطعهم إياها ببلاد الشام ، واعتقدوا أنه ظلمهم بذلك ، وتحدث بعضهم إلى بعض فى مطالبة السلطان بحقهم المهضوم ،

والالتجاء إلى القوة فى إكراهه على ذلك إذا اضطروا إليها ، ولكنهم خشوا أن يتشيع الصالحية للسلطان ، ويكونوا معه إلبا واحدا عليهم ، فأرجأوا التفكير فى ذلك إلى فرصة ملائمة .

وكان الأمير بيبرس قد سأل السلطان أن يعطيه نيابة حلب وأعمالها ، فوعده بذلك . ولكنه لما عزم على النزول له عن الحكم كله وتوليته سلطانا على مصر مكانه لم يبق عنده موضع للوفاء للأمير بيبرس بما وعد ، فأعطى نيابة حلب لأحد ملوك الشام .

ولما بلغ ذلك الأمير بيبرس غضب غضبا شديدا على السلطان واضطرم حقده عليه وأيقن أن السلطان إنما حسده على ما أظهره هو من آيات البطولة فى قتال التتار ومطاردتهم إلى أقاصى البلاد ، فخشى أن ينافسه فى الحكم ويؤيده الناس فى ذلك ، فأراد بها اهتضامه وإذلاله ، وإشعاره بقوته وسلطانه ، وقدرته عليه وعلى رجاله بعد أن خضعت له رقاب الملوك ، ودانت له بلاد الشام قاطبة .

ومما قوى هذا الظن عند بيبرس أمران : أحدهما أنه كان ينوى منافسة السلطان حقا حين طلب منه نيابة حلب ليستقل بها ويتخذها بعد ذلك نواة لإشباع مطامعه بالاستيلاء على ما دونها من البلاد حتى يضم الشام جميعها تحت لوائه ، وحينئذ ينازع الملك المظفر على عرش مصر . ولم يختر نيابة حلب فى أقصى الشام عبثا ، فقد آثرها لأنها ببعدها عن مركز السلطان أصلح من غيرها للقيام بحركته ،وثانيهما أنه لم ينس ما كان منه فى مصر من تحريض الأمراء على السلطان ، حين دعاهم السلطان للنزول عن أملاكهم لبيت المال ، فظن أن السلطان إنما اغتفر له ذلك واستبقاه لحاجته إليه يومئذ ، حتى إذا استغنى عنه وتمكن منه عاقبه على ما سلف من ذنبه لئلا يعود فى المستقبل إلى مثله .

هذا ما وقر فى قلب بيبرس ، ولم يكن يعلم من نية السلطان شيئا . إذ لم يشأ

السلطان أن يخبره بما طوى عليه عزمه ، لاعتقاده أن بيبرس لن يقدر على كتمانه ولا بد أن يبوح بهذا السرُ لأصحابه ، فينتشر الخبَر ويقع الاختلاف المحذور .

ولم يكن ما سبق رأى بيبرس وحده بل شايعه على ذلك أصحابه من الأمراء الصالحية ومماليكهم وأتباعهم ، فأوغروا صدره على السلطان وقالوا له : « لولاك لما صنع شيئا ولما قدر على هزم التتار ، وهو الآن يملك بلاد الشام كلها ، ويفرق ولاياتها على من شاء من الملوك والأمراء الذين لم يبلوا بلاءك ، ولم يقوموا ببعض ما قمت به ، من غير سابق وعد ، ولا سالف عهد ، ويبخل عليك بنيابة مدينة واحدة في أقصى الشام كنت طلبتها منه فوعدك بها ، فهل تريد أشد من هذا إدلالا واستخفافا بأمرك ؟ وما يمسك يمسنا جميعا ، ولا يغرنك ما أقطعنا من الإقطاعات في الشام فإنما أراد بذلك إسكاتنا إلى حين ريثما يتمكن من رأسك ، وحينئذ يستردها منا ويردها على أصحابه بعد التخلص منك » .

وجاء بيبرس — وهو يكتم غضبه — إلى الملك المظفر ، فعتب عليه أنه أخلف وعده وأعطى نيابة حلب لملك لم يقم بمعشار ما قام هو به من جهاد التتار وطردهم عن البلاد .

فقال له السلطان : « إني لا أنكر يا بيبرس بلاءك العظيم في قتال العدو ، ولا أضن بعده بشيء عليك ، ولكني أخشى إذا أنا وليتك على حلب أن تغرك نفسك في ذلك الطرف القصي فتستقل بحكمها وتسعى لضم سائر البلاد إليك ، وتشق بذلك كلمة المسلمين ، وقد بلوت طباعك يا بيبرس فلست أجهل مطامعك ونياتك » .

فامتعض بيبرس واضطرب لأن السلطان كشف الحجاب عن ذات صدره ، وصرح له بأنه على علم بخبيئة نفسه ، ولكنه أخفى امتعاضه واضطرابه وقال له : « سأحلف لك بأغلظ الأيمان أني لا أستقل عنك ، ولا أنتقض عليك » .

قال السلطان : « إن نفسك الأمارة بالسوء ، لن تعدم سببا تتعلل به لنقض أيمانك المغلظة » .

قال بيبرس محتدا : « إذا كنت لا تنوى إعطائى نيابة حلب ، فلماذا وعدتنى بها ؟ » .

فأجابه السلطان : « وعدتك بها حين رأيت فى ذلك مصلحة المسلمين ، ومنعتك إياها حين خشيت من ذلك على كلمة المسلمين » .

— إذن فأعطنى نيابة دمشق فهى أقرب إليك من حلب .

— هيه يا بيبرس كيف تريد من لا يأمنك على طرف من أطراف بلاد الشام أن يأمنك على عاصمتها ؟

فقال بيبرس وقد بان الغضب فى وجهه : « أذن فما قصدك إلا مراغمتى واهتضام حقى . فابق على ما أنت عليه ، فسأعرف ماذا أصنع ! » .

فضحك السلطان ضحكة خفيفة وقال له : « هأنتذا يا صديقى قد أظهرت عصيانى وأنا بعد عندك ، فكيف لو بعدت بى الدار عنك ؟ إنك يا بيبرس — ما علمت — لشرس الطباع سريع البادرة ، ولعل الله جعل فى ذلك خيرا للمسلمين ، فاجتهد أن لا تستعمله فى غير موضعه . واعلم أنى ما أردت بمحاجتك إلا أن تثوب إلى رشدك ، فلا تؤثر مصلحتك على مصلحة أمتك ودينك . ومن يدرى لعلك تكون يوما ما سلطانا على المسلمين ؛ فليت شعرى بأى خلق تسوسهم ، وأى طريق تسلك بهم إذا كان هواك غالبا على تقواك ؟ » .

فقال بيبرس : « أسألك بالله يا خوند ألا تجمع على بين المنع والسخرية ، فإنى قد أحتمل الأمر الأول ، ولكنى لا أحتمل الثانى » .

قال السلطان : « إنى والله ما أسخر منك يا بيبرس ، فأنت حقا جدير بأن تكون سلطان المسلمين لو استطعت أن تدوس هواك بقدمك . ولكن دعنا الآن من حديث السلطنة فالله أعلم حيث يجعل ولاية المسلمين ، وأصغ إلى ما أريد أن أحدثك به : الحق أقول إنى ما منعتك حلبا أو دمشق إلا لحرصى على ألا تكون

بعيدا عنى ، فإنى بحاجة إلى مثلك فى مصر . وقد رأيت ما نزل بى من المصيبة بفقد السلطانة — رحمها الله — ولا آمن أن يغلبنى الحزن فيشغلنى عن القيام بواجبى نحو رعيتى . فأريدك أن تستر نقصى وتجبر تقصيرى » .

فسكت بيبرس مليا يفكر فيما يجيب به السلطان وجعل ينظر إلى وجهه كأنه يريد أن يتبين قصده . فما رأى على السلطان إلا آيات الانكسار والحزن ودلائل الإخلاص والصدق . فحار فى أمره وخشى أن يكون ذلك خديعة منه ، ثم قال له : « أليس فى وزير السلطان وأتابكه وكبار أصحابه ما يغنيه عنى ؟ » .

فقال له السلطان : « إنى لا أستغنى عمن ذكرت ، فلهؤلاء شؤونهم ، ولكنهم لا يقومون لى بما تقوم به أنت » .

قال بيبرس : « ماذا عسى أن ترجو من شرس مثلى ، لا يؤمن على ولاية صغيرة قاصية ؟ » .

فقال السلطان : « ما تزال يا بيبرس طامعا فى هذه الولاية الصغيرة ، وما تدرى بأنى محتفظ لك بخير منها ومن دمشق » .

فقال بيبرس : « لعلها قصبة قليوب التى أقطعتنى إياها ! » .

فضحك السلطان مرة أخرى ، وقال له : « لا يا صديقى بيبرس ، بل خير منها كثيرا ، إنها قلعة الجبل ... قلعة ال ... » .

وهنا وقف السلطان ولم يتم كلمته ، وبقى برهة واجما كأنه ندم على تصريحه بذلك لبيبرس . ثم استأنف حديثه قائلا : « انصرف يا صديقى مطمئنا ، فليس لك عندى إلا الخير » .

وما خرج الأمير بيبرس من عند السلطان ، حتى تلقاه جماعته الذين كانوا فى انتظاره ، فرأوه أشد غما وأكثر حيرة مما كان قبل مقابلته للسلطان فى قلعة دمشق . فبدأوه السؤال عما جرى بينه وبين الملك المظفر . فحدثهم بكل ما دار بينهما من الحوار ، وهم يصغون إليه ، حتى إذا ما انتهى إلى قول السلطان : « إنها قلعة الجبل » قالوا له : « حسبك ، قد صرح لك السلطان بما

يضمر لك . إنه يعنى أنك ستلقى مصرعك هناك كما لقى صاحبك أقطاى . لله ما أشد جرأته عليك واستخفافه بك إذ يقول هذه الكلمة فى وجهك وهو ضاحك يتلهى بك » .

فبدرهم بيبرس قائلا : « ولكنه قطع ضحكه بعد أن لفظ هذه الكلمة وبقى برهة واجما » .

قالوا له : « إنه لا ريب ندم على تهوره هذا بالتصريح لك بما نوى من قتلك » .

قال بيبرس ، وقد اشتد حنقه واحمرت عيناه : « قلعة الجبل ! لا والله لألحقنه بزوجته التى يبكيها قبل أن ترى عينه قلعة الجبل ! ما بالكم تنظرون إلى ؟ ما رأيكم ؟ أشيروا على ! » .

قالوا له : « إنك سريع التقلب يا بيبرس . وإنا نخشى أن نشترك معك فى هذا الأمر الخطير ، ثم تنكل عنه وتتركنا للسلطان يتحكم فى رقابنا ! » .

قال بيبرس غاضبا : « ويلكم أأترككم له وقد حلفت لكم لأقتلنه ؟ » .

قالوا له : « ولكنك قد حلفت بمثل هذا عند قتل أقطاى ، ثم رجعت عن يمينك وعدت إليه تطلب منه الأمان فأقطعك قصبة قليوب ، فما يدرينا أنك لا تعود لمثلها فيقطعك قلعة الجبل ؟ ! » .

فصاح بهم بيبرس : « كفى ! » . فسكتوا جميعا وبقوا كذلك برهة حتى قال لهم بيبرس : « ولكن ما رأيكم فى المعزية ماذا نصنع بهم ؟ » .

قالوا له : « لقد كفاك الله مؤونتهم . إنهم غاضبون جميعا على صاحبهم سوى بيننا وبينهم فى الإقطاعات . وما علموا أنه إنما فعل ذلك خديعة لنا ليسك إلى حين . وهب أنهم قاموا له أتظننا نعجز عنهم وقد قطعنا رأسهم ؟ أقد نسيـ

يا بيبرس أننا هربنا من البلاد لما رمى إلينا برأس أقطاى ونحن يومئذ سبعمائة فارس ؟ » .

فقال لهم بيبرس : « ما رأيكم فى استمالة أقطاى المستعرب إلينا ليكون معنا فى هذا الأمر ؟ » .

فاختلفوا فى الرأى ، فمن قائل : « نستميله فهو صالحى مثلنا ، وسيذلل لنا السبيل لقتل السلطان » . ومن قائل : « بل نكتم هذا الأمر عنه فهو وإن كان صالحيا إلا أنه مخلص للسلطان وهواه مع المعزية ، ولكنه إذا رآنا قد قطعنا الرأس فإنه عائد إلينا لا ريب » .

وأخذ القوم بعد ذلك يتشاورون كيف وأين يقتلون السلطان ؟ واتفق رأيهم آخر الأمر على أن يترصدوه فى طريقه راجعا إلى مصر حتى إذا أمكنتهم منه غرة تعاوروه بسيوفهم . وعلى أن يشركوا معهم فى ذلك اثنين من المعزية هما الأمير سيف الدين بهادر والأمير بدر الدين بكتوت الجوكندار ، ليكون ذلك أسهل فى إرضاء المعزية إذا ثاروا لصاحبهم ، حين يرون أن الصالحية لم ينفردوا دونهم بهذا الأمر . وقد اختاروا هذين الرجلين لشدة حقدهما على السلطان وحسدهما له .

وما هى إلا أيام حتى عزم الملك المظفر على الرجوع إلى مصر بعد أن رتب أحوال النواب والولاة ببلاد الشام ، ورد المظالم إلى أصحابها ، فأعاد إلى مولاه ابن الزعيم ما صادر التتار من أملاكه ، وما صادره منها الملك الصالح إسماعيل قبل ذلك ، وأحسن إلى صديقه القديم الحاج على الفراش وأكرمه وخلع عليه وسأل عن موسى بن غانم المقدسى فقيل له إنه قد بدد ميراث أبيه فأصبح فقيرا فأمر نائبه بدمشق فأجرى راتبا له ؛ وعن مولاته العجوز أم موسى فقيل له إنها ماتت فذهب إلى قبرها يزورها ويترحم عليها .

وخرج من دمشق بعد أن ودع مولاه ابن الزعيم وداعا حارا ، وسار بعساكره

وأمرائه المعزية والصالحية . وكان الأمير بيبرس لا يفارقه طوال الطريق يتحدث معه ويسليه عن مصابه . وقد أظهر له الرضا التام عنه ، ولم يعد يذكر له حلبا ولا دمشق ، فإذا جرى ذكرهما عرضا في الحديث قال له بيبرس : « لقد اخترت لي الخير يا خوند ، فإني لا أعدل بالإقامة في مصر بديلا » .

فلم يزل السلطان سائرا إلى أن خرج من الغرابى وقارب الصالحية ، وكان أتابكه أقطاى المستعرب قد سبقه إليها بالعساكر ومعظم الأمراء ، ليعد بها الدهليز السلطاني لنزوله . فرأى السلطان أرنبا بريا منطلقا في جانب الطريق ، فلم يملك نفسه إذ رآه أن انحرف عن الدرب ودفع جواده يسوق وراء الأرنب . وقد خيل إليه إذ ذاك أن جلنار تسوق معه على جوادها الصغير لصيد الأرنب كما كانا يفعلان في ربوع الهند ، فاستمر في عدوه حتى أبعد في البرية . فما راعه إلا الأمير بيبرس وستة معه من الأمراء ، فالتفت إليهم السلطان قائلا : « أنتم أيضا تحبون صيد الأرانب مثلي ؟ » .

فأجابه بيبرس قائلا : « إنك تعلم يا خوند أني لا أحب صيد الأرانب ، وإنما رأيناك أبعدت في البرية فخشينا عليك ولحقنا بك » .

فقال السلطان : « شكرا لكم لا خوف علي من عدو هنا » . والتفت إلى الدرب وراءه فقال : « أراني أبعدت حقا كما ذكرتم فهلم بنا نعد ! » .

فبدره بيبرس قائلا : « أريد قبل أن أنسى يا خوند ، أن تمن علي بتلك الأسيرة التترية التي حدثتك عنها أمس فإنها أعجبتني » .

فابتسم السلطان وقال له : « قد علمت أنك مغرم بأصناف النساء يا بيبرس . خذها لك إن شئت » .

فشكره بيبرس وترجل عن فرسه ، ودنا منه ليقبل يده ، فمد إليه السلطان يده ، فقبض عليها بشدة — وكانت تلك إشارة بينه وبين جماعته الأمراء — فحمل أحدهم على السلطان فضرب عاتقه بالسيف ، وتعلق به آخر فألقاه عن فرسه ، ورماه ثالث بسهم فنشب في صدره .

وكان السلطان في خلال ذلك لا يبدى أية حركة للمقاومة ، وإنما كان يقول : « حسبى الله ونعم الوكيل ... أتقتلنى يا صديقى بيبرس وأنا أريد أن أوليك سلطانا مكانى ؟ » .

فلما سمع ذلك بيبرس منعهم من الإجهاز عليه ، فصاحوا به : « أراد أن يخدعك ، دعنا تتم قتله » . فأبى بيبرس عليهم فصاح الأمراء مرة ثانية : « دعنا يا بيبرس قبل أن يأتينا هؤلاء » . فقال لهم بيبرس : « دعوهم يأتوا إلينا . إنه لن ينجو مما به » .

وكان بيبرس يريد أن يستوضح السلطان كلمته الأخيرة ، وكان السلطان قد أغمى عليه إذ ذاك ، فأحاطت بهم الفرسان شاهرين سيوفهم . وكانوا جماعة من خواص السلطان ومماليكه قد ارتابوا فى سير الأمراء وراءه ، فلحقوا بهم ، فقالوا للأمراء : « ألقوا سلاحكم فى الأرض وإلا قتلناكم ! » .

فانتبه السلطان لصوتهم ورفع طرفه إليهم ، وهو ملقى على الأرض ، وقام بيبرس شاهرا سيفه يريد مقاومتهم . واستعد الأمراء الآخرون للدفاع عن أنفسهم فحمل الفرسان على بيبرس يريدون قتله ، فما راعهم إلا صوت السلطان : « دعوا بيبرس لا تقتلوه ! إنه سلطانكم قد وليته عليكم فأطيعوه ! » .

قال الفرسان : « إنهم قتلوك يا خوند ، فلن نتركهم » . قال السلطان : « ما قتلنى غير سلطانكم بيبرس وقد سامحته ، فاسمعوا له وأطيعوه ، وقولوا للأتابك أن يسمع له ويطيع .

فدهش الفرسان لما سمعوا من السلطان . فوقفوا جامدين فى أماكنهم . وألقى بيبرس سيفه إلى الأرض ودنا من السلطان . وأهوى عليه يقبل رأسه ويديه . ويقول : « يا خوند ! اذبحنى يا خوند ! ويل لى . قتلت سلطان المسلمين ! قتلت هازم التتار ! . قتلت صديقى الكريم ! » .

وكان السلطان إذ ذاك قد تولاه مماليكه وأسندوه على ظهره . وجعلوا يمسحون عنه الدم بمناديلهم وثيابهم . وهو يردد الشهادتين . فتركه بيبرس لهم والتقط سيفه

وسار إلى الأمراء الواقفين وهو يصيح : « ويل لكم يا خونة يا مجرمون ! » فتحاماه الأمراء وجعلوا يتقهقرون عنه .

وعندئذ صاح السلطان بجهد ومشقة : « بيبرس ! بيبرس ! دعهم يا بيبرس ، قد عفوت عنك وعنهم . أنتم فى حل جميعا . شكرا لكم .. قربتمونى من زوجتى .. جلنار .. تعال يا بيبرس » .

فعاد بيبرس واقترب منه ، فقال السلطان : « أتستحل دمى يا بيبرس ؟ » .

فأجابه بيبرس والدموع فى عينيه : « كلا يا خوند وإنما خشيت أن تقتلنى فاتقيت ذلك » .

فقال السلطان : « كيف أقتلك وقد وعدتك بالسلطنة ؟ ألم أقل لك يوما أنى سأعطيك قلعة الجبل ؟ » . قال بيبرس : « واأسفاه ظننتك تريد قتلى بقلعة الجبل » .

قال السلطان : « الحمد لله إذ لم تستحل دمى ، وإنما شط بك الظن . قاتل أعداء الإسلام يا بيبرس .. هذه وصيتى لك . ويغفر الله لك خطيئتك ! » .

وصرف السلطان نظره عن بيبرس إلى السماء . وتنهد من أعماق قلبه . كأنما انتزعها من روحه انتزاعا : « واحبيبتاه ! . واإسلاماه ؟ » وخفق رأسه خفقة ، لفظ على أثرها روحه . فحمله مماليكه إلى حيث دفنوه مبكيا عليه .

وانطلق بيبرس يتقدمه رجال السلطان الشهيد وخلفه سائر الأمراء حتى بلغوا الدهليز السلطانى بالصالحية فوجدوا على بابه الأتابك أقطاى المستعرب . فأخبره رجال السلطان بما كان من مصرع مولاهم بأيدى الأمراء السبعة ، ومن وصيته لبيبرس بالسلطنة . فعظم على أقطاى أن يغدر هؤلاء الأمراء بهذا السلطان العظيم ، فى أوج انتصاره ، وساعة قفوله ظافرا إلى بلاده . ولكنه عجب من وصية السلطان لبيبرس ، وكيف لم يذكر له السلطان عنها شيئا ، ولم يعرض له

فيها بشيء . ولولا أن خواص رجال السلطان أنفسهم حكوا له ذلك لما صدق هذا الخبر . وقد زاد من غضبه ونقمته على بيبرس أن يشترك مع الستة فى قتل من أراد أن ينزل له عن السلطنة .

وكان فى وسع الأتابك أن يصنع شيئا . فقد ثار المعزية جميعا لصاحبهم . فلو أمرهم بالقبض على بيبرس وجماعته لأطاعوه ولكانوا ولوه سلطانا إذا نجح فى ذلك ولكنه رأى وصية السلطان لبيبرس حائلة دون ما يريد ، فعزم على تنفيذها والطاعة لبيبرس . إلا أنه أراد أن يبكته على فعلته الشنيعة ويذكره أنه سيجلس على أريكة صديق له أراد به الخير فكان جزاؤه منه القتل .

ولما حضر بيبرس والأمراء الستة أدخلهم الأتابك إلى الدهليز ، وكان الأمراء المعزية ومماليك السلطان وأشياعه قد ركبوا إلى الدهليز فأحاطوا به متهيئين لما يسفر عنه الحادث . وكذلك وقف الأمراء الصالحية ينتظرون ما يكون من بيبرس .

قال الأتابك أقطاى للأمراء السبعة : رحم الله مولانا السلطان ! .. من قتله منكم ؟

فسكتوا مليا وخشوا أن يكون أقطاى قد أعد العدة لقتلهم ، وكان الستة قبل ذلك يخافون بطش بيبرس لأنه نقم عليهم تحريضهم اياه على قتل السلطان . فعادوا الآن يخافون أقطاى الأتابك .

ولكن بيبرس ما لبث أن أجاب الأتابك بصوت جهير تخالطه نغمة الحزن : « أنا قتلته ! » .

فنظر إليه الأتابك نظرة دامعة عاتبة وقال له : « فاجلس على الأريكة مكانه يا خوند ! » .

وأدرك بيبرس غرض الأتابك من تبكيته فلم يقل شيئا ، بل مشى متثاقلا إلى

الأريكة حتى جلس عليها ، وبقى برهة واجما يغالب عبرة تترقرق فى عينيه ثم قال : « يرحم الله صديقى المظفر ! هلموا نفذوا وصيته ، واحلفوا لسلطانكم الجديد الملك القاهر » . ومد يده فصافحه الأتابك وحلف له ، وتبعه الأمراء الستة فحلفوا له . ثم تتابع الأمراء الذين كانوا خارج الدهليز فدخلوا إليه وحلفوا له ، ثم حلفت له العساكر جميعا .

ودخل الملك القاهر بيبرس إلى القاهرة — وكانت قد زينت لمقدم الملك المظفر فأبقيت كما هى — وسار فى موكبه ولم يشأ أن ينزل قلعة الجبل إلا بعد أيام لحزنه على الملك المظفر ، حتى قيل له إن سلطتك لا تتم إلا إذا أقمت بقلعة الجبل ، فانتقل إليها حينئذ . وخوفوه من شؤم لقبه فعدل عنه وتلقب بالملك الظاهر .

وما سمع الناس بمصرع الملك المظفر وقدوم بيبرس سلطانا مكانه حتى عراهم هم عظيم . وحزنوا على الملك المظفر حزنا شديدا . وبكوه بعيونهم وقلوبهم برهة ، ثم خشوا السلطان الجديد فكفت عيونهم عن بكاء المظفر وظلت قلوبهم وحدها تبكيه !

أما الشيخ ابن عبد السلام فلما بلغه موت تلميذه العظيم بكى وانتحب وكان مما قال فيه : « رحم الله شبابه ، لو عاش طويلا لجدد شباب الإسلام ! لله أبوه ! ما منعه من اختيار بيبرس بغض بيبرس له ، وما ولى أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز من يعادله صلاحا وعدلا ! »

وجهد الملك الظاهر بيبرس لينال رضى الناس عنه ، فألغى الضرائب التى فرضها عليهم الملك المظفر لبيت المال ، فهل رضوا عنه بعد ذلك ؟ وماذا قالوا فيه ؟ قالوا : « إنه أبطل ما علينا لبيت المال ، ولم يبطل ما علينا لنفسه وأمرائه ومماليكه ! » .

على أن الملك الظاهر لم يأل جهدا فى العمل بوصية صديقه وسلفه الملك المظفر قطز ، فقد ظل يذكرها ويقوم بها إلى آخر أيامه ، فوفى للإسلام ، وقاتل أعداءه من التتار والصليبيين حتى أذلهم ، ونهض بمصر وأعلى كلمتها حتى

جعلها في عهده امبراطورية عظيمة باذخة .

* * *

ورؤى الملك الظاهر بيبرس ذات يوم يقلب يده في أوراق الملك المظفر قطز ، فعثر على كتاب هذا نصه :

إلى ولدى الأعز الأجل الملك المظفر قطز :

تلقيت كتابك جواب التهنئة باعتلائك عرش مصر ، تذكر فيه عزمك على الرجوع إلى اسمك الأول الذى سماك به أبوك الأمير ممدود وإشهاره ، ثم عدولك عن ذلك حشية أن ينتقض عليك الأمراء المماليك إذا علموا بأصلك ، وتستشيرنى في ذلك ، فالرأى عندى ما رأيت . وليس العبرة بالأسماء ، ولكن بالخلال والأعمال . والله يعلم أنك محمود بن ممدود ابن أخت السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، وأن التي تحت عصمتك هي ابنة خالك جلال الدين ، فحسبك هذا من ربك . والناس يعلمون أنك مملوك علت به همته وكفايته وصلاحه ، حتى صار من أعظم ملوك المسلمين وأعدلهم ، وحسبك هذا من الناس .

والسلام منى ، ومن خادمك الأمين الحاج على الفراش ، عليك وعلى شيخنا الإمام عز الدين بن عبد السلام ورحمة الله وبركاته .

كتب بدمشق في غرة المحرم سنة ٦٥٨

من خادمك المطيع

ابن الزعيم

فلما قرأ الملك الظاهر بيبرس هذا الكتاب تدحرجت دمعتان كبيرتان على خديه حتى توارتا في لحيته ، وجعل يقول بصوت لا يسمعه غيره : « رحمة الله عليك يا صديقى قطز ! لشد ما أتعبنى اقتفاء أثرك ، وما أرانى بعد الجهد الطويل أبلغ بعض ما بلغت » .

« تمت »

الأستاذ علي أحمد باكثير

١ ـ اخناتون ونفرتيتي
٢ ـ سلامة القس
٣ ـ وا اسلاماه
٤ ـ قصر الهودج
٥ ـ الفرعون الموعود
٦ ـ شيلوك الجديد
٧ ـ عودة الفردوس
٨ ـ روميو وجولييت
(مترجمة عن شكسبير بالشعر المرسل) .
٩ ـ سر الحاكم بأمر الله
١٠ ـ ليلة النهر
١١ ـ السلسلة والغفران
١٢ ـ الثائر الأحمر
١٣ ـ الدكتور حازم
١٤ ـ أبو دلامة (مضحك الخليفة)
١٥ ـ مسمار جحا
١٦ ـ مسرح السياسة
١٧ ـ مأساة أوديب
١٨ ـ سر شهرزاد
١٩ ـ سيرة شجاع
٢٠ ـ شعب الله المختار
٢١ ـ امبراطورية في المزاد
٢٢ ـ الدنيا فوضى
٢٣ ـ أوزوريس
٢٤ ـ فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية
٢٥ ـ دار ابن لقمان
٢٦ ـ قطط وفيران

٢٧ ـ الله اسرائيل
٢٨ ـ هاروت وماروت
٢٩ ـ الزعيم الأوحد
٣٠ ـ جلفدان هانم
٣١ ـ الفلاح الفصيح
٣٢ ـ حبل الغسيل
٣٣ ـ الملحمة الاسلامية الكبرى « عمر » فى ١٩ جزءا

الأستاذ نجيب محفوظ

همس الجنون ـ مجموعة أقاصيص
عبث الأقدار ـ قصة تاريخية
رادوبيس ـ جائزة قوت القلوب
كفاح طيبة ـ جائزة وزارة التربية والتعليم
خان الخليلى ـ جائزة مجمع اللغة العربية
القاهرة الجديدة
زقاق المدق
السراب
بداية ونهاية
بين القصرين
قصر الشوق
السكرية
(بين القصرين، قصر الشوق، السكرية: رواية من ثلاثة أجزاء فازت بجائزة الدولة)
اللص والكلاب
السمان والخريف
دنيا الله ـ مجموعة أقاصيص
الطريق
بيت سيىء السمعة ـ مجموعة أقاصيص
الشحاذ

ثرثرة فوق النيل
ميرامار
خمارة القط الأسود — مجموعة اقاصيص
تحت المظلة — مجموعة اقاصيص
حكاية بلا بداية ولا نهاية — مجموعة اقاصيص
شهر العسـل — مجموعة اقاصيص
المرايا
الحب تحت المطر
الجـريمة
الكرنك
حكايات حارتنا
قلب الليل
حضرة المحترم
الحرافيش

الأستاذ عبد الحميد جوده السحار

ابو ذر الغفارى — ترجم الى الاندونيسية
بلال مؤذن الرسول
فى الوظيفة (مجموعة اقاصيص)
سعد بن ابى وقاص
همزات الشياطين (مجموعة اقاصيص)
ابناء ابى بكر الصديق
فى قافلة الزمان (رواية)
اميرة قرطبة (قصة)
النقاب الأزرق (قصة)
المسيح عيسى بن مريم
اهل بيت النبى
محمد رسول الله
تاليف : مولاى محمد على
ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

قصص من الكتب المقدسة (مجموعة اقاصيص)
صدى السنين (مجموعة اقاصيص) ترجمت الى الاندونيسية
حيـاة الحسين
الشارع الجديد (رواية)
صانعو التاريخ الأمريكي
صانعو الاقتصاد الأمريكي
وكان مساء (قصة)
انرع وسيقان (قصة)
المستنقع (قصة)
ليلة عاصفة (مجموعة اقاصيص)
الحصـــاد (رواية)
جسر الشيطان (قصة)
النصف الآخر (قصة)
السهول البيض (رواية)
ام العروسة (قصة)
قلعة الأبطال (قصة)
وعد الله واسرائيل
عمر بن عبد العزيز
هذه حياتى
الحفيـد
ذكريات سينمائية
الدستور من القرآن العظيم

محمد رسول الله والذين معه (فى عشرين جزءا)

قصة الاسلام منذ أيام ابراهيم الخليل الى أن لحق محمـد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى . وقد كتب المؤلف الحقائق التاريخية فى أسلوب قصصى أخاذ .

١ ـ ابراهيم ابو الأنبياء
٢ ـ هاجر المصرية ام العرب

٣ ـ بنو اسماعيل
٤ ـ العدنانيون
٥ ـ قريش
٦ ـ مولد الرسول
٧ ـ اليتيم
٨ ـ خديجة بنت خويلد
٩ ـ دعوة ابراهيم
١٠ ـ عام الحزن
١١ ـ الهجـرة
١٢ ـ غزوة بدر
١٣ ـ غزوة أحد
١٤ ـ غزوة الخندق
١٥ ـ صلح الحديبية
١٦ ـ فتح مكة
١٧ ـ غزوة تبوك
١٨ ـ عام الوفود
١٩ ـ حجة الوداع
٢٠ ـ وفاة الرسول

الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

لقيطة (ليلة غرام) : جائزة المجمع اللغوى لأحسن قصة ٠ جائزة وزارة الشئون لأحسـن فيلم ترجمت الى الفارسية

بعد الغـروب : قصـة الفقير الموهوب يشـق طريقه بالفاس فى الصخور ٠ جائزة وزارة التربية والتعليم

شجرة اللبلاب : قصة عذراء أهدت قلبها لشاب متردد شكاك ٠ ترجمت الى الانجليزية٠

شمس الخريف : ماذا تأخذ منا الحيـاة وماذا تعطى جائزة الدولة فى الأدب

غصن الزيتون	:	لا تجعلنا نحب من لا يحبوننا حتى . لا تشقينا بالحب مرتين يا الهى ترجم الى الصينية ٠
الماضى لا يعود	:	مجموعة اقاصيص
من اجل ولدى	:	قصة الحب العائلى والمرأة فى صورها الأربع : أما ، وزوجة ، وحبيبة ، وعشيقة ٠
الوان من السعادة	:	مجموعة اقاصيص
الوشاح الأبيض	:	قصة حب جميل ٠ ولكن هل حققت الايام منى المحبين ؟
سكون العاصفة	:	قصة طويلة
الضفيرة السوداء	:	مجموعة اقاصيص
الجنة العذراء	:	مجموعة اقاصيص
اشـياء للذكرى	:	مجموعة اقاصيص
خيوط النور	:	مجموعة اقاصيص
حالة الجريمة	:	مجموعة اقاصيص
الباحث عن الحقيقة	:	قصة طويلة
البيت الصـامت	:	قصة طويلة
اسطورة من كتاب الحب	:	مجموعة اقاصيص
للزمن بقيـة	:	قصة طويلة
النافذة الغربية	:	مجموعة اقاصيص
جولييت فوق سطح القمر	:	مجموعة اقاصيص
قصة لم تتم	:	قصة طويلة

رقم الإيداع ٢٥٠٢

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٢٢٥ قرشا